



الأسفار الخمسة (بنچاتنترا)

ترجمة ودراسة : د. عبد الحميد يونس

الأسفار الخمسة

(بنجاتنتر)

ترجمة ودراسة

د. عبد ا ميد يونس

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

**جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني
لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر
نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع أي جزء من
هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو
للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو أي
وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من
كتب عربية. حقوق الطبع الورقي محفوظة
للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.**

الفهرس

٥	تقديم.....
٦	مقدمة.....

السفر الأول

١٨	التفريق بين صديقين أو الأسد والثور.....
٢٠	الحكاية الأولى.....
٢٦	الحكاية الثانية.....
٢٩	الحكاية الثالثة.....
٣٤	الحكاية الرابعة.....
٣٤	الحكاية الخامسة.....
٣٦	الحكاية السادسة.....
٤١	الحكاية السابعة.....
٤٦	الحكاية الثامنة.....
٤٩	الحكاية التاسعة.....
٥٠	الحكاية العاشرة.....
٥١	الحكاية الحادية عشرة.....
٥٦	الحكاية الثانية عشرة.....
٥٧	الحكاية الثالثة عشرة.....
٥٩	الحكاية الرابعة عشرة.....
٦١	الحكاية الخامسة عشرة.....

السفر الثاني

٦٤	كسب الأصدقاء أو الحمامة والغراب والفأر والسلحفاة والغزال.....
٧١	الحكاية الأولى.....
٧٢	الحكاية الثانية.....
٧٣	الحكاية الثالثة.....
٨٣	الحكاية الرابعة.....

السفر الثالث

٨٨	الحرب والسلام أو الغربان واليوم.....
٩٢	الحكاية الأولى.....
٩٣	الحكاية الثانية.....
٩٤	الحكاية الثالثة.....
٩٧	الحكاية الرابعة.....
١٠٠	الحكاية الخامسة.....

١٠٣	الحكاية السادسة
١٠٤	الحكاية السابعة
١٠٥	الحكاية الثامنة
١٠٧	الحكاية التاسعة
١١١	الحكاية العاشرة

السفر الرابع

١١٧	الخرسان أو القرد والتمساح
١٢١	الحكاية الأولى

السفر الخامس

١٢٤	العمل الطائش أو البرهمى والنمس
١٢٤	الحكاية الأولى
١٢٧	الحكاية الثانية
١٢٩	البنجاتننرا وكليلة ودمنة دراسة مقارنة

تقديم

إن نقل رانعة من روائع الأدب العالمى إلى اللغة العربية ودراستها دراسة مقارنة مـع نظير لها من عيون الأدب العربى، هو إضافة علمية توضح الصلة بين التراث العربى وغيره من التراث العالمى.

وفى هذه الدراسة التى يقدمها الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس مع ترجمته للبنجـ..انتترا - الأسفار الخمسة -، تحقيق أدبى هام يربط بين رانعة عبد الله بن المقفع، كليلة ودمنة، وبين البنجانتترا.. كما تتضمن المقدمة والتعليق دراسة توضح الصلة بين هذين الكتابين العظيمين. ولا شك أن التراث العربى بحاجة إلى دراسات علمية عديدة ومتنوعة تكشف عن جهود المفكرين العرب فى الإبداع الإنسانى والإضافة الحـضارية المـستمرة، بجانب جهـودهم التاريخية المتواصلة فى الحفاظ على ما وصل إليهم من تراث عالمى أو وصـدـلوا هـم إليه. وكذلك إبراز الدور العلمى الذى قام به العلماء والمفكرون والرحالة العرب فى نقل عناصر ومقومات من الثقافة إلى غيرهم من الشعوب.

أحمد العدوانى

الأمين العام للمجلس الوطنى

للثقافة والفنون والآداب

مقدمة

منذ بدأ الاهتمام بالفولكلور فى القرن الماضى، والأوساط العلمية مشغولة بقضايا أساسية تصل بمفهوم الثقافة من ناحية، وبانتشارها عبر الزمان والمكان من ناحية أخرى. ولقد تأثرت مناهج العلوم الإنسانية، ومنها علم الفولكلور بالنزعات العنصرية والمذاهب السياسية، حتى أن فريقاً من الدارسين ألح على أن الموطن الأول، لكل ما يستحق التقدير من ثقافات الشعوب، إنما هو "الهند". التى رأوا أنها المنطلق الأول - للشعوب الآرية أو الهندو-أوروبية. ورأى فريق آخر أن الظروف التى تخلقها البيئات المحلية هى التى أثمرت الثقافات الشعبية، وهى التى فرضت وجوه التماثل والاختلاف بين هذه الثقافات. وكانت هناك وثائق أدبية، إذا صح هذا التعبير، يؤكد ما انتهى إليه أولئك وهؤلاء، وفى مكان الصدارة من هذه الوثائق كتاب يعد من معالم الأدب العربى والأدب العالمى فى وقت معاً، وهذا الكتاب هو "كليلة ودمنة" الذى لا يمكن أن يذكر إلا مقترناً باسم رائد عظيم من رواد النثر العربى، هو عبد الله بن المقفع.

وليس من غرضنا فى هذه المقدمة أن نفصل القول فى طبيعة هذا الكتاب، فهو معروف مشهور، ولا أن نعرض لقضية طال الجدل حولها دهراً، وهى التساؤل حول نسبة الكتاب إلى الأديب العربى أو الجزم بترجمته عن السنسكريتية عبر البهلوية، وقصارانا أن نتتبع الرحلة المضنية التى قطعها هذا الكتاب، وهى الرحلة التى تدل بذاتها على طبيعة الثقافة الشعبية وتواصلها ومرونتها، على الرغم من طول التاريخ، واتساع الرقعة المكانية، واختلاف الأورمة بين الجماعات الإنسانية، مع تباين لغاتها، وحوافز الصراع بينها. وكانت العقبة التى يواجهها المتنوع لهذه الرحلة الشاقة والفذة هى انقطاع التسلسل بين الوثيقة العربية، وهى حكايات كليلة ودمنة، وبين أصولها، حتى اكتشفت وثيقة هندية، دلت بنفسها، ولا نقول بدراستها، على أنها الحلقة المفقودة والمنشودة، وهذه الوثيقة هى مجموعة الحكايات المعروفة باسم "بنچ-انتترا" أو خزان الحكمة الخمسة، أو الأسفار الخمسة.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن تتحقق رغبتى فى الحصول على ترجمة إنجليزية دقيقة للنص السنسكريتى للأسفار الخمسة، فقد رأى زملائى وأبنائى فى قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بجامعة القاهرة أن يقدموا إلى نسخة من هذه الترجمة على سبيل التذكار، وكانوا على معرفة كاملة بحاجتى إلى هذه الحلقة المفقودة فى جانب من جوانب الدراسة الفولكلورية. وليس هناك ما يبدد الحواجز المصطنعة بين فروع ما اصطلاحاً على تسميته بالعلوم الإنسانية، بل ليس هناك ما يقضى على الحاجز الوهمى بين الصقل والارتجال فى التعبير، أو الرسمى والشعبى فى الآداب والفنون من انتشار هذا الضرب من موارد الأمثال، الذى سيق على السنة البهائم والطير، ليقوم بوظائف التهذيب والتعليم والسمر فى وقت واحد.

وعندما هممت بترجمة "البنجاتنترا" عن النسخة الموثقة، التي نقلها إلى الإنجليزية نقلاً. لا يكاد يكون حرفياً الأستاذ فرانكلين إدجرتون، أستاذ الأدب السنسكريتي وفقه اللغة المقارن بجامعة ييل، أدركت أن الجهد يتجاوز الترجمة إلى الدراسة المستأنية والإدراك الأخذ بمذاهب الأدب المقارن، وكدت أحجم عن المضي في هذا الطريق الصعب، ولكن طبيعة الوثيقة وأثرها في تبديد المخاوف التي يستشعرها الحريصون على فصاحة اللغة القومية، ورفع الأدب الرسمي حفزتني إلى النهوض بالتبعية واحتمال المسؤولية وإثراء اللغة العربية برائعة فذة من روائع الأدب العالمي، وأن أسد في الوقت نفسه ثغرة في تاريخ الأدب العربي، وأضع الحلقة المفقودة في مكانها من التسلسل التاريخي الجغرافي لكتاب كليلة ودمنة، الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من ثقافة الإنسان في أقصى المشرق وأقصى المغرب على السواء.

ويذهب فرانكلين إدجرتون إلى أن البنجاتنترا بين الآثار الأدبية الهندية هو الذي كان له شأن عظيم في الآداب العالمية، وهو يقول إنه لا يعرف كتاباً آخر قد حظى بالانتشار في أرجاء العالم مثل البنجاتنترا، ولا يفضل في ذلك سوى "الكتاب المقدس". وقد يرى البعض أن في هذه العبارة شيئاً من المبالغة، وقد يكون ذلك صحيحاً، ولكن هذه المبالغة تنطوي على التهوين من شأن الكتاب لا على تمجيده. وحسبنا أن نسجل أن هذا الكتاب قد ترجم عن غير لغته الأصلية أول الأمر إلى أكثر من خمسين لغة. ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي بلغ هذا الأثر الأدبي في رحلته الأقطار الأوروبية، وقبل القرن السادس عشر عرفته اللغات اليونانية واللاتينية والإسبانية والإيطالية والألمانية والإنجليزية والتشيفية وغيرها من اللغات السلافية. وعرف منذ ذلك في مشارق الأرض ومغاربها من جاوه إلى أيسلنده.

واحتل هذا الكتاب مكانة سامية في الهند، موطنه الأصلي، ولم يكن هذا أثر أدبي يدانيه في الذبوع. ومن الطبيعي أن يتسم بالمرونة، وأن يساير أذواق الشعوب في القارة الهندية، وأن يلخص ويشرح، وأن يجد من الأدباء من يصوغه نظماً ونثراً فنياً، ومن ينقله إلى اللغات واللهجات الشعبية والمحلية. وأكثر هذه الحكايات التي تضمنها الكتاب قد تحولت إلى ماثور شعبي، وأصبحت مادة أصيلة من مواد الفولكلور الهندي، يجمعها الدارسون المتوسلون بمنهج العمل الميداني في هذا العصر من أفواه الناس، وتظهر وكأنها منفصلة عن أصلها في المجموعات القصصية من ألسنة الناس مباشرة.

والبنجاتنترا معناها - كما أشرنا - الأسفار الخمسة، والملاحظ أن السفرين الأخيرين أقصر بكثير من الأسفار الثلاثة الأولى. ويستوعب كل سفر منها حكاية واحدة على الأقل، وقد يستوعب أكثر من حكاية، لها علاقة وثيقة بأحداث الحكاية الأصلية، وهي التي نستطيع أن نطلق عليها مصطلح "الحكاية المحورية".

وكثيراً ما يجد القارئ حكايات تعرض على سبيل الاستطراد من حكاية ثانوية. ومن الخصائص التي لها أهميتها أن المجموعة تستهل بمقدمة موجزة، وكأنها العمود الفقري لكل ما يستوعبه الكتاب من حكايات. وفي هذه المقدمة نجد حكيماً من البراهمة ينهض بتعليم ثلاثة من الأمراء، غلب عليهم الجهل والتبلد، أصول تدبير الملك، وذلك عن طريق السرد القصصى. وهذا يرجح أن البنجاتنترا كان يستهدف غاية عملية، وبذلك عد من كتب المبادئ والأصول الخاصة بالحكمة الدنيوية أو فن تدبير الملك، الذى كان الهنود يعدونه واحدًا من الأهم. داف الثلاثة التى تتغياها رغبة الإنسان، والهدفان الآخران هما: الديانة أو الأخلاق الفاضلة والمحبة. وليس من شك فى أن الغاية التعليمية العملية من الأسفار الخمسة ظاهرة جلية فى سياق الكتاب بأسره. وهو ينقل بين حين وحين عبارات من كتاب مشهور باللغة السنسكريتية هو كتاب "كوطليه أرثاشاستره" الخاص بفن تدبير الملك. وهذا يدل على أن أسفارنا الخمسة تماثل هذا الكتاب فى استهدافه الجانب العملى من الحياة، ولا جناح عليها من هذه الناحية، مما دامت متعلقة بالسياسة، أن تتجاوز الفضائل وأن تعنى بالوسائل، وأن تكبر من شأن السلوك والأخلاق، ونحن نجد ذلك واضحاً فى مغزى بعض الحكايات التى تدعو إلى الدهاء وإعمال الحيلة، لا إلى الاعتصام بالمثل والقيم الإنسانية العليا.

والأصل الهندى للبنجاتنترا أو الأسفار الخمسة يجمع بين النثر والشعر. والحكايات تروى بالنثر غالباً، أما المقطعات الشعرية فهى مقصورة على الأمثال والحكم وجوامع الكلام، وقد يتوسل بها فى تقديم حكاية محورية أو ثانوية، وهى تلخص ما يعرف باسم "المغزى" أو الدرس المستفاد من الحكاية المروية، وتكرر عادة فى ختام الحكاية بعد الصيغة التقليدية فى هذا الكتاب "ولهذا أقول..." وقد ترد تلك المقطعات فى تضاعيف الحكاية، ولكنها تظل معبرة عن المغزى أو الدرس المستفاد من الأحداث.

ويرجح العلماء المتخصصون أن البنجاتنترا فى أصلها السنسكريتى كانت موجودة فى القرن الخامس الميلادى، ذلك لأنها ترجمت إلى البهلوية، بتحريف يسير، فى القرن السادس. ووصل العلماء إلى هذه النتيجة عندما وجدوا أنها اعتمدت على كتاب "كوطليه أرثاشاستره"، ونقلت فقرات متعددة منه، وبذلك تكون الحكايات قد ظهرت بعد هذا الكتاب، وإن لم يقطعوا بتاريخ محدد لظهوره. والأمر كله يعتمد على الظن والترجيح، ومهما يكن من شئ فقد وضع ذلك الكتاب بين عامى ١٠٠ ق.م و ٥٠٠ م.

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المقام أن العالم لم يعرف البنجاتنترا من نسخته السنسكريتية الأصلية، إنما عرفه عن الترجمة البهلوية التى ظهرت فى القرن السادس الميلادى، والبهلوية كما نعلم لغة فارسية قديمة، والراجح أنها نقلت عن النص السنسكريتى

مباشرة، وقد ضاع هذا النص للأسف الشديد. ويقال إن الناقل طبيب فارسي اسمه برزويد، كما ورد في كتاب "كليلة ودمنة". ومما يؤسف له أيضا أن الترجمة البهلوية لم يعد لها وجود. وهناك ترجمة سريانية نقلت عن البهلوية قام بتبعتها رجل يدعى ب. ود. ع. ام ٥٧٠م، وهي أقرب إلى النص البهلوي وتكاد تكون معاصرة له. وعنى بها بعض الدارسين الأوروبيين المحدثين وحققوها وترجموها إلى الألمانية، وذهبوا إلى أنها أقرب إلى الأصل السنسكريتي من سائر الترجمات والنقول، وجاء ابن المقفع فنقل كتاب "كليلة ودمنة" عن البهلوية أي -ضا إلى -ى اللغة العربية عام ٧٥٠م ومن الواضح أنه استعار عنوان الكتاب من اسمي اثنين من -ن بذات أوى، عرفا في الأصل السنسكريتي باسمي كرطاكه ودمنكه. وأخملت هذه الترجمة العربية ما عداها، وهي التي يعود الفضل إليها في انتشار هذا الضرب من الحكايات شرقا وغربا على مدى التاريخ بعد ذلك.

وكل من يحاول تقويم الأدب العربي لا يستطيع أن يغفل كتاب كليلة ودمنة، الذي اقترن باسم عبد الله بن المقفع، وهذا الكتاب يتسم بفضيلتين: الأولى أنه من أوائل النصوص النثرية المطولة في تاريخ الأدب العربي، لأنه إنما ترجم في غضون القرن الثاني الهجري (الذي -امن الميلادي)، والثانية أنه جنس أدبي يكاد يكون منفردا في عصره، وهو ج -نس يختلف ع -ن المؤلف وقتذاك من الخطب والوصايا والرسائل. ومع التسليم بوجود الف -ن القصص -صى في الآداب العربية، فإن الأمثال التي تركز على موارد من حكايات الحيوان لم تجمع في ص -عيد واحد، كما هو الحال في كتاب كليلة ودمنة. ومن أجل ذلك حظى الكتاب بشهرة واسعة في العالم العربي، وعد من الأصول التي ينبغي أن يلم بها الأدباء والعلماء، وتعددت مخطوطاته وانتشرت في أرجاء الوطن العربي الكبير. وعن هذا الكتاب عرف الأوروبيون الجنس الأدبي، الذي يستهدف التهذيب والتعليم وصقل الموهبة الأدبية، والذي يتوسل بحكايات الحيوان. ويستطيع الباحث أن يرجح بأن الغرب لم يتصل بالبنجانتترا أو الأسفار الخمسة إبان القرون الوسطى، وفي عصر النهضة وما تلاها إلا عن طريق الترجمة العربية. وكان تأثير الغربيين بترجمة ابن المقفع أعظم من تأثيرهم بالمعارف الفلسفية، وذلك لأنهم اتصلوا بفلسفة اليونان، عن طريق العرب، ثم اغترفوا من هذه الفلسفة، معتمدين على أصولها اليونانية بعد ذلك. أما القصص الهندي الذي يشخص الحيوان لأهداف عملية وأدبية فقد عرفوه وتذوقوه وأفادوا منه بواسطة الوثيقة العربية، ولم يتجاوزوها - فيما نرجح - إلى الأصل السنسكريتي إلا في هذا العصر الحديث. ومع أنهم نقلوا الأسفار الخمسة إلى الألمانية عبر البهلوية، فإنهم لم يلتفتوا إلى هذه الترجمة، وإنما عولوا في التنويع والدراسة على كتاب "كليلة ودمنة" العربي.

ومن العسير أن ينتبع المرء الترجمات الكثيرة لهذا الكتاب، وحسبه أن يذكر أن النص العربي قد ترجم في القرن الحادى عشر الميلادى الى اللغة اليونانية على يد رجل يدعى سيميون سيث، وعن هذه الترجمة نقل في القرن الثانى عشر أو الثالث عشر الميلاديين إلى اللغة السلافية القديمة (البلغارية القديمة). وعن الترجمة اليونانية أيضا نقل هذا النص العربى الفذ إلى اللاتينية والإيطالية، وتم ذلك فى مراحل متأخرة، ثم ترجم إلى الألمانية فى القرن الثامن عشر.

ومن المشهور أن كتاب كليله ودمنه قد ترجم فى القرن الثالث عشر الميلادى إلى اللغة الإسبانية القديمة، ونقل إلى العبرية فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر، ونسبت هذه الترجمة الأخيرة الى حاخام يهودى يدعى جونيل، ولم يقطع العلماء بنسبة هذه الترجمة إليه. ولقد ذاعت هاتان الترجمتان، ولما جاء عصر الطباعة كانا من أوائل الكتب التى اتسع مجال الإفادة منها بطبعها ونشرها، وهما متقاربان، فى المضمون، وتنطقان بأنهما ترجمة تكاد تكون أمينة للنص العربى.

وعن الترجمة العبرية نقل كتاب كليله ودمنه إلى اللغة اللاتينية، ونهض بهذه الترجمة جون المنسوب إلى مدينة كابوا (جون اف كابوا)، ولقد حظيت هذه الترجمة بشهرة واسعة فى القرون الوسطى، وكانت من أوائل الكتب التى طبعت ونشرت عام ١٤٨٠ وأعيد طبعها مرارا فى العصر الحديث. ونقلت إلى لغات أوروبية متعددة منها الألمانية والإيطالية، وعن الترجمة الإيطالية نقل الكتاب إلى الإنجليزية على يد سير توماس نورث، ونشر عام ١٥٧٠ وأعيد طبعه عام ١٦٠١. وهكذا يستطيع الباحث أن يقرر أن أول ترجمة إنجليزية لكتاب كليله ودمنه إنما ظهرت لأول مرة مع فجر الأدب الإنجليزى فى عهد الملكة اليزابيث الأولى. ومن الطريف أن نسجل هنا مشاق الرحلة التى يقطعها كتاب مثل البنجاتنترا عبر الزمان وعبر المكان، فقد ترجم إلى الإنجليزية عن ترجمة إيطالية، عن ترجمة لاتينية، عن ترجمة عبرية، نقلت عن النسخة العربية، التى نقلت بدورها عن نسخة بهلوية، لم يعد لها وجود، عن الأصل السنسكرى للبنجاتنترا، وهو الأصل الذى جد العلماء فى سبيل البحث عنه. وثمة ظاهرة شغلت العلماء، وهى انفصال حكاية أو عدد قليل من الحكايات عن ذلك الأصل الأدبى المتكامل. وحسبنا أن نسجل وجود حكايتين اثنتين لهما أهمية خاصة فى التتبع والدراسة لأن لهما نظيرين فى الخرافات المنسوبة إلى إيسوب.

وأولى هاتين الحكايتين هى حكاية حمار فى جلد نمر وهى الحكاية الأولى من السفر الثالث من البنجاتنترا. والثانية حكاية حمار بلا قلب وبلا أذنين وهى الحكاية الأولى من السفر الرابع من البنجاتنترا أيضا. والضحية فى هاتين الحكايتين حمار. ومن المعروف أن هذا

الحيوان يجسم في الحكاية الهندية الشهوة الجنسية وهذه الصفة استغلّت ببراعة فائقة في هاتين الحكايتين. فهذا هو الحارس يرى الحمار وقد اكتسى جلد نمر في الظلام، فظنه نمر - راوب - ادر إلى التسلسل من المكان، وأخفى نفسه في عبائه الرمادية. واختلط الأمر على الحم - ار فخذ - ال الحارس واحدة من بنات جنسه، وانطلق يطاردها، وكان سمينا يحترق بنيران ال - شهوة، وم - ا كان من الحارس إلا أن أطلق ساقيه للريح. وعندئذ رأى الحم - ار أن يطم - ن ابذ - ع جذ - سه المزعومة بالنهيق الذي جعل الحارس يكتشف حقيقة أمره.

ونجد في السفر الرابع حكاية أخرى استغل فيها ما يعرف ع - ن الحم - ار م - ن ال - شبق الجنسي، وقد وعد ابن أوى الحمار بأن يقدم له ثلاثاً من إناث الحمير "لم تشاهد م - تلهن م - ن قبل، ويتألقن بنصرة الشباب". ويقفز الأسد على الحمار ولكنه يعجز عن اقتناصه. ويحاول ابن أوى من جديد الإيقاع بالحمار ويقنعه بأن هذا الحيوان الكبير، والذي بدا له غريباً، ليس إلا أنثى حمار "لم شاهد مثلها من قبل" وأنها كانت جد مشوقة إلى أحضانه فقفزت عليه، "ولكنك كنت من الجبن بحيث فررت منها ولم تستطع أن تحتل العيش بدونك، ولما رأيتك تف - ر م - ن أمامها مدت يدها لكى توقفك". ولم يستطع الحمار أن يقاوم هذا الإغراء الجديد وقف - ل راجع - ا إلى مصيره المحتوم. وفي نسخة أخرى من البنجاتنترا نجد أن الحمار يرتدى جلد أسد لا جلد نمر. والحكاية في هذه النسخة أضعف منها في الأولى، ذلك لأن الحمار يبادر إلى ال - نهيق - ق فزعا عندما رأى جمعا من الناس يهاجمونه، وقد ظنوه أسداً، ويفطن قروى إلى أنه حم - ار. وليست في هذه الحكاية إشارة إلى ما عرف عن الحمار من الشبق الجنسي.

وليس من شك في أن هذه الحكاية هي التي شاعت في الخرافات اليونانية واللاتينية باسم حمار في جلد أسد، وهناك حوالى ست حكايات من هذا القبيل لعل أقدمها ما رواه لوسيان (في القرن الثانى الميلادى) وهذا ما يجعلها معاصرة تقريباً للبنجاتنترا. وترد ك - ذلك ف - ي ن - نسخة بابريوس اليونانية (القرن الثالث الميلادى) وفي خرافات أفبان اللاتينية المتأخرة.

وفي خرافات إيسوب باليونانية واللاتينية لا نجد إلا جلد الأسد ولعل اليون - ان اس - تبدلوا بجلد النمر جلد الأسد لأنه أظهر.

ولا يجد الباحث في أية نسخة يونانية تفسيراً يطمأن إليه لارتداء الحمار جلد الأسد. ونحن نذكر أن الغساليين اعتادوا أن يحملوا الملابس على ظهور الحمير. ولا نجد إلا في نسخة يونانية متأخرة، ما يشير إلى أن الحمار يفضح نفسه بالنهيق، وهي سمة موجودة ف - ي جميع - ع النسخ الهندية.

ويذهب الثقات في دراسة الخرافات إلى أن حكاية الحمار بلا قلب ولا أذنين لا توجد إلا في خرافات إيسوب اليونانية لبابريوس (القرن الثالث الميلادى)، وهي مخت - صرة اخت - صارا

مخلا، على الرغم من أنها مستقاة من الأصل نفسه. وفي هذه الحكاية أسد م-ريض تتازع-ه رغبة عارمة في الحصول على قلب غزال ولا ذكر للأذنين فيها، فيطلب من صديقه الثعلب-ب (الذى يحل محل ابن أوى في الحكاية الهندية) أن يحضر له غزالا. ويحتال الثعلب على غزال ويزعم أن الأسد يشرف على الموت وأنه سيجعل منه الخليفة بعده. ويستجيب الغزال، ويقدم على الأسد الذى لم يستطع افتراسه لضعفه، ويفر الغزال. ويعود الثعلب إلى الغزال ويقول له إن الأسد إنما يريد أن يهمس فى أذنه بوصيته الأخيرة. ويتابع الثعلب حديثه قائلا: "إن الأسد-د غاضب منك لفرارك، وفى نيته أن ينصب الذئب ملكا بدلا منك." ويعود الغزال ويلقى-ى مصرعه فى هذه المرة.

ويطلب الأسد إلى الثعلب أن يمزق أوصال الفريسة. وبينما هو ماض فيما أمره الأسد-د به يلتهم قلب الغزال دون أن يحس به الأسد، ويفسر للأسد خلو الجسد من القلب بأن الغزال لو كان له قلب يعقل به لما عاد ثانية.

ولم توضح نسخة بابريوس الفائدة الطبية للقلب والراجح أن الأسد إنما كان يرغب فى الحصول عليه استجابة لنزوة طارئة فحسب، ولم يرد ذكر للأذنين فى ه-ذه الذ-سخة ع-ى الإطلاق مع أن النسخة السنسكريتية الأصلية قد حرصت على ذكرهما.

والواقع أن الأصل الهندى كان أقرب إلى المنطق من الحكاية اليونانية لأن إغ-راء الحمار بإشباع غريزة الجنس أقوى من التخييل للغزال بأن الأسد سوف يستخلفه على الملك-ك وكل من يوازن بين منهج البنچانتترا وبين منهج خرافات إيسوب يستطيع أن يلاحظ بوض-وح أن الحيوان فى البنچانتترا يتصرف وكأنه بشر فى صورة حيوان وقلمما يلتفت-ت إل-ى صد-فاته الحيوانية أما فى خرافات إيسوب، فإن الحيوان يتصرف باعتباره من عالم الحيوان فحسب.

* * *

وتبرز حكايات قليلة ودمنة ومدى تأثيرها فى الآداب الأوروبية من تتب-ع ع-دد م-ن القصص عبر الزمان والمكان، وبخاصة فى الآداب الأوروبية، ومن الشواهد التى تنطق بذلك قصة الناسك وابن عرس. وهى فى البنچانتترا حكاية البرهمى والنمس. ولقد اتضح للباحثين أن الرحلة التى قطعتها هذه القصة متواصلة بلا انقطاع، وإن طرأ عليها بعض التع-ديل فى الطريق بتأثير هذه البيئة الثقافية أو تلك، وهى تصور المخاطر التى تنجم من السلوك المتعجل الطائش. وإذا كانت جميع اللغات تردد المثل القائل إن فى العجلة الندامة، فإن مورد هذا المثل يمكن أن يلخص على الوجه الآتى:

حدث ذات يوم أن اضطرت زوجة أحد البراهمة الفقراء إلى مغادرة المذ-زل وعه-دت لزوجها بطفلها. وفي أثناء غيابها استدعى البرهمى إلى قصر الملك لأداء إح-دى ال-شعائر. وأذن المسكين لهذه الدعوة لأنه لم يكن يستطيع رفضها، إلى ما يمكن أن تدره عليه من صلة هو أحوج ما يكون إليها. وترك الطفل فى حراسة نمس أليف وأنصرف ملبيا دع-وة المل-ك. ومن المألوف فى الحكايات الهندية استئناس النمس لأنه عدو الثعابين القادر على قتلها. وأقبلت حية من نوع الكوبرا إلى الدار التى خلت من رب الدار وزوجته وتقدمت نحو الطفل. فما كان من النمس الأمين إلا أن انقض عليها وقتلها. ولما عاد البرهمى قفز النمس مهرولا إليه ليلقه-اه مفاخرا بعمله الجيد ومظهرا إليه فكه ومخالبه الملطخة بدماء فريسته وأخذ ينقلب ب-ين ق-دمى سيده. ولكن البرهمى ما أن رأى الدم يلطخ فم حيوانه الأليف ومخالبه حتى ظن أنه انته-ز فرصة خلو الدار وفتك بالطفل الذى لا حول له ولا قوة، وفى سورة غضب انقض على النمس وضربه بهرواة غليظة قضت عليه فى الحال.

واندفع إلى داخل الدار فوجد الطفل يرقد آمنا مطمئنا، وإلى جواره الحية وق-دم-زق جسمها إربا. وأفاق من سورة الغضب وأدرك الحقيقة وتملكه الندم وأخذ يشد ش-عر رأسه. ويلطم خديه وصدره على ما اقترف، ولكن هذا كله لا يمكن أن يعيد الحية-إلى الحى-وان الأمين.

وهذه الحكاية تماثل قصة الأمير لولين وكلبه جلرت كما رواه-ا ولي-ام سبن-سر فى منظومته الويلزية، وفيها صرع الكلب ذنبا تعرض لابن الأمير فى غيابه ثم استقبل الأمير عند عودته إلى الدار ودم الذنب يلطخ فمه ومخالبه. وما كان من الأمير إلا أن يقتل الكلب ب-فى سورة غضبه تماما كما فعل البرهمى مع النمس. ثم يكتشف الحقيقة آخر الأمر وين-دم، ولات ساعة الندم. وربما رأى بعض الدارسين أن هذه القصة الأخيرة المروية فى أف-صى ال-شمال الغربى من القارة الأوروبية تبين الحكاية الهندية، وقد يرجح أن تكون تاريخية، وقد يف-رض أن يكون الحدث فى القصة واقعا، مع الاختلاف بين الشخص، ففى الشرق برهم-ى فقير ونمس وحية، وفى الغرب أمير غنى وكلب وذنوب. ولم يعد هذا مج-ال للمذ-اظرة الذ-ى اشتجرت فترة طويلة بين العلماء التى اختلفوا فيها حول الأصل الواحد لأمثال تلك الحكايات، وبين الأصول المتعددة لها، بيد أن الأصل الواحد لها تثبتة عدة حق-انق، أولاها-ا أن الباد-ث يستطيع أن يتتبع رحلة الحكاية كتتابع قصاص الأثر، وأن يتبين كل تغير يطرأ عليها وال-سبب الذى دفع إليه... ومن الملاحظ أن البيئة الهندية إنما انتخبتم النمس لعداوته الفطرية للثعبان ووضع الترجمة العربية ابن عرس مكان النمس، الذى لم يكن معروفا عند العرب. ولم-ا نقلت الترجمة العربية إلى العبرية على يد جونيل وضع الكلب فى مكان ابن ابن عرس لأن

المترجم رأى أن الكلب هو مضرب المثل في الوفاء للإنسان. ونحن نجد في الحلقات كاهنا أو قسا وكلبا وثعبانا. ومن المعروف أن هناك ترجمات عربية أخرى مثل حكاية السندباد أو الحكماء السبعة، غيرت الناسك أو القس وجعلته فارسا، ذلك لأن من عادة الفرس أن يجعلوا الكلب أليفا مدللا. وهكذا نجد محاربا أو فارسا وكلبا وثعبانا وقد ثبت من الدراسة أن حكاية السندباد أو الحكماء السبعة انتشرت في ربوع أوروبا، أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، وأصبحت تعرف باسم حكماء روما السبعة، وراجت في كل إقليم من أقاليم أوروبا تقريبا، بما في ذلك إنجلترا وويلز. وتدور كل نسخة أوروبية من هذه الحكاية حول مدارب أو فارس وكلب وثعبان. والنسخة الويلزية التي تعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي تحفظ بالشعبان الذي قتله الكلب ولكن الشعب الويلزي أخذ يحور الحكاية في العصور الوسطى المدة الأخيرة ووضع الذئب في مكان الثعبان، والراجح أن الباعث على ذلك هو ما تصوره الشعب من أن الذئب هو العدو التقليدي للكلب. وهكذا أصبحت الحكاية حلقة من حلقات الماثور الشعبي في ويلز واختفى الثعبان وحل الذئب محله. ومن المقطوع به أن الشخصيات كانت نمطية لا تتعين أسماؤها. ولقد أوضح أحد المؤرخين كيف ومتى أصبح الأمير اللوين بطلا لهذه الحكاية وأكد أنه كان شخصية تاريخية وكان له كلب صيد أسماه جلوت. ولكن الرواية التاريخية تذهب إلى أن هذا الكلب نفسه قد مات ميتة طبيعية بسبب الإجهاد المفرط في رحلة صيد. ويعود الخلط بين هذا الأمير وكلبه وبين الحكاية الشعبية إلى خطأ صاحب خان، ومن إليه سير أن يتم تداعي الأحداث في الذاكرة مثل هذا الخلط في الأدب المروية والشعبية. ويحدد الدارسون الخلط بأنه إنما حدث عام ١٧٩٣ أو عام ١٧٩٤ أي قبل أن ينشر وليام سبنسر منظومته بست أو سبع سنوات. ويضاف إلى ذلك أن وليام سبنسر زار صاحب الخان الذي ينسب الخلط إليه قبل أن يذيع منظومته مباشرة. وبذلك تتضح خطوات الحكاية من البنجاتنرا إلى ويلز في أقصى الشمال الغربي من أوروبا مرة بالعالم العربي والإسلامي والمسيحي في القرون الوسطى. ومن المقطوع به أن الترجمة العربية قليلة ودمنة هي صاحبة الفضل الأكبر في هذه العالمية التي حظيت بها موارد الأمثال وغيرها من الحكايات الشعبية الهندية.

ولقد كان المعنيون بالأدب المقارنة يعتمدون على وثائق أدبية مدونة ومحقة، وقلماء اعتمدوا على الأدب الشعبية التي تعيش وتنتشر عن طريق الرواية الشفوية فحسب، ولكنهم في العصر الأخير اقتصروا بأن المرويات الشعبية الأصلية والمسجلة من بيناتهم الاجتماعية والثقافية ترقى إلى مرتبة الوثائق التاريخية والأدبية. ومن أجل ذلك اتخذت الأسفار الخمسة السنسكريتية مكانة لها خطرهما في مجال تاريخ الأدب المقارن، إلى جانب أهميتها الكبرى في الفولكلور. إليها يعود الفضل في تبديد الفكرة القديمة، والتي لا تزال تخيم على بعض العقول

للأسف الشديد، وهى أن الفولكلور محلى وجامد وأثرى، وأن كل قيمته وتتحصر فى طرافة أو غرابته أو دلالة على ظاهرة منقرضة. ولم يعد هناك شك الآن فى أن الآثار الأدبية والفنية التى تنسم بالعالمية كثيرا ما استمدت عناصرها من الفولكلور. والحياة الإنسانية إنما تنمى بالتواصل وتبادل التأثير والتأثير باستمرار وهذا كتاب كليله ودمنة الذى يقرن باسم عبد الله بن المقفع، والذى ترجم عن البهلوية، يعد من الأدب الرفيع بين المتوسلين باللهجة العربية الفصحى.. وأن أصله العريق يرتبط بالجماعة والشعب، وقد تناثرت وحداته عبر العصور والبيئات متوسلة مختلف اللغات واللهجات. وما من ثقافة رسمية أو شعبية إلا وهى تتنظم أكثر موارد الأمثال التى استوعبتها الأسفار الخمسة أو تضمنتها أبواب كليله ودمنة مع الدرس سليم بالتطور الذى يمليه ذوق العصر وثقافة البيئة وأسلوب الناقل.

وليس من غرضى أن أفيض فى الحديث عن كليله ودمنة، وهو حلقة الاتصال ووسيلة الانتشار بين العصور والبيئات واللغات، وحسبى أن أشير إلى وجوه الاتفاق والاختلاف بين الأصل الهندى وبين النص العربى، وأن يجد الذين تزودوا بحكمة كليله ودمنة وأسلوبه بين أيديهم الأصل الهندى، الذى يعد فى الوقت نفسه من روائع الأدب فى العالم. ومما له دلالة كبيرة، ولا يستطيع الباحث أن يغفله بحال من الأحوال، أن الأصل السنسكريتى إنما كان موجها إلى أمراء يفكرون إلى الفطنة ورجاحة العقل.

أما كليله ودمنة فأحاديث موجهة إلى أحد الملوك، لكى يعتصم بالوسط الذهبى فى السلوك، وألا يندفع إلى التهور والشطط ببساطة الحكايات والأمثال المستخلصة منها. وهذا التطور يشبه، بل يطابق الحكاية المحورية فى كتاب ألف ليلة وليلة، وهى المجموعة القصصية العربية، التى كانت بمثابة البؤرة، تتجمع فيها حكايات العالم. ثم تنعكس بعد ذلك عن طريق الشعب العربى إلى أوروبا متأثرة حيناً ومجموعة بهذه اللغة أو تلك أحيانا. وكانت وظيفة الحكاية المحورية أن يعتصم أحد الملوك بالوسط الذهبى أيضا فيلتزم الأصول ويبرأ من التهور والشطط والظلم.

وخير ما أختتم به هذه المقدمة الموجزة لكتاب البنجاتنرا أو الأسفار الخمسة أو خزانة الحكمة الخمسة هو أن هذه الوثيقة الأدبية النفسية ترد بذاتها على أولئك الذين لا يزالون عاجزين عن الاقتناع بتبادل التأثير والتأثير فى الفكر والفن بين الأفرد والجماعات، مهمما باختلاف الطبقات والبيئات واللغات والعصور.

مدخل

إلى مانو... إلى فاكسباتى... إلى شكرا... إلى براشرا وابنه وإلى كانيكيا الحكيم^١... إلى كل هؤلاء الذين صنفوا كتباً فى علم تدبير الملك نقدم أصدق آيات الإخلاص والخشوع. لقد أحاط فسنوشرمان بلباب كل الكتب التى تناولت علم تدبير الملك فى العالم، وألف بدوره رسالة تأخذ بالآليات ضمنها هذه الأسفار الخمسة.

وها هو ذا نصها:

يحكى أنه كانت هناك مدينة تدعى مهلاروبيا فى الإقليم الجنوبى وكان يقيم بهـ ١ ملـك يدعى أمارشكتى^٢. وكان كريما مثل شجرة الرغبات لا يرد سائلا. وكانت قدماء تتألقان بهـ سيل من الأشعة المتألئة الصادرة من مجوهرات تيجان الملوك النبلاء الذين ينحنون أمامه إجمالا له وكان بارعا فى كل الفنون متضلعا فى علم تدبير الملك. وكان له ثلاثة أولاد، هم فسوشكتى وأجرشكتى وأنكاشكتى^٣ وكانوا أغبياء لا يفقهون شيئا. وعندما رأى الملك أنهم يجهلون مبادئ علم السياسة استدعى وزراءه وتشاور معهم فى هذا الأمر وقال: أيها السادة... إنكم تعلمون أن أولادى هؤلاء أغبياء لا يفقهون شيئا. فأى فائدة فى أن يرزق المرء ابنا إذا كان مجردا من الحكمة والفضيلة؟ وماذا يستطيع إنسان أن يصنع ببقرة لا تدر لبنا ولا تلد عجولا؟

خير للحياة أن تجهض، خير للمرء ألا يباضع امرأة فى الفصول المناسبة، وخير له أن يرزق بابن يولد ميتا، أجل من الأفضل لو رزق المرء ابنة، أو كانت امرأة عـ باقرا. أو أن يصبح شريدا يتسول قوت يومه، من أن ينجب ولدا غبيا حتى لو كان وسيما غنيا قوى البنية. فبأى وسيلة إذن نشد ذكاء أولئك الأبناء الثلاثة؟ فانبرى بعض الوزراء يقول: "من المعروف يا مولانا أن دراسة قواعد النحو فى اللغة السنسكريتية تحتاج إلى اثنى عشر عاما، إذا تـ سر للطالب أن يحيط بها إلى حد ما، ولابد له بعد ذلك من الدراسة المنهجية للدين وعـ م تدبير الملك والحب^٤ ومن ثم فإن هذه مهمة تشق حتى على الأذكىاء فكيف بالأغبياء! وفى مثل هـ ذه

^١ مانو المؤلف المشهور لكتاب القانون الهندى ذائع الصيت وفاكسباتى "رب الكلام" وهو لقب أطلق على برهسباتى معلم الآلهة، وشكرا، معلم الشياطين أو الأسورا (أى الأسر الحاكمة فى الهند القديمة، وبراشرا كان والد فياسه، الذى اشتهر بأنه جامع أناشيد الفيدا والمهابهارته، أما كانيكيا فهو وزير الامبراطور المشهور كنندر جوبته والمؤلف ذائع الصيت لكتاب كوطليه ارثاشاستره، وهو كتاب يتناول أصول "علم تدبير الملك".

^٢ قوة الإله.

^٣ أى قوة الإله والقوة الرهيبة والقوة المتشعبة.

^٤ يرى الهنود أن هذه الموضوعات الثلاثة تضم كل ما يتمناه الإنسان وهم يدرجون تحت اسم ارثا النجاح فى الدنيا بكل أنواعه.

الأمور لا يوجد غير برهمى يدعى فسنوشرمان يحيط بكل صغيرة وكبيرة من علم تدبير الملك وقد طبقت شهرته الأفاق على يد تلاميذه العديدين. فهلا استدعيت له أمر تعديم الأمراء". وحظيت هذه الفكرة بالقبول فاستدعى وزير فسنوشرمان، فد-ضر وحيد-ا الملك بالسلام الماثور عن البراهمة وجلس. وقال له الملك بعد أن اطمأن في مجلسه "أيها البرهمى هلا صنعت معى معروفًا ولقنت هؤلاء الأمراء الجهلاء علم تدبير الملك حتى لا يذ-زهم فيه-ه أحد وسوف أجزل لك العطاء وما فرغ الملك من كلامه حتى نهض فسنوشرمان وقال للملك: مولاي، اسمع صوتى جهوريا كزئير الأسد^٥ وأنا لا أقول هذا لأنى امرؤ يطمع فى المال. لقد بلغت من العمر ثمانين عاما وتبدلت حواسى وفات الألوان الذى يستمتع فيه الإنسان ب-الثروة. ولكننى سوف اضطلع بهذه المهمة لتكون بمثابة الامتحان لبراعة التفكير ولكى أقدم ل-ك يد-د المساعدة وأرجو أن تأمر بتسجيل تاريخ يومنا هذا، وإذا لم أتمكن فى خلال ستة شهور من أن أجعل أبنائك متضلعين فى علم تدبير الملك يا مولاي أن تلقى بى من الباب^٦ وأن تقصينى عن البلاد مسافة مائة هاستا^٧. وعندما سمع الملك ووزراؤه البرهمى يقطع على نفسه ه-ذا العهد-د الذى لا يصدق تملكه شعور من الفرحه والدهشة معا وسلم الأمراء إلى ف-سنوشرمان بك-ل رعاية. وشرع الأخير فى تلقين أبناء الملك علم تدبير الملك فى صورة حكايات ألف من أجلها هذه الأسفار الخمسة وعناوينها: التفريق بين صديقين، وكسب الأصدقاء، وحكاية الغري-ان واليوم (أو الحرب والسلام) والخسران، والعمل الطائش.

(وهنا تنتهى المقدمة)

^٥ تعبير دارج فى الهند يقوله الرجل المنتصر الوائق بنفسه.

^٦ أو حرفيا إلى عرض الطريق.

^٧ مقياس للطول يبلغ حوالى ١٨ بوصة. ويبدو أنه كان يحب ذكر مسافة أطول إلا إذا كان يقصد بهذه الكلمة السخرية وهو أمر بعيد الاحتمال.

السفر الأول

التفريق بين صديقين أو الأسد والثور

الآن يبدأ هذا السفر الأول وعنوانه: التفريق بين صديقين، وها هي منظومة الاستهلال.

يحكى أن أسدا وثورا فى غابة نشأ بينهما حب عظيم أخذ ينمو على الأيام، ففضى عليه ابن أوى حقوق طماع. فقال أبناء الملك: وكيف كان ذلك؟ فروى فسنوشرمان هذه الحكاية:

كانت هناك مدينة تدعى مهيلاروبيا فى الإقليم الجنوبي، وكان يقيم بهـ.اـ تـ.اـجر يـ.دعى فرذمانكه^٨، كسب ثروة طائلة بوسائل مشروعة. وخطرت له يوما هذه الفكرة: لا بد من أن أنمى ثروتي وإن كانت ثروة طائلة، فقد قيل: عندما يكون المرء صفر اليدين فعليه، أن يسعى للحصول على الثروة، فإذا حصل عليها فلا بد من أن يصونها ويحرص عليهـ.اـ، وإذا صدـ.اـنها فعليه أن يعمل دائما على تـ.مـيـ.تـ.ها فإذا ما بلغ الغاية فى تـ.مـيـ.تـ.ها فعليه أن يهبها لمن يستحقها من الناس. عليك أن تحصل على الثروة عندما تكون صفر اليدين، وأن تصونها عندما تـ.دـ.صل عليها وأن تـ.مـى ما صنته، وأن تهب ما نميته لمن يستحق من الناس^٩. هذا ما قيل لنا أن نفعله، وهذا هو النهج الذى يجب أن يكون رائدنا فى الحياة الدنيا. فالمرء إذا لم يحصل على الثروة يكون من المعدمين. بل إنه حتى لو حصل عليها فإنها سرعان ما تـ.تـ.عـ.رض للـ.ضياع إذا لـ.م يصنها لأن الأخطار الكثيرة تـ.كـ.تـ.فـ.ها من كل جانب، وإذا لم يعمل المرء على تـ.مـى ثروته فإنها سرعان ما تـ.تـ.دد كما يتبدد الكحل من العين، ولو اقتصد فى إنفاقها، ومع هذا كله فإنها إذا لـ.م تـ.تـ.فـ. فى وقت الضرورة فالحصول عليها وعدم الحصول عليها سيان. ومن هنا وجـ.ب عـ.ى المرء أن يصون ما حصل عليه وأن ينميه وينفقه. وقد قيل "إن توزيع المرء للسلع التى فى حوزته هو الوسيلة الحقة الوحيدة لصيانتها. إنه أشبه ما يكون ببالوعة لمياه حبيسة فى جـ.و ف بركة.

وبعد أن فكر التاجر على هذا النحو، جمع حملا من السلع ليبيعها فى مثورا. وانطلق من المدينة فى رحلة للتجارة، فى يوم مبارك سعيد، بعد أن ودع كبار أفراد أسـ.رته. وأمـ.ر بتسريح ثورين فى عريش عربته، وكان أسماهما نندكا وسمجيفكا^{١٠} ومضى فى طريقه حـ.ى وصل إلى موضع فى غابة عظيمة، فيه شلال جبلى تساقط مياهه، وتنحدر من مسافة كبيرة فتكون بطيخة موحلة. وشاء الحظ العاثر أن يتوقف أحد هذين الثورين سمجيفكا عند البطيخة

^٨ أوفرذمانته ومعنى الاسم على وجه التقريب "مقتصد".

^٩ هذه الفقرة منقولة من كتاب اسمه كوطليه ارثاشاستره وهو سفر عن "علم تدبير الملك" ينسب إلى كاتيكيا.

^{١٠} ومعناها على وجه التقريب "المبتهج" و"الطروب".

الموحلة. وشاء الحظ العاثر أن يتوقف أحد هذين الثورين سمجيفكا عند البطيحة الموحلة لإصابته في ساقه. ولما كانت شحنة العربة ثقيلة جدا، غاص في الوحل وحطم النير. ولما رآه التاجر فرذمانكه على هذه الحال تملكه ضيق شديد ولبث ينتظر ثلاثة أيام سويا، إلا أن الثور لم يسترد عافيته، فما كان منه إلا أن عين له الحراس واستأنف رحلته في بقاع غريبة عليه. كما كان قد دبر من قبل، إذ أدرك أن الغابة محفوفة بالأخطار، وأراد أن ينقذ القافلة. وفي اليوم التالي اقتفى أثره الحراس الجبناء الذين كلفوا بالسهر على الثور وقالوا له كذبا: أيها السيد، لقد مات سمجيفكا هناك وأحرقنا جثته وقمنا نحوه بطقوس الدفن الأخرى. وعندما سمع التاجر بالخبر قدم القرابين للميت اعترافا بالجميل (لما أداه الثور من خدمات) وتكريما له، ثم استأنف رحلته. ولكن سمجيفكا كان لا يزال على قيد الحياة، ولم يكن أجله قد حان بعد فلقه أنعشت الرياح الباردة الممتزجة برذاذ الماء (المتساقط من الشلال) جسده، فتحامل على نفسه للنهوض، وشق طريقه على مهل إلى ضفة نهر جوما وأكل هناك أطراف العشب الزمردية وهام على وجهه حرا طليقا. وما هي إلا أيام قليلة حتى استعاد عافيته وأصبح جسمه ربهلا واسترد قوته وأضحى سنامه سمينا مثل سنام ثور شيفا. وظل هناك يفتح كل يوم قمم تلال النمل بضربات من قرنيه المدببين ويخور بصوت عال.

وكان في تلك الغابة، وفي موضع لا يبعد كثيرا، أسد يدعى بنجلكه^{١١}، تقوم على خدمته جميع الوحوش، وينعم في الغابة بثمار مملكته التي اكتسبها بجراته، ويرفع رأسه عاليًا، ولا يتطرق الخوف إلى قلبه. وقد قيل:

يعيش ملك الوحوش وحيدا في الغابة، لا يحمل شعارات السلطان، ولا يعرف شينا عن فن تدبير الملك. ومع ذلك فإنه وهو ذو الهمة العالية يستحق عبارات المديح التي تكال له وتتأدى به ملكا بحق.

ولم تتوج الوحوش الأسد ولم تقم له الطقوس المناسبة لذلك، لأنه إنه لم يصل إلى سلطانه بفضل جراته فحسب، ومن الطبيعي أن يسعى إليه منصب ملك الوحوش حينئذ.

واتفق أن أحس الأسد يوما بالظما فانطلق إلى شاطئ نهر جوما ليروى غلته. وبينما هو في موضع بعيد عن النهر سمع خوار سمجيفكا، وكان يختلف عن جميع الأصوات التي سمعها من قبل، وخيل إليه أنه أشبه ما يكون بصوت هزيم الرعد... صوت غير معقول لا يصدر إلا عند فناء العالم. وعندما سمعه تملك الرعب قلبه ووقف ساكنا لا يحير حراكا ولم يجرؤ على أن يطفى ظمأه. بيد أنه حاول أن يخفي أي بادرة تنم عن خوفه، ولبث بجوار شجرة التين

القائمة في الدوائر، واتخذ وضع الدوائر الأربعة^{١٢} دون أن ينبس ببنت شفة. أما وضع الدوائر الأربعة فهو كما يلي: الدوائر الأربعة وهي الأسد وحاشيته والكاكرفات والكمفرتات. والأسد وحده بين هؤلاء هو الحاكم على كل موضوع بالبلاد - من قرى وبلدات وودد وكمفرتات وكمفرتات فهم بالطبع الطبقات التي تشغل مراكز أخرى. وكان لهذا (الأسد) وزيران من بنات أوى شغلا منصبيهما بالوراثه وهى كرتاكه ودمنكه^{١٣}. وتشاور الاثنان معا وقتما دمنكه إذ ذاك لكرتاكه: يا صديقى كرتاكه لقد انطلق مولانا بنجلكه ليشرب، فلماذا توقف هذا؟ فقال كرتاكه: وما شأنك أنت بهذا؟ لقد قيل: إن من يحاول أن يشغل نفسه بمسألة لا يعنيه يلقى مصرعه مثل القرد الذى انتزع الوند. فقال دمنكه: وكيف كان ذلك؟ فقال الآخر:

الحكاية الأولى

* القرد والوند

يحكى أن أحد التجار كان قد شرع فى بناء معبد بالقرب من مدينة فى أحد الأقاليم. وانصرف البناؤون وغيرهم من العمال الذين كان يستأجرهم فى وقت الظهيرة لتناول طعام الغداء. وفى غضون ذلك كان أحد العمال قد شق عرقا من خشب الأرجونا، وتركه معلقا ووضع فيه وتدا من خشب الخديرة، دقه بطريقة آلية. واتفق أن أقبل إلى البقعة جمع كبير من القردة التى تسكن فى الغابة وبدأت تلعب وترتع هنا وهناك، بين قنن الأشجار وأبراج المباني وأكداس الخشب. وبينما القردة منهمكة فى هذا اللعب تسلق أحدها، فوق عرق الخشب ويبدو أن هذا القرد قد حانت منيته، فأخذ يتصرف بطريقة تتم عن غيائه، فوقف فوق الوند وقد تدلت خصيته من الشق وقال: من دفع هذا الوند إلى مكان غريب عليه؟ وأمسك به بهدأ يجذبه بيديه. أما ما حدث عندما ترحزح الوند من مكانه، فأنت تعرفه ولا داعى لأن أرويه لك.

[نهاية الحكاية الأولى]

^{١٢} لا شئ يعرف عن هذه "الدوائر الأربعة" اللهم إلا ما يظهر فى هذه الفقرة. والظاهر أنها تدل على طبقات اجتماعية بين سكان مملكة الأسد. ويتصور على الأرجح أنها تقابل بطريقة غامضة الطوائف الأربعة للمجتمع الهندى، على الرغم من أن التطابق أبعد من أن يكون كاملا. والكلمتان كاكرفات وكمفرتات (له صوت غراب) ولمعرفة "ما هو المصير، وربما جماعات متعددة" فغامضتان غاما فى الاستعمال.

^{١٣} الاسم دمنكه يعنى شيئا مثل "المنتصر" أما كرتاكه فلعل معناه "نو العواء المخيف".

ولهذا أقول: العاقل هو من يعرض عما لا يعنيه. وعاد يقول: إنك لا تستطيع أن تتكبر أن لدينا ما يكفينا من الطعام من فضلات (الأسد). فقال دمنكه: وكيف ترضى يا سيدى بالكفاية من الطعام فحسب؟ إنك تعرف أنه ما من أحد يلتحق بخدمة سيد معظم إلا لى يحصل على مغنم، وهذا ما عبر عنه جيدا المثل القائل: إنما يسعى العقلاء إلى خدمة الملوك لمد يد العون إلى أصدقائهم وإلحاق الأذى بأعدائهم. ومن ذا الذى يعجز عن إشباع بطنه؟ لا يستحق العيش إلا من تتوقف على حياته حياة الكثيرين. ألا يملأ طائر الكركى جوفه بمنقاره؟ وقد قيل أيضا:

إن عظمة قذرة من عظام البقر يسيل لها لعاب الكلب ولو خلت من أثر اللحم، ولم يدق عليها سوى فضلات من الأوتار والدهن، وهى مع ذلك لا تكفى لإخماد سورات جوعه. وإن الأسد ليترك ابن أوى وهو فى متناول قبضته ويضرب الفيل ليصرعه. وما من إنسان، حتى فى أشد أوقات الضيق إلا هو يتطلع إلى المغنم التى يرى أنها تكافئ إقدامه. عندما يقذف أحدهم بكسرة إلى كلب، فإنه يصبص بذنبه ويتمرغ عند قدمى (من أعطاه إياها) ويتلوى على الأرض ويدير وجهه وبطنه نحوه. أما الفيل النبيل فإنه يحتفظ بوقاره ولا يرضى أن يتناول علفه إلا بعد أن يتملقه الغير.

لا ينعم فى هذا العالم سوى من يكسب قوته بالحيلة أو الجرأة. فالكلاب يستطيع أن يحصل على كسرة عندما يصبص بذنبه. والحكيم يقول إن الحياة حقا فى هذا العالم إنما هى التى يعيشها صاحب الفضل على أهله وإخوانه ولو كان ذلك لأمد قصير، يتمتع فيه بالاشهرة، ولا تعوزه الحكمة أو الجرأة أو المجد. ألا ترى أن الغراب يعيش عمرا مديدا ينعم فيه بالتهام ما يلقى إليه من طعام.

من اليسير ملء نهير صغير ومن السهل ملء مخالب فأر ومن الهين إرضاء رجل قنوع فمجرد شئ تافه يرضيه. إنه لا يعرف كيف يميز بين الخير والشر، إن على عقله غشاوة تحجبه عن معرفة كثير من الشعائر التى نصت عليها الكتب المقدسة. وهو لا هم له إلا ملء بطنه، إنه من البهائم فأى فرق بين وحش بمعنى الكلمة ووحش فى صورة إنسان؟

إن الثور النبيل ليجر عربات ثقيلة ولا يأكل إلا العشب (ولا يأكل اللحم) وهو يـ سحب المحراث فوق الأرض الصلبة واللينة على السواء. وهو خير وبركة للناس وأصله طاهر وهذه المزايا تجعله يفضل وحشا فى صورة إنسان.

فقال كرتاكه: ولكننا كما ترى لسنا من أهل المنزل فما شأننا بهذا؟

فقال دمنكه: أيها الصديق إن المرء يستطيع أن يكون من أهل المنزل فى وقت قصير، وقد قيل إن المرء لا يكون نبيلًا أو خسيسا فى هذا العالم بفضل سلطان أى (أمير). ولا فضل

لإنسان على آخر فى هذا العالم إلا بعمله، فهو كفيل بأن يرفعه إلى منزلة عالية أو يخفضه إلى منزلة وضيفة.

مثل الارتفاع إلى المنزلة الرفيفة والانحطاط إلى المنزلة الوضيفة مثل حجر يرفع بجهد عظيم إلى قمة التل ويدحرج إلى سفحه بلا جهد يذكر.

ولهذا تأكد يا صديقى إن كل امرئ بما كسب رهين. فقال كرتاكه: حسن، ماذا انتويت أن تفعل فى هذا الأمر؟ فقال: من الواضح أن مولانا الأسد بنجلكه جبان وكذلك أتباعه وأذنه ضعيف الرأى. فقال الآخر وما يدريك أنه كذلك يا سيدى؟ فأجاب دمنكه: مـن الـيـهـ سير أن أعرف هذا فقد قيل:

إن الحيوان الأعجم يدرك بالحس معنى ما يعبر عنه أمامه والجيد - باد والفيلة تتدرك استجابة لفرقة السوط والرجل ذو الرأى يتكهن بما فى باطن صاحبه، لأن ذكاء المرء يتجلى فى إدراك ما يظهر له من هيئة غيره وشكله.

ولهذا سوف أمسك بتلابيبه وهو فى هذه الحالة من الرعب وأضعه اليوم تحت سد-لطانى بفضل ما وهبت من ذكاء شديد.

فقال كرتاكه: وكيف تضعه تحت سلطانك أيها الصديق وأذنت لا علم لك بخدمة الملوك؟ فأجاب دمنكه كيف تقول إنى لا علم لى بخدمة الملوك أيها الصديق؟ إن باعى طويل فى أصول الخدمة بالبلاط، وقد قيل: أى حمل ثقيل يعجز الرجل الشديد القوى عن رفعه؟ وأى مسافة تقصر همة صاحب العزيمة عن قطعها؟ وأى أرض تعد غريبة بالنسبة للعالم؟ ومـن ذا الذى يعادى من يترفق فى الحديث؟

فقال كرتاكه: من يدري؟ لعل مولانا يسخط عليك لاقتحامك حضرته فى لحظة غيرة مناسبة. فقال الآخر: هذا صحيح ومع ذلك فإن رجل الحاشية لا يرضى بالفشل فى التقرب من (مولاه). وقد قيل: إن الملك لا يؤثر برضاه إلا من يراه بقربه ولو كان غريباً جاهلاً وضيع الأصل، فالملوك والغانيات والكروم تحتضن كل ما يجاورها.

فى وسع المقربين من الملك أن يعرفوا ما يثير سخطه وما يرضيه وشيئا فشيئا يمكنهم السيطرة عليه ولو قاومهم^{١٤}، فقال كرتاكه: وماذا أنت قائل يا سيدى عندما تجد نفسك فى حضرته؟ فقال دمنكه: سوف ألبس لكل حالة لبوسها وأتصرف استجابة لما يمليه على الموقف ومن هذه الاستجابة ينشأ الرد، مثل ذلك مثل حبة تتبث من حبة أخرى سقط عليها مطر غزير

^{١٤} تحتوى العبارة الأخيرة على تلاعب بالألفاظ وشيئا فشيئا يتسلقون كتفيه (مثل الشجرة) ولو كان يهتز (بفعل الرياح).

وأفاض عليها من بركته. وقيل أيضا: إن الكارثة التي تترتب على ع-رض خط-ط-س-ينة والتوفيق الذي يعقب عرض خطط بارعة ليرتبطان بأصول تدبير الملك، أى تظهِ-ران س-لغا بحيث يستطيع ذو الراى أن يشير إليهما.

وأنا لن أتحدث إلا عندما يجىء الأوان.

إذا قال برها سباتى^{١٥} نفسه كلمة فى غير أوانها "قإن رأيهِ سوف يقابل بالاحتقار ولن يلقى سوى الازدراء." أن يتحدث باعتدال ولا يتفوه بعبارة إلا فى الموضع المناسب والوقت المناسب ولن يتفوه بها أمام امرئ يفتر إلى الرشد أو رجل مجرد من الفضل ولهذا فإنه لا يتفوه بهذه العبارات عبثا وقد قيل:

إن المزية التى يتمتع بها المرء وتعينه على كسب عيشه والتى من أجلها يثد-ى عليه-ه الأخيار، لابد أن يهتم بها صاحبها ويعمل على تميمتها.

فقال كرساكه: ولكن من الصعب أن تغفر، بالخطوة لدى الملوك فهم كالجب-ل صد-عاب المرتقى، قساة القلوب غلاظ الأكباد دائما (تورية عن الجبال الوعرة) بفطرتهم ويد-يط به-م رجال أراذل (مزدحمة بالحيوانات الضارية) وهم ينسقطون الزلات (يرتادها الناس من خ-لال الشقوق)، ومن شيمتهم الغدر (تؤوى وحوشا غادرة) لأن الملوك مترفون مثل الثع-ابين (له-ا طيات) ومسربلون بعدة الحرب (جلود الثعابين) ومتوحشون، ويعملون (يتحرك-ون) بطريقة ملتوية، ولهم مناخير (قرون الثعابين) ويمكن اكتساب قلوبهم بالكلمة الطيبة (مفاتي الثع-ابين). فقال الآخر: "هذا صحيح ومع ذلك يستطيع الرجال أن يخدموا الملوك ويشربوا السم ويغازلوا النساء إذا بلغوا درجة كافية من الدهاء." وقد قيل أيضا: يستطيع العاقل، أن يك-سب قلب أى امرئ مهما كان مشربه ويطويه سريعا تحت جناحه.

فقال كرساكه: فليحالفك الحظ. اعمل ما تراه خيرا. وودعه دمنكه ودنا فى حد-ذر من بنجلكه. ورأى بنجلكه دمنكه قادما من بعيد فقال لحراسه: "اطرحوا هرواكنم بلا توان، فالقادم هو دمنكه، وزيرنا بالوراثة، الذى خدمنا طويلا، وله الحق فى المثل بين يدي، ما دام ينتم-ى إلى الدائرة الثانية،" اقترب دمنكه وانحنى محييا واتخذ مقعده فى الموضع الذى عينه له بنجلكه ووضع الأسد عليه يده اليمنى المزينة بمخالب تشبه الصواعق^{١٦} وقال له فى بشاشة:

السلام عليك. أين كنت؟ لقد مضى عهد طويل منذ رأيتك لآخر مرة. فقال دمنكه: كنت على يقين من أن جلالتك ليس فى حاجة إلى خدماتى ومع ذلك فليس للوزراء أن يحجموا عن

١٥ مرشد الآلهة ورب الحكمة.

١٦ أو الفئوس الصغيرة.

إبداء الرأي والنصيحة. وقد جئت اليوم لأن عندى ما أقوله. وأعتقد أنه ليس هناك أحد لا يفيد منه الملوك بطريقة أو أخرى وقد قيل:

أيها الملك ما أكثر ما يستطيع أن يفعله رجل له لسان ويدان! ألا ترى أن الأمراء قد يستخدمون نصلا من العشب لكي ينظفوا به أسنانهم أو يخمشوا به آذانهم؟ وقد قيل أيضا: إن المروءة لا تمحى من رجل ولو خفضت منزلته. ألا ترى أن الشعلة من الذئب تـأبى إلا أن ترتفع ولو أديرَت إلى أسفل.

إذا وطئ رجل بقدمه، فى وقت غير مناسب، ثعبانا له لون كالوقوف الأزرق الداكن أو لون كالعينين المرسومتين على ذيل الطاووس أو لون الكحل ولم يلدغه فهل يغره ذلك منه. ويعتقد أنه فى أمان من لدغته القاتلة؟ ومن ثم أيها الملك: عليك دائما أن تفرق فى المعاملة بين رعاياك بمملكتك لأن النجاح يتوقف على إدراك منازل الرجال. وقد قيل فى ذلك:

قد يخلط المزارع البذور معا ويزرعها ومع ذلك فإنه يحكم على صلاحية البذور بنبتها وظهورها. ولهذا فإن على الملك فى جميع الأوقات أن يعرف قدر الرجال وتبعاً لذلك: عليه ألا يثق إلا بالأتباع المخلصين وألا يضع الحلى إلا فى مواضعها الحقيقية فالمرء لا يحلى قدمه بدرة لمجرد أن هذا فى وسعه، وإذا كانت هناك درة، تستحق أن توضع فى حلية من الذهب، ووضع فى حلية من القصدير فإنها لن تشكو أبداً وسوف تظل تتلألأ أبداً. ولا لوم إلا على من يتحلى بها على هذا النحو. إذا عرف ملك كيف يميز بين أتباعه بالحكم عليهم بـ أن هـذا الرجل عاقل، وهذا مخلص، وهذا عاقل ومخلص فى آن واحد، وذلك أحمق - فإنه يجد الكثير من الأتباع.

يستطيع التابع أن يهجر مولاه لأسباب ثلاثة: إذا سوى بينه وبين مرؤسيه، وإذا لم يعامل بالاحترام الذى يعامل به أقرانه، وإذا أسند إليه عمل تافه.

يضاف إلى هذا أننا أتباع جلالتك بالوراثة ونحن لا نتخلى عنك حتى فى وقت الشدة فليس لنا ملجأ آخر سواك، وهذه هى شيمة الوزراء وقد قيل: أى رجل نبيل يبقى لحظة واحدة فى موضع لا فرق فيه بين اليد اليمنى واليد اليسرى. إذا كان لديه موضع آخر يذهب إليه.

عندما لا يعرف سيد أقدار أتباعه ويعاملهم على قدم المساواة فإن ذوى الهمة منهم تفتر همتهم، ما أعظم الفرق بين مختلف الخيول والفيلة والمعادن... بين الأخشاب والأحجار والثياب... بين النساء والرجال والمياه.

ولنضرب الآن مثلاً عن الفروق:

ليس من شك في أن الأبله الذى يطمع فى أن يحمل ألف بهاراس^{١٧} من الحجـ ر عـى كـتـفـيـه لـا بـد أن تـخـور قـواه أو يـمـوت ولو رـفـع الحـمل.

عندما يحصل رجل فطن على ياقوته لا تزيد عن حجم إبهامه فـمـن الـسـهـل عـلـيـه أن يـحـمـلـها ولـكـن أيسـتـطـيع لو فـعل ذلـك أن يـجـنى ربحـا عـظـيـمـا؟ ولـهـذا فـأنى أرى أن الأتـبـاع إـمـا يـتـفـاوتـون فى الطـبـاع حـسـب ما يـتـحـلى به سـادـتـهم من سـجـايا. وكـيـف ذلـك؟

قد يكون بالجواد والسلاح والمعرفة العلمية والود والكلام والرجل والمرأة نفع وقد لا يكون، فالأمر يتوقف على معدن الرجال.

إذا كنت تجدنى عندك صغير المنزلـة لأنى من بنات أوى فهذا أيضا خطأ لأن "قـشـنو" اتـخـذ هـيـة خـنزير برى واضطر النبى العظيم (رسبارنجا) أن يبدو فى صورة غزال واتخذ ذو الأوجه الستة (سكاندا إله الحرب) شكل عنزة ومع ذلك ألم يكرمهم الإله العادل؟ وقيل أيضا:

ليس من الأصول السليمة الثابتة أن يفضل دائما الخادم الذى يولد فى بيت الأسـرة وتـطـول فى خـدمـته عن غيره من الخدم بل إن الأفضل هو الناصح الأمين ولذا قيل:

لا بد من قتل الفأر على الرغم من أنه يولد فى البيت لأنه مؤذ بفطرته فى حين أن الهر يقبل على سبيل الهدية من غرباء لأنه نافع.

لا سبيل إلى الإفادة من الحمقى. ألا ترى أنه لا يمكن تشكيل تحفة من الخشب من نبات الخروج أو من نبات بهنذا أو أركا أو من البوص ولو جمعت منها كميات كبيرة.

ما الفائدة من امرئ مخلص إذا كان عاجزا؟ وما الفائدة من امرئ قادر إذا كان قد جبل على الأذى وأنا أيها الملك مخلص وقادر فهلا عرفتـى: من أجل ما أنا عليه من سـجـايا. وقـيل أيضا:

إذا ساء حكم الملك على الرجال فلا غرو أن ضمت حاشيته أغبياء يحولون بهـ سلـطـانـهم بينه وبين أى رجل من ذوى الرأى فى حاشيته وإذا خلت المملكة من ذوى الـرأى انتـهـجـت سياسة غير رشيدة تغود القبيلة بأسرها إلى خراب محقق وإلى هلاك الملك وحده معها.

فقال بنجلـكـه: لا تـقل هذا يا صديقى دمنـكـه، فأنت وزيرنا بالوراثة وقد خـدـمـتـا طـويلـا. فـقال دمنـكـه: إن لـدى ما أقولـه لك. فـقال: هات ما عندك فـقال دمنـكـه: لقد خرج مولـاى ليدـشـرب ثم توقف هنا وقفل راجعا دون أن يطفئ ظمأه كأنما أفرعه شىء فهل لى أن أعرف لماذا عاد مولـاى؟ فـقال بنجلـكـه ليخفى ما يشغل ذهنه: لم يدفعنى لهذا سبب بالذات يا دمنـكـه. فـقال: مولـاى إذا كان ذلك لأمر لا يصح أن تفصح عنه فليكن. وعندما سمع بنجلـكـه منه هذا الكلام أخذ يفكر

^{١٧} وزن ثقيل معين، ومعناها حرفيا "حمل".

وقال فى نفسه: لقد تبين ما أكتمه فى صدرى ويبدو أنه تابع أمين فلماذا أخفى شيئا عن هـ. ذا التابع المخلص؟ انى أرى أن أصارحه بما يدور فى خلدى. وقال: ألا تسمع يـ. ا دمكـه هـ. ذا الضجيج المرتفع الذى يصدر من مكان بعيد! فقال: بلى يا مولاي، أنى أسمعه بوضوح تام فما هو؟ فقال بنجلكه: أيها الصديق لقد خطر لى أن أغادر هذه الغابة لأن هذا الـضجيج لا يـد أن يكون صادرا من مخلوق لم نسمع عنه قبل، جاء إلى هذا الموضع وهـ. و الـذى نـسمع الآن ضجيج المرتفع الغريب. ولا بد أن هذا المخلوق من نوع يكافئ هذا الضجيج ولا بد أن جرأته تتناسب خلقته^{١٨} ولهذا لا أستطيع أن أبقي هنا بعد ذلك، فقال دمكـه "أيمكن أن يكون مولاي قد فرغ من مجرد صوت؟" ولو صح هذا فإنه أيضا خطأ. وأضيف إليه: إن السد يحطمه المـاء. والنصيحة الخالصة تضيع سدى إذا لم تبقى فى طى الكتمان، والصدقة أفتها الغيبة، والجبان قد يموت فرعا من صوت.

والرأى عندى أن من الخطأ أن يهجر مولاي هذه الغابة التى بسط عليها سلطانه منذ أمد طويل لمجرد سماعه صوتا، ذلك لأن هناك أنواعا مختلفة من الأصوات تصل إلى أسماعنا هنا ولكنها ليست إلا أصوات، ولا داعى للفرع منها. فنحن مثلا نسمع هزيم الرعد مـن بـين السحب وأصوات المزامير والأعواد ودقات الطبول والدفوف وصوت الأبواق ورنين النواقيس وصوت العجلات والأبواب والآلات وغيرها من الأشياء ولا داعى للخوف منها، فقد قيل: لقد توهمت فى مبدأ الأمر أنه محشو بأطيب أنواع الشحم واللحم ولكن ما أن اقتحمته حتى تبيذت أن ليس إلا جلدا أو خشبا. فقال بنجلكه: وكيف كان ذلك؟ فقال دمكـه:

الحكاية الثانية

* ابن أوى والطبل

يحكى أن حيوانا من بنات أوى أضناه الجوع حتى نحتت رقبتـه فأخذ يضرب فى الغابة على غير هدى بحثا عن الطعام إلى أن بلغ ساحة كان قد اشتجر فيها القتال بين جيشين وهناك سمع ضجيجا عاليا فغاص قلبه هلعا لدى سماعه ذلك الصوت وأخذ يفكر ويقول لنفسـه: مـا عساه أن يكون؟ لقد هلكت! من أين يصدر هذا الضجيج؟ وأى نوع من المخلوقات يصدر عنه؟ وأين هو؟ وقام على أثر ذلك بالبحث عن ذلك المخلوق فوجد طبلـة هائلة أشبه ما تكون بقذـة جبل. ولما رآها قال فى نفسه: أيمكن أن تصدر تلك الضجة العالية من هذا الشيء بالـذات أم أنها تصدر عن شيء آخر؟

^{١٨} إن الكلمة السنسكريتية المترجمة بكلمة مخلوق تحوى نوعين من التلاعب بالألفاظ، فهى تعنى "مخلوقا" وفطرة وأيضا شجاعة.

وكانت الطبلّة تصطدم بأغصان شجرة تتحرك جينة وذهابا بفعل الريح فتصدر عنها صرجه مرتفعة وإذا سكنت الريح ظلت ساكنة. وصعد بالقرب منها ليكتشف أمره. وضحها على وجهها ليرى ما يحدث وقال لنفسه: هأنذا أجد آخر الأمر وجبة شهية في هذا الشيء ولا شك أنه محشو بأطيب أنواع اللحم والشحم والدم! وما كان مذه إلا أن مزق وجهه الطبلّة بأظفاره وزحف إلى داخلها وكان الجلد صلبا جدا فكاد أن يحطم أسنانه. ولدهشته لم يجد فيه شيئا فقل راجعا وقال لنفسه: "لقد توهمت في مبدأ الأمر أنه محشو بأطيب أنواع الشحم واللحم ولكن ما أن اقتحمته حتى تبينت أنه ليس إلا جلدا وخشبا".

إنهاء الحكاية ٢

ولهذا أقول: ينبغي ألا تخشى شيئا لمجرد أنه يصدر صوتا مرتفعا، وعلى أية حال فإني أستطيع إذا شئت أن أنطلق إلى حيث يصدر هذا الصوت المرتفع واكتشف حقيقة أمره. فقال بنجله: أتجروا حقا على الذهاب إليه؟ فقال: بالتأكيد. فقال بنجله: إذا كان الأمر كذلك أيها الصديق فاذهب وليكن الحظ حليفك! فاتحنى له دمنكه، وانطلق نحو الصوت المرتفع الصادر من سمجيفكا. وعندما انصرف دمنكه غاص قلب بنجله هلعا وقال لنفسه: يخيل إلى أنى لم أحسن صنعا بالثقة بهذا التابع ومصارحته بما يدور في ذهني، ومن يدري؟ لعل دمنكه هـذا يتخذ منى موقف العداء وقد يحاول أن يكرى بي وقد قيل^{١٩}:

يستطيع المرء أن يتقى بالخدعة والمكر شر من قرب ثم أبعد ومن نبذ من غير جـرم والساخط والجشع ومن أصابه ضرر وضيق ومن تطوع بخدماته يرجو بها خيرا، أما الفقراء الذين أنقلت كواهلهم بالمكوس والذين قربوا أولا ثم أبعدوا والذين لم يقدرهم جـزاء ما قدموا من أعمال مجيدة مثل غيرهم والذين أضناهم النفي عن الوطن ووضعوا في الظل بأيدي أقرانهم وجردوا من النعم وكذلك الذين أنقلت كواهلهم بأعمال كثيرة مضيئة والطامحون (إلى العرش) من الأسرة نفسها، جميع هؤلاء لا يسمون في حقوقهم^{٢٠} حتى في الأسرة صاحبة الدائمة ولا بد من اختبارهم بكل وسيلة ممكنة.

ولعل دمنكه هذا يرى أنه جرد من النعم فيتخذ منى موقفا معاديا ومن يدري! لعله يتخذ سبيله نحو الأقوى لأنه هو نفسه عاجز عن إلحاق الضرر بي، وأنا في هذه الحالة هالك لا محالة. والرأى عندي أن أنطلق من هذه البقعة إلى موضع آخر حتى أتبين ما هو صانع. وما أن وصل في تفكيره إلى هذا الحد حتى انتقل إلى موضع آخر وظل هناك وحده يتطلع إلى-

١٩ إن الفقرة التالية ليست منقولة بدقة عن كتاب كوطليا ارثاسترا المنسوب إلى كاتيكيا.

٢٠ أو "يتكروون لفطرتهم".

الطريق الذى سلكه دمنكه. وانطلق دمنكه إلى حيث كان سمجيفكا وعندما وجد أنه لـيس إلا ثورا غمره السرور وقفل راجعا إلى بنجلكه، وكان قد عاد إلى موضعه الـسابق وحـاول أن يخفى ما تتم عنه أساريـره وقال لنفسه: لو لم أفعل ذلك فإن دمنكه سوف يظن هــو وأتـبعـا عى الآخرين أننى جبان. ولما وصل دمنكه إلى حضرة بنجلكه انحنى له وجلس فقـال بنجلـكـه: حسن يا سيدى هل رأيت ذلك المخلوق؟ فرد دمنكه قائلا: نعم، بفضل جلالـتكم فقال: هل رأيته على حقيقته؟ فقال دمنكه: "نعم" فقال بنجلكه: إنك لم تـره كما هو فى الحقيقة لأنـك لا تـشغل منصبا رفيعا وما دمت عاجزا فإنه لن يعترضك، لأن الإعصار لا يـقتلع الحشائش الرخوة التى تتحنى أمامه فى كل اتجاه وهو لا يحطم إلا الأشجار السامقة. والقوى لا يستعرض جرأته إلا أمام القوى. وقد قيل أيضا:

على الرغم من أن أذان الفيل الملوثة بالعصير تتعرض لغارات من أسراب النحل وهى تحوم حوله، اشتياقا لسانل العصير فإنه لا يستشيط منها غضبا ولا يبطش بها مع عظيم قوته. فالأقوياء لا يغضبون إلا ممن يعدلونهم فى القوة.

فقال دمنكه: لقد عرفت سلفا أن مولاي سوف يقول هذا. والآن لكى اختصر فى سـرد حكاية طويلة أرى أن أحضره لك بشخصه للمثول أمام جلالـتكم. وعندما سمع بنجلكه هذا سر وقال: افعل هذا فوراً. وعاد دمنكه وقال لسمجيفكا بلهجة مهينة: هيا معى أيها الثور الـنعس! إن مولانا بنجلكه يقول لك لماذا نتظاهر بالقوة وتستمر فى الخوار بلا داع؟ فقال سمجيفكا: أيها الصديق، من هو بنجلكه هذا الذى يبعث لى بهذه الرسالة؟ فضحك دمنكه وقال فـى دهـشة: ماذا؟ هل من الممكن ألا تعرف مولانا بنجلكه؟ إذا كنت لا تعرف فهذه هى آثاره تدل عـليه! وأردف ساخرا: إن مولانا بنجلكه هو ذلك الأسد القوى ملك الوحوش الذى تخدمه كل الوحوش بالقرب من شجرة التين القائمة فى الدوائر وهو عالى الهمة. وعندما سمع سمجيفكا منه هـذا القول أيقن أنه هالك لا محالة وتملكه يأس عظيم وقال: إذا كان لابد من حـضورى فـامنحنى جواز الأمان. فوافق دمنكه وقال: حسن جدا. وعاد إلى الأسد وأبلغه بـالأمر وحـصل عـلى موافقته واقتاد سمجيفكا إلى حضرة بنجلكه كما اتفقا وحيا سمجيفكا الأسد فى احدـرام ووقـف أمامه فى تواضع. فوضع يده اليمنى المكتنزة المـستديرة الطويلة المـزينة بمخالب مثـل الصواعق^{٢١} بدلا من الحلى وقال له فى بشاشة: السلام عليك من أين أقبـلت وإلى أين فى هـذه الغابة التى لا يطرقها أحد. فأجاب سمجيفكا على هذا السؤال وأبلغه بكل ما حدث لـه وكـيف افتـرق عن التاجر فردمانكه. وعندما سمع بنجلكه منه هذا قال لـه: لا تـثـريـب عـليك أيـهـا الصديق. أقم حيث يحلو لك فى هذه الغابة التى تحميها ذراعى ومع ذلك فإنى أرى أن تـبقـى

٢١ أو الفؤوس الصغيرة

دائما بالقرب منى لأن هذه الغابة محفوفة بالأخطار وفيها كل أنواع الوحوش المفترسة. فـرد سمجيفكا قائلا: الأمر لكم يا صاحب الجلالة. وما أن قال هذا حتى انطلق بنجلكه، وتبعته جميع الوحوش إلى ضفة نهر جوما وشرب حتى ارتوى وعاد ثانية إلى مقره الملكى فى تلك الغابة نفسها وأخذ يطوف فى أنحائها لا يزعه أحد. وأصبح الاثنان بنجلكه هـ وسـدـ مجيفكا مـ ذاك يمضيان الوقت معا كل يوم تربطهما مودة متبادلة. ولما كان سمجيفكا قد أحاط بـ الكثير مـ ن العلوم فإنه لقن بنجلكه الحكمة فى وقت قصير على الرغم من أنه كان من قبل جهولا بـ سبب ملازمته للغابة. وقصارى القول كان بنجلكه وسمجيفكا يتداولان وحدهما فـى أمـ ورسـ رية وكانت الوحوش كلها تقف على بعد منهما. وندر الطعام الذى يتخلف من فرائس الأسد وكـ ان من الطبيعى أن يتضور كرطاكه ودمنكه جوعا وتشاورا معا وقال دمنكه: إننا هالكان لا محالة يا صديقى كرطاكه فماذا عسانا نصنع فى هذه الظروف. إنى أعد نفسى مـ سؤولا عـ ن هـ ذا الضنك لأنى أحضرت سمجيفكا لبنجلكه وقد قيل:

هالك ابن أوى من تناطح كبشين. وقضى أسادها بهوتى على. ومكرت القوادة بالنساج. ووقعت هذه الأحداث الثلاثة لأسباب خارجة عن الإرادة. فقال كرطاكه: وكيف كـ ان ذلـك؟ فقال:

الحكاية الثالثة

(أ) الناسك والمحتال

يحكى أنه كان فى أحد الأقاليم ناسك يدعى دفاسرمان، كسب ثروة طائلة على الأيام من بيع ما حصل عليه من ثياب جميلة فاخرة، خلعها عليه نفر من الأتقياء وكان لا يثق بأحد. واتفق أن لاحظ لص يدعى أسادها بهوتى هذه الثروة التى كان يحملها فى جيب صديريته فقال فى نفسه: كيف أستطيع أن أسلبه هذه الثروة؟ وقدم نفسه للناسك على أنه تلميذ به شوق إلى مجاورته، وما هى إلا أيام حتى استطاع أن يكسب ثقته. وانطلق الناسك يوما ومعه هذا الرجل أسادها بهوتى فى رحلة للحج إلى مكان مقدس وفى أثناء الرحلة وفى منطقة معينة بالغابة ترك الناسك أسادها بهوتى ومعه الثروة بالقرب من ضفة نهر وانطلق يسعى للحصول على بعض الماء.

(ب) الكباش وابن أوى

وهناك قرب حافة الماء شهد معركة كبيرة بين بعض الكباش وفيما هى تتقاتل بكل مـ ا فى طاقتها من قوة بلا هوادة ولا كلل تفجرت دماؤها أنهارا من بين قرونها المتفرعة وسـالت على الأرض. وشاهد أحرق من بنات أوى هذه الدماء وراودته رغبة عارمة فى أن يلتهمها.

وفى غمرة هذه اللهفة على اللحم ومن أجل الحصول على الدم هرع يجرى بين كبشين كانا قد افترقا وابتعدا عن بعضهما حيناً. وما كادا يعاودان الهجوم ويتصادمان ملتحمين حتى لقي مصرعه وعندئذ غلبت الدهشة على الناسك وقال: هلك ابن أوى من تناطح كبشين.

[نهاية الحكاية (ب)]

وبعد أن تطهر قفل راجعا إلى الموضع الذى ترك فيه أساها بهوتى فوجد أنه قد استولى على ما اكتتزه من المال وفر هاربا. ولم يستطع دفاسرمان أن يعثر عليه ولم يجد سوى عصا ثلاثية مطروحة وحزمة من الحطب وجرة ماء وغربال ومسواك^{٢٢} فقال فى نفسه: ترى أين ذهب ذلك الرجل الذى يدعى أساها بهوتى؟ لابد أنه سرقنى. واستولى عليه هـم عظيم وقال: وأنا قضى على أساها بهوتى...

[نهاية الحكاية (أ)]

(جـ) النساج الديوث والقوادة

ولم يبق لذلك الناسك سوى نصف جمجمة (تستخدم وعاء للشرب) وعقدة خالية فى ثوبه (كان بصر فيها المال) وانطلق يقتفى آثار المحتال، ودخل إحدى القرى والشمس توشك على الغروب. وعندما دخل فيها التقى بنساج يعيش فى طرف القرية وطلب منه أن يؤويه تلك الليلة. فقاده إلى جناح فى جانب من البيت وقال لزوجته: إنى ذاهب إلى المدينة لأجرع بعض الشراب مع أصدقائى وإلى أن أعود أرجو أن تحرسى البيت بعين ساهرة.

وانصرف بعد أن أصدر إليها هذه التعليمات. ولم تكن زوجته ممن يتمسكن بالعفة. وجاءت امرأة قوادة واستحثتها على الخروج، فأتخذت زينتها وتأهبت للقاء عشيقتها. وإذا بزوجها يعود إلى البيت فى تلك اللحظة وهو فى ثياب زرية، وكان يترنح فى مشيته من أثر السكر وساعت حالته فعجز عن الكلام بوضوح وكانت المرأة حاضرة البديهة فما أن رآته حتى تخلصت من زينتها ببراعة وارتدت ثوبها العادى وظهرت أمامه كما كانت من قبل وأخذت تغسل قدمى الضيف، وتعد فراشه وما إلى ذلك بسبيل. ودخل النساج البيت وبدأ يعنفها قائلا: يا عاهرة! لقد روى لى أصدقائى طرفا من فعالك الأثيمة. حسنا سوف أجعلك تدفعين الأثمان غاليا! وما أن انتهى من مقاله حتى انهال عليها ضربا بالعصا إلى أن اسود وجهها وازرق وشد وثاقها بحبل متين إلى عمود فى وسط البيت ثم ذهب لينام. وفى غمضون ذلك عادت

²² جميع هذه الأشياء يحملها المرید البرهمى وقد حملها المحتال ليخدع الناسك وبعد أن قضى غرضه طرحها.

القوادة، وكانت زوجة حلاق، وما أن استوثقت من أن النساج يغط في نوم عميق حتى قالت: إن ذلك الرجل الوسيم يتحرق شوقاً إليك. ولست أشك في أنه سيموت وجداً وصداً، باباً، ومن أجل ذلك سأحتال وأطلق سراحك وأشد وثاقى مكانك فهلاً بادرى بالذهاب إليه ومواسماته. - أنت تعرفين من أقصد. - ثم عودى بسرعة. وإن هى إلا لحظات حتى كانت زوجة الحلاق قد أطلقت زوجة النساج من وثاقها وأرسلتها إلى عشيقها. واستيقظ النساج بعد فترة وأفاق وأخذ يعنفها كما كان يفعل من قبل، وهلع قلب القوادة ولم تجرؤ على الكلام بصوتها لئلا يتعرف عليها من صوتها الغريب على أذنيه ولاذت بالصمت. ومهما يكن من أمر فإنه ظلم يردد العبارات نفسها فلم تحر جواباً فصرخ فى غضب: هل بلغ بك الاعتزاز بنفسك حداً يسمح لك بالآلا تردى على ما أقول؟ ونهض وقطع أنفها بمذبة حادة وقال: إليك هـ ذا لئلا زدادى حسناً، وبودى أن أعرف من يهتم بك بعد الآن؟ ولما فرغ من كلامه ذهب لينام مرة أخرى، وعادت زوجة النساج وسألت المرأة القوادة: ماذا وراءك! فبادرت القوادة، وقد نالت جزاء صدنيها، وأرته أنفها الدامى وقالت بسخرية مريرة: فى وسعك أن ترى ما ورائى! هيا أطلقى سراحى ودعنى أنصرف إلى حال سببلى. وما أن تحررت من وثاقها حتى انصرفت وأخذت معها أنفها. ومهما يكن من أمر فإن زوجة النساج أصلحت من شأنها وشدت وثاق نفسها بأربطة مماثلة. واستيقظ النساج وبدأ يعنفها بالطريقة نفسها كما حدث من قبل فانبترت تذبذب وتقول له بلهجة غاضبة: تبا لك أيها الشرير! كيف تجرؤ على أن تشوه صورتى وأنا زوجة طاهرة مخلصه؟ اسمعونى يا حكام أقاليم العالم²³ إنى لا أعرف حتى فى الخيال رجلاً عزيزاً، ولا أعرف سوى زوج شبابى، وإذا كانت هذه هى الحقيقة فليعد وجهى غير مشوه كما كان! ولم أفرغت من كلامها قالت لزوجها مرة أخرى: انظر إلى وجهى! لقد عاد كما كان من قبل! يـ أخبث الرجال طراً! وتبلىل فكر الرجل الغبى وحر فى تفسير كلماتها المخادعة وأوقد شعله واقترب من زوجته فرأى وجهها سليماً خالياً من أى تشويه. وجحظت عيناه وامتلأ قلبه فرحاً وقبلها وفك وثاقها وخر عند قدميها يطلب منها الصفع واحتضنها فى حماسة، وحملها إلى الفراش. وكان الناسك قد رأى كل ما حدث منذ بدايته ولبت فى موضعه وذهبت تلك المرأة القوادة وهى تحمل أنفها وأخذت تفكر وتقول لنفسها: ماذا عساي صانعة الآن؟ كيف أسد تطيع أن أخفى هذا العار العظيم؟ وعاد زوجها الحلاق إلى البيت عند الفجر وقال لزوجته: هـ اتى حافظة أمواسى، يا عزيزتى، إذ على أن أذهب إلى قصر الملك. فلازمت مكانها داخل البيت وقذفت له موسى واحدة فحسب، ولم تسلم للحلاق حافظة الأمواس كلها كما طلب، فامتلاً قلبه غيظاً وقذفها بالموسى أنفسهم فأطلقت صرخة عالية تتم عن الألم وحكت منخريها بيدها وألقت

²³ لو كابلالاس، نعت لكبار الآلهة الأربعة (أو الثمانية) حراس الجهات الأربعة الرئيسية (والفرعية) للبوصلة.

بأنفها والدم يقطر منه على الأرض وقالت: النجدة! النجدة! إن هذا الرجل الشرير قد جدد أنفى، على الرغم من أنه لم يجد فى عوجا!

وجاء رجال الشرطة وشاهدوا أنفها المجدوع فأنهالوا على الحلاق ضد-ربا بالعصى وأحكموا وثاقه واقتادوه وإياها إلى دار القضاء. وهناك سأله القضاة: لماذا عاملت زوجتك بهذه القسوة الشديدة؟ فلم يحر جوابا ولاذ بالصمت على الرغم من تكرار سؤاله، فأمر القضاة بقتله على سفود. وسيق إلى موضع التنفيذ، فانبصر الناسك الذى كان قد شهد كل ما حدث من أوله وهرع إلى المحكمة وقال للقضاة إن هذا الحلاق برىء لم يقترب ذنبا، لا تقتلوه على السفود واسمعوا ثلاثة أمور غريبة:

هلك ابن أوى من تناطح كبشين، وأنا قضى على أسادها بهوتى، ومكثت القوادة بالنساج، ووقعت هذه الأحداث الثلاثة لأسباب خارجة عن الإرادة.

وعندما عرف القضاة الوقائع الصحيحة للقضية أبقوا على حياة الحلاق.

إنهاء الحكاية (ج-) والحكاية الثالثة بأسرها

ولهذا أقول: هلك ابن أوى من تناطح كبشين، وأنا قضى على أسادها بهوتى، ومكثت القوادة بالنساج، وقد وقعت هذه الأحداث الثلاثة لأسباب خارجة عن الإرادة.

فقال كرتاك: إذن فأى عمل فى رأيك أنسب لهذه القضية؟ فقال دمنكه: فى وسع العاقل أيها الصديق حتى فى مثل هذه الحالة، أن ينجو بنفسه وقد قيل:

أعلى نصيحة هى التى تسدى لكسب قضية خاسرة أو الحصول على مزية فى المستقبل أو توقي شر عمل ضار. وإنى أرى أن بنجلكه الآن فى ورطة خطيرة ولا بد من التفريق بينه وبين سمجيفكا لأنه عندما يضل أحد الملوك ضلالا شديدا ويرتبط بالشر فلا بد لأتباعه من أن يبذلوا كل ما فى طاقاتهم من جهد لإنقاذه من هذا الموقف بانتهاج الوسائل التى نص عليها علم السياسة. فقال كرتاك: ولكن أى شر يتعرض له مولانا بنجلكه؟ لأن هذاك سبعة شرور يتعرض لها الملوك وهى: النساء والنرد والصيد والشراب والغلبة فى القول والقسوة فى إنزال العقاب والاعتداء على أملاك الغير. فقال دمنكه: يا صديقى إن ما ذكرت ليس إلا شرا واحدا يمكن أن يطلق عليه التورط وله ستة أشكال، فقال كرتاك: وكيف يكون هذا شرا واحدا؟ فقال دمنكه: لابد أنك تعرف أن هذا العالم فيه خمسة شرور أساسية هى: العجز والفتنة والتورط والغم وسوء التدبير²⁴ فقال كرتاك: حدثنى عن الفرق بينها فقال دمنكه:

²⁴ إن ما يلى صفحة، بحث أصولى فى العلم السياسى يقوم على المادة نفسها التى وردت فى الجزء الأول من الكتاب الثامن لكوطليا ارثاشسترا المنسوب إلى كاتيكيا.

الأول بينها وهو العجز يحدث عندما يصاب به واحد من المذكورين فيما بعد وهم: الحاكم أو الوزير أو الأمة أو الحصن أو الخزانة أو الجيش أو الحليف ولكن عندما تكون العناصر الداخلية أو العناصر الخارجية²⁵ فرادى أو مجتمعة، في حالة استيلاء من الملك فإن هذا الأمر يعرف باسم الفتنة. أما التورط فقد سبق أن شرحته في بيت الشعر النساء والنرد والصيد... إلخ. ومن هذه الرذائل نجد أن النساء والنرد والصيد والشرب هي مجموعة تدفع إلى التورط، مردها اللذة، في حين أن الغلظة في القول وبقية الرذائل مردها الغضب. وأن المرء الذي يتحرر من الرذائل التي مردها اللذة قد يتورط في الرذائل التي مردها الغضب. ومن اليسير إدراك الرذائل الناجمة عن اللذة بيد أني سوف أذكر لك الآن ثلاثة ضد-روب منها: المرء الغضب. إذا فطر المرء على كراهة الآخرين، وجبل على تسقط زلاتهم وإحصاء أخطائهم بلا روية يكون مصابا برذيلة الغلظة في القول. وتنفيذ أحكام الإعدام والسجن والتشويه بلا رحمة وبلا داع يعد قسوة في إنزال العقاب.

والتشبث بأملاك الغير يعد اعتداء على ملك الغير. وتلك هي رذيلة الذ-ورط م-ضاغفة سبع مرات. ومهما يكن من أمر فإن الغم رذيلة مضاعفة ثمانى مرات. وهو يحدث نتيجة للحادث العارض القدر أو النار أو الماء أو المرض أو الطاعون أو الك-وليرا أو المجاعة أو المطر الشيطاني، وهو المطر الغزير، أو نقص المطر. وهذا هو مفهوم رذيلة الغم. أما سوء التدبير فيحدث من التطبيق الخاطئ لضروب السياسة الستة، وهي السلم والحد-رب والزحف وسياسة الانتظار والتحالف مع سند قوى والمعاملة ذات الوجهين. ومن سوء التدبير شن حرب في وقت ملائم للسلام أو الالتجاء للسلم في وقت يحسن فيه شن الحرب أو انتهاز ضرب م-ن ضروب السياسة الستة في وقت غير ملائم. والرأى عندي أنه لا بد من التفريق بين بنجلك-ه وسمجيفكا بكل وسيلة ممكنة. ألا ترى أنه لا ضوء بلا مصباح؟ فق-ال كرطاك-ه؛ ولكنك لا سلطان لك فكيف تفرق بينهما فقال دمنكه: بالحيلة أيها الصديق فقد قيل: يستطيع المرء بالحيلة

²⁵ يرى هرقل أن العناصر (بركرتى) تشير إلى القائمة التي ذكرت فيما سبق (حاكم، وزير، إلخ...) ومهم-ا يمكن من أمر فإن هؤلاء ما عدا "الحليف" يمثلون العناصر الداخلية للدولة. وهناك إلى جانب ه-ذه العناصر الخارجية، وهي العناصر المقابلة للدولة المعادية والوسيط (ندياما) والمحايدة (أوداسينا) والحليف (مذ-را) و"حليف الحليف" ولكل واحد من هؤلاء اثنان وسبعون عنصرا أو بركرتى وهي مبينة في كوطليا ارثاسترا، الكتاب السادس، الفصل الثاني (الطبعة الأولى، ص ٢٥٩) وكذلك نجد أن الدولة المعادية م-ضمنة بين العناصر وهذا موضح بصورة تدعو للإعجاب في المصنف المسمى السفر السابع (الفصل السابع)، الجملة الافتتاحية (الطبعة الأولى، ص ٢٨١) حيث يطلق على العدو اسم "العنصر الثاني" (دفتيابركرتى). وأرى أنه لا فائدة من مصطلحي "عناصر داخلية" و"عناصر خارجية" في المصنف المذكور ويبدو بوضوح أن التفرقة يجب أن تكون حسب ما أوضحت.

أن يحقق ما يعجز عنه بالعنف، فهذه هي أنثى الغراب قضت على الحية بسلسلة من الـذهب.
فقال كرتاكه: وكيف كان ذلك؟ فقال:

الحكاية الرابعة

* الغربان والحية

كانت فى إحدى البلاد شجرة يسكن فيها زوج من الغربان كانا كلما أنجبا صغارا تسلت حية من نوع الكوبرا اتخذت جحرها فى جذع الشجرة لتلتهم صغار الغربان قبل أن ينبت ريشها وتتعلّم الطيران. وتملكهما اليأس فذهبا إلى صديق حميم من بنات أوى، كان يعيش عند سفح شجرة أخرى وقالاه: أيها الصديق، بم تشير علينا أن نفعل فى هذه الحالة؟ إن الحية والموت بالنسبة لنا سيان مادامت صغارنا تنتزعها منا تلك الحية وتلتهمها. فقال: لا تيأسا من رحمة الله، والرأى عندى أن هذه المخلوقة الشرهة لا يمكن القضاء عليها إلا بالحيلة: فبعد أن التهم طائر البلشون أسماكا كثيرة من أجود الأنواع وأوسطها وأسونها ازداد شرها ولقى حتفه على يد سرطان بحرى! فسأله الغربان وكيف كان ذلك؟ فقال:

الحكاية الخامسة

* طائر البلشون والسرطان البحرى

يحكى أنه كان فى أحد الأقاليم بحيرة مملوءة بكل أنواع السمك وكان هناك بلشون اتخذ مسكنه بالقرب منها. وتقدمت به السن وأصبح عاجزا عن صيد الأسماك. فذهب إلى حافة البحيرة وتظاهر بالحزن والهم ولبت ينتظر. واتفق أن رآه سرطان بحرى حوله سمك كثير فقال: عماه، لماذا لا تحاول اليوم أن تحصل على طعام كما كنت تفعل من قبل. فقال طائر البلشون: أنا كما تعلم يا بنى أقتات بالسمك وسوف أتحدث إليك بلا مواربة. لقد عرفت أنى لن أجد القوت بعد اليوم ولذا فأنا كما ترائى حزين مغموم. فقال: وكيف ذلك يا عماه؟ فقال طائر البلشون:

لقد مر اليوم بعض الصيادين بهذه البحيرة وقالوا: لا شك أن فى هذه البحيرة سمك كثيرا وغدا نلقى فيها بالشباك ونصيب صيدا وفيرا. فقال أحدهم: ولكن هناك بحيرات أخرى بالقرب من البلدة لم نتردد عليها بعد، والرأى عندى أن نبدأ فيها بالصيد ثم نكر راجعين إلى هذه البحيرة. ولهذا فأنتم أيها الصديق هاكون جميعا لا محالة وأنا بدورى لن أجد ما أنقوت به وسوف أموت جوعا، ولهذا فأنا حزين وقد امتنعت اليوم عن الطعام. وما أن سمع الـسرطان البحرى منه هذا القول حتى انطلق إلى السمك وأبلغهم بهذا النبا، وأقبلت الأسماك جميعا وقالت

لطائر البلشون: قد يلتمس المرء وسيلة للنجاة عند من تعارف الأحياء على أنه مبعث الخطر. ومن أجل ذلك جئنا إليك نلتمس منك أن تنقذنا. فقال طائر البلشون: أنا طائر ولا طاقة لى بمكابرة الرجال، ومهما يكن من أمر فإني أعددكم بأن أحملكم واحدا واحدا فى كل مرة من هذه البحيرة إلى بركة أخرى غير ضحلة. ولما كان الفزع قد دب فى قلوب الأسماك فقد تصايحوا فرادى: أيها الأب الصغير! أيها الأخ! أيها العم! خذنى أولا! وبدأ الوغد يحمل الأسماك واحدة واحدة وكان يلقيها على صخرة كبرى لا تبعد كثيرا ويلتهمها واحدة إثر الأخرى. ووجد فى ذلك متعة وأى متعة! وكان السرطان البحرى بدوره فى فزع شديد على حياته من الـ صيادين فأخذ يتوسل إلى طائر البلشون أن يحمله وقال له: عماه، هلا تكرمت بإنقاذى أنا أيضا من برائن الموت. وعندئذ أخذ ذلك المخلوق الشرير يفكر وقال لنفسه: "لقد سئمت لحم هذا السمك الذى لا يتغير طعمه وبودى أن أتناوق طعم لحم السرطان البحرى ولا شك أنه من أطيب أنواع اللحم وأن طعمه لذيذ". والتقط السرطان البحرى وحلق به فى الفضاء ولم يجد أول أن يتجه صوب بركة ماء واحدة، ووصل إلى الصخرة التى كان يقتل عليها الأسماك وهو مـ بـ أن يلقيه فوقها. ووقع بصر السرطان البحرى على كوم كبير من عظام السمك، التى التهم طـائر البلشون لحومها وقال لنفسه: تباً لهذا الشرير لقد مكر بالسمك والتهمه فمـ اذا عـ ساء أصدـنع الآن؟ على أية حال: إذا هوجم عاقل ورأى أنه لا مهرب له من الموت فخير له أن يلقى حتفه وهو يقاتل عدوه. وأمسك السرطان البحرى برقبة البلشون الأحمق وضدـ غط عليهـ ا بـكلبتـهـ القويتين ففصل رأسه عن جسده. وأخذ السرطان البحرى عنق البلشون التى تشبه ساق زهرة اللوتس وزحف فى بطنه شديد إلى البحيرة التى كان يعيش فيها مع السمك. وقالت له الأسماك عندما رأته: أيها الأخ أين عمنا؟ فقال: لقد لقي الشرير حتفه وها هى ذى رأسه. إنه خدعنا والتهم الكثير من رفاقكم بيد أننى اكتشفت أخيرا أمره ولقى مـ صرعه عـلى يدي.

[نهاية الحكاية ٥]

ولهذا أقول: بعد أن التهم طائر البلشون أسماكاً كثيرة من أجـ ود الأذـواع وأوسـطها وأسونها ازداد شرها ولقى حتفه على يد سرطان بحر.

فقال ذكر الغراب لابن أوى: وبم تشير علينا أن نفعل؟ فقال: حاول أن تظفر بسـلسـة ذهبية لأحد الأغنياء وليكن ملكاً أو وزيراً أو ما أشبه، وضعها فى جحر الحية وسوف يتكفل من يأتون لأخذها بقتل الحية. وانصرف ابن أوى بعد أن انتهى من حديثه وطار الغرابان بعد أن سمعا ما قال. وأخذا يحلقان فى الفضاء هنا وهناك سعياً وراء سلسلة ذهبية. وسرعان مـا

وصلت أنثى الغراب إلى إحدى البحيرات وتطلعت حولها فرأت حريم ملك من الملوك وهــن يسبحن ويلعبن في البحيرة بعد أن خلعن ثيابهن وسلاسلهن الذهبية وعقودهن اللؤلؤية وغيرها من الحلى وانقضت أنثى الغراب على إحدى السلاسل الذهبية واختطفتها وانطلقت بها تحلق في الفضاء متجة نحو بيتها في ببطء وحرصت على ألا تغيب عن الأنظار. وتبـهـه اليـهـا اوران والخصيان إلى سرقة السلسلة فتناولوا عصيهم وانطلقوا يتعقبونها أينما ذهبت. ووصلت أنثى الغراب إلى جحر الحية ووضعت فيه السلسلة الذهبية وأخذت ترقب ما يحدث وهي على مبعده وتسلق أتباع الملك الشجرة فوجدوا في جذعها الحية، وقد مدت قرنها، فانهالوا عليها ضدربا بالعصى حتى قتلوها وأخذوا السلسلة الذهبية وقفلوا راجعين إلى حيث كـانوا. وعـاش زوج الغراب منذ ذاك في هدوء وسلام.

[نهاية الحكاية ٤]

ولهذا أقول: يستطيع المرء بالحيلة أن يحقق ما يعجز عنه بالعنف، وليس في هذا العالم ما يعجز عنه صاحب الحيلة. وقد قيل:

العاقل قوى أما الأحمق فأنى له أن يكون قويا؟ ألا ترى كيف صدـرع الأرنب الأسدـد معتر؟ فقال كرتاكه: وكيف كان ذلك؟ فقال:

الحكاية السادسة

*الأسد والأرنب

يحكى أنه كان هناك أسد يدعى (معتر) يعيش في إحدى الغابات. وكان شديد البطش لا تسلم الوحوش أبدا من أذاه. وعندئذ أقبلت الوحوش جميعا إلى الأسد وقالت له فى تواضع: أى فائدة تجنيها يا مولانا من هذا القتل بالجملة لجميع الوحوش وإعدامهم بلا رحمة ولا هدف، إن هذا إثم كبير يطيح بآمال جلالتك فى نعيم العالم الآخر. وإذا لم تكف عن هذا العمل فإننا جميعا هالكون لا محالة، وسوف نستيقظ يوما فلا نجد ما نتقوت به ومن هذا ترى أن الخطـة التى نتنـجها سوف تؤدى إلى هلاكك والقضاء علينا. فهلا تفضلت وصنعت فىنا معروفا، لقد اتفقـدنا على أن نرسل لك كل يوم دابة من كل قبيلة على التوالى تكون طعاما لك. فقال الأسد: لا مانع لدى وأخذت الوحوش منذ ذاك ترسل إليه كل يوم دابة واحدة كان يلتهمها. واتفق يومـا أن أصابت القرعة أرنباً من إحدى القبائل فبعثت به جماعة الوحوش إلى الأسد ليكون له طعامـا. فقال الأرنب لنفسه: كيف أضغ نفسى بين برائن الموت؟ إن هذا معناه أن أودع اليوم الحيةـة. ترى ماذا أفعل؟ ولكن هل هناك شىء يعجز عنه صاحب الحيلة؟ أبدا وسوف أصدـرع الأسدـد

بالحيلة. وانطلق يسير في ببطء شديد فوصل بعد الموعد الذي اعتاد فيه الأسد أن يتدبّر غذاءه. وتميز الأسد غيظاً وعضه الجوع بنابه فقال للأرنب وهو يحتدم غضباً: ما جدوى الغضب؟ إن أسوأ ما يمكن أن أعاقبك به هو القتل وأنت اليوم هالك لا محالة ولكن هلاقت لى لماذا تأخرت على؟ فأنحنى الأرنب للأسد وقال له متلطفاً: مولاي إذا كنت قد تأخرت فقد حدث هذا لأسباب خارجة عن إرادتي. فبينما أنا في طريقى إليك اعترضنى أسد آخر وهم بأن يלתهمنى فبادرت به بقولي: إني ذاهب لمولانا الأسد معتز. فقد وقع على الاختيار لك. ومن لطفه طعماً.. فقال: ومن يكون هذا الأسد معتز؟ إنه لص. اذهب إليه وعد معه إلى سريعا. وسوف أنزله وكل من يتغلب على خصمه يكون من حقه أن يكون ملكا لجميع الوحوش ويستطيع أن ينعم وحده بأكلها. وهذا ما حدث يا مولاي وها أنذا أقصه عليك وما على إلا البلاغ. وما أن سمع الأسد معتز هذا القول حتى انتفض غضبا وقال: كيف يكون هناك أسد غيرى فى هذه الغابة التى أحكمها بذراعى اليمنى! هيا بنا وأرنى هذا المحتال! فقال الأرنب: ما دامت هذه رغبتك فهيا معى يا مولاي لأريه لك؟ وأخذ الأرنب إلى بئر عميقة زاخرة بالماء الصافى وأشار إليها قائلاً: انظر هناك! ها هو ذا! ورأى الأسد الأحمق خياله فى الماء فقال فى نفسه: إذن فهذا غريمى! وتميز حنقا وأطلق زئيره المعروف فارتد صدهاء على أثر ذلك من البئر مضاعفاً، وصك سمع الأسد فقال فى نفسه: لابد أنه قوى جداً! ووثب واندفع إليه فلقى حتفه فى البئر غرقاً. ورقص قلب الأرنب من الفرح وعاد إلى الوحوش يبلغها نبأه صرع الأسد. فهللت فرحاً وقدمت إليه شكرها الجزيل وعاش الأرنب فى تلك الغابة فى سلام.

[نهاية الحكاية ٦]

ولهذا أقول العاقل قوى، أما الأحمق فأنى له أن يكون قويا. ولما سمع كرتاكه هذا قال: إذا كان الأمر كذلك فاذهب وليحالفك الحظ. افعل ما تراه خيراً.

وانطلق دمنكه إلى بنجلكه وحياء وجلس فقال له: من أين^{٢٦} أقبلت؟ لم أرك منذ ذهابك طويلاً. فقال: لقد أتيت يا مولاي لأبلغك بأمر أعتقد أنه يعرضك لخطر داهم. وأظن أن هـذا البلاغ لن يسر بعض التابعين. والحق أن الجميع لا يبلغون عن مثل هذه الأمور إلا عند ما يرون أن نقاعهم عن التصدى للخطر (بعد فوات الأوان للاستعداد له بسبب إعراضهم عن الحديث) يؤدي إلى إحباط المشروعات المستقبلية لمولاهم. وقد قيل: عندما يقدم العقلاء، وإن لم يكونوا وزراء مشورتهم، فإنهم خير أرض تنبت فيها المحبة التى ترويهها المودة.

²⁶ أو لماذا.

فقال له بنجلکه متلطفا إذ خيل إليه أن لديه كلاما جديرا بأن يحظى منه بالانتباه ما إذا تريد أن تقول يا سيدى؟ فقال: هذا ما أريد أن أقوله بالضبط؛ إن هذا الثور سمجيفكا يفكر فى أن يلحق بك الأذى وقد كاشفنى بهذا فى السر فى لحظة وثق فيها بى فقال لى: لقد اكدت شفت مدى ما يملك هذا الأسد بنجلکه من قوة مضاعفة ثلاثاً^{٢٧} وعزمت على أن أقتله واستولى على الملك. وعندما سمع بنجلکه منه هذا القول وقع على نفسه وقع الصاعقة وخفق قلبه به بشدة وتملكته الحيرة ولم يستطع أن ينبس ببنت شفة وعندما رأى دمنكه تغير ملامح وجهه قال: من الواضح أن ما أصاب هيبتك من نقص إنما نشأ بسبب انفراد وزير واحد بالحكم معك وفى هذا قيل بحق: عندما يرقى وزير أمير إلى منصب رفيع جدا فإن ربة الحظ تحذول أن ترفعهم. وتثبت قدميها على الأرض بإحكام ولكنها تعجز عن تحمل ثقلهما معا، لأنها أُنْثى، فتترك أحدهما يسقط على الأرض، وعندما يخول ملك وزيرا واحدا السلطة المطلقة فى مملكته فإن الوزير يغتر بنفسه ويشمخ بأنفه، ويتطور بفعل البلاهة التى يولدها الكبير، إلى عزوف عن النهوض بتبعات منصبه، وتنشأ بسبب هذا العزوف رغبة فى الاستقلال بالحكم، تجد لها مكانا فى قلبه، وبدافع من هذه الرغبة فى الاستقلال بالحكم يتأمر على حياة الملك. عندما يتدول المرء طعاما ساما أو يعانى من سن مخلخلة أو يتعرض للأذى من وزير ظالم فلا نجاه له إلا بالخلاص منهم جميعاً^{٢٨}. وها هو الآن مطلق اليد، لا يكبح جماحه أحد ويتصرف فى كل الأمور كما يشاء ويهوى. فماذا يجب عمله فى هذه الحالة؟

والرأى عندى أنه حتى إذا كان هناك وزير مخلص لا يشك أحد فى إخلاصه، يدير أمور الدولة بطريقة تضر بمصالح الملك فمن الواجب على الملك ألا يتركه وشأنه لأنه لأذله إذا أطلق له العنان قضى عليه.

وعندما سمع الأسد منه هذا قال: ولكنه تابع أمين لم أر قط له مثيلا فكيف يتخذ منى هذا الموقف المعادى؟ فقال: مولاي سواء أكان تابعا مخلصا لك أم لم يكن، فإنه لا يمكن من ذلك استخلاص نتيجة يطمأن إليها وقد قيل:

ليس هناك من لا يتطلع إلى جلال الملك وأبهة السلطان ولا يقوم بخدمة أمير إلا من تكسر شوكته ويجرد من السلطة.

فقال الأسد: ومع ذلك أيها الصديق فإن قلبى لن يتحول ضده لأن: من ذا الذى لا يكون جسده عزيزا عليه ولو كان مشوها، مصابا بكثير من العيوب؟ إن المحبوب يحتفظ بمكانته فى

^{٢٧} مصطلح فى علم السياسة وتتكون القوة المضاعفة ثلاثا من بر بهوتفا "الرفعة" ومنترا "النصيحة الخالصة" وأقصاها "الإقدام".

^{٢٨} حرقيا اقتلاعهم من جذورهم.

القلب مهما اقترب من أثام. فقال دمنكه: هذا بالضبط سبب محنتك، لقد نبذت يا مولاي جميع -ع- الوحوش ولم تقرب إليك أحد سواه، وها هو ذا الآن يتحرق شوقا إلى أن يكون ملكا. وقد قيل أيضا: إذا بلغ ملك في تقدير شخص واحد، ولو كان ابنه أو قريبا له، فلا يلومن إلا نفسه إذا سرق منه قلب ربة الحظ.

وإذا ظننت أنه سيكون عوناً لك لما وهبه الله من بسطة في الجسم فهذا أي -ضا خط-! إذ قيل: ما فائدة فيل هائج يسيل من أذنيه سائل العصير ومن لا يقوم بعمل فيل؟ إن خير من يدب على الأرض، عاليها وأسفلها، هو من يؤدي عمله بإخلاص.

ومن ثم يا مولاي أرى أنك لا تنتج سبيل النجاح إذا تجاهل امرؤ رأى الأخيار ود -ثبت برأى الأشرار فإن مصيره الهلاك، ومثله مثل رجل مريض يلتهم كل شيء.

إن أسمى مراتب الحكمة أن يستشير المرء أخوانه، وإذا انفرد برأيه سقط ع -ن مكانة -ه ووجد نفسه في برائن أعدائه.

إن الرأى يؤتى ثمرته، حيث يعطى امرؤ ويأخذ آخر، ولو كان ذلك الرأى ثقيلًا ع -ى السمع بغضاضا للنفس - فهناك تحب ربة الحظ أن تقيم.

على المرء ألا يقرب القادمين الجدد على حساب أتباعه الذين خدموه ط -ويلا، فليست هناك آفة أشد وأخطر على الملك من هذه المعاملة.

فقال الأسد: عندما يجمع الناس على أن شخصا يتمتع بصفات نبيلة فإن من يحفظ عهده لا يستطيع أن يقول إن ذلك الشخص يفتقر إلى هذه الصفات.

ويضاف إلى ذلك أنى منحتة جواز الأمان وبعث فى طلبه وج -اعنى يطل -ب الوس -يلة فأطعمته فكيف يصل به الجحود إلى حد التآمر على حياته؟

فقال دمنكه: إن الخبيث شرير بفطرتة، ويتصرف بوحى منها على الرغم من الاهتمام به ورعايته ومثله مثل ذنب الكلب الذى يحاول أحدهم أن يقومه بوساطة الربت عليه ودهنه -ه بالزيت. وقد قيل أيضا: على المرء ألا يتردد فى مصارحة صديقه برأيه دون أن يدعو أح -د ليجنبه الأذى. فهذه هى شيمة الأخيار. ومن لا يفعل ذلك يكون من الأشرار. وقيل أيضا:

على المرء أن يحاول كبج جماح القريب أو الصديق، والملك أو الشخص الجليل، عندما يضل عن الطريق المستقيم. وإذا تعذر كبج جماح المخطئ فإنه سوف يفعل بعد ذلك ما يحل -و له.

وليس من شك في أنه خائن. وعلى النقيض من ذلك، على من يتمنون الخير لأصدقائهم الذين يهتمون بارتكاب إثم أن يكبحوا جماحهم ويجنبوهم التعرض للآثام. فهـذا هـو سـلوك الذين الأخيار، وأى شيء سواه هو سلوك الأشرار.

إن من يمنع أحدا من إثم لمخلص حقا وخير الأعمال ما خلا من الإثم وخير زوجة هي المطيعة لزوجها والعاقل حقا هو من يرضى عنه الأخيار وما لا يؤذى ثروة حقة والسعيد حقا هو من لا ينساق وراء رغباته، والصديق حقا من يمنح صدقاته بلا تحفظ، والرجل حقا هو من لا تعذبه حواسه.

أن يجرب المرء صديقا يفترش جمرات من نار أو يتوسد ثعبانا خير له من أن يصاحب رجلا ينصرف إلى الرذيلة.

والرأى عندي أن صحبتك لسمجيفكا سوف تؤدي إلى أن تفقد جلالتك أهـداف الرغبة البشرية^{٢٩} وإذا تجاهلت جلالتك ما قلت على الرغم من تكرار تحذيري لك وفعلت ما يتراءى لك، فلا لوم ولا تثريب على خادمك إذا حلت بك بعد هذا كارثة. وقد قيل:

إن الملك الذى ينساق لأهوانه لا يقيم وزنا للواجب أو يهتمه النفع، ومثل من ينساق وراء شهواته بلا وازع، مثل فيل هائج، ولهذا فإنه، عندما تنتفخ أوداجه بالكبرياء، يتردى فى هـوة الحزن وثم يلقي اللوم على خادمه، ويتجاهل أن ما أصابه كان بسبب سوء تصرفه. فقال الأسد: إذا كان الأمر كذلك، أفلا يجدر بنا أن ننصحه؟ فقال دمنكه: وكيف يخطـر لك أن نصحه مستطاع؟ وأى ضرب من السياسة هذا؟

إن العدو الذى تنصحه أما أن يبادر بالتآمر عليك أو يهاجمك بالقوة. ومن الحكمة أن تنصح عدوك بالأفعال لا بالأقوال.

فقال الأسد: ولكن كيف يستطيع أن يؤذيني وهو أكل للعشب وأنا أكل للحم؟ فقال دمنكه: صحيح أنه أكل للعشب وجلالتك أكل للحم وهو طعامك الطبيعى وأنت بفطرتك من الوحوش التى تتغذى به ومع ذلك فإنه إذا لم يؤذك بنفسه فسوف يكون سببا فى إلحاق الأذى بك على يدى غيره. فقال الأسد: ولكن كيف يستطيع أن يؤذيني بنفسه أو على يدى غيره؟ فقال: إنك تعرف أن جسدك مثخن بالجراح التى نشأت من الضربات التى تلقيتها من الفيلة الهانجة والثيران والجواميس والخنازير البرية والنمور والفهود بمخالبها وأنيابها فى المعارك التى نشبت بينك وبينها. وهو دائما يسير بالقرب منك، يبعثر روثه وبوله فى كل ناحية، وهذا يؤدى

^{٢٩} الدين أو الأخلاق، والغنى الدنيوى والحب.

إلى توالد الديدان، وبما أن جسدك فى متناول هذه الديدان فإنها سوف تتسلل إليه مـن خـلال القروح التى نتجت من الجروح. وبهذا سوف يقضى عليك حتما. وقد قيل:

يجب ألا تؤوى قط من لا تعرف خلته وإلا أصابك ما أصاب القملة الزاحفة البطيئة
عندما لقيت مصرعها بسبب خطأ البرغوث اللادغ^{٢٠}. فقال بنجلكه: وكيف كان ذلك؟ فقال:

الحكاية السابعة

* القملة والبرغوث

يحكى أنه كان لملك فراش لا نظير له فى قصره، تتوافر فيه كل وسائل الراحة، وكانت هناك قملة تدعى الزاحفة البطيئة تعيش فى جانب من الغطاء. وظلت هناك وقتا طويلا تـنـعم بامتصاص دم الملك وتمضى وقتها فى بهجة وطرب. واتفق يوما أن برغوثا يدعى الـلـادغ، دفعته الرياح إلى الفراش الجميل ووسانده المزدوجة. ووجد أن الفراش عريض مثل ضفة نهر الكنج الرملية وأنه ناعم له شذى عاطر، فسر سرورا عظيما وأخذ يطفر هنا وهناك وقد فتته مـلـمـس الغطاء. فرأته الزاحفة البطيئة وبادرته قائلة: من أين جئت لهذا القـصر؟ إنه لـيس بالمسكن الملائم لك. اذهب من هنا فورا. فقال: سيدتى، لقد تذوقت أنواعا كثيرة من دماء أناس من جميع الطوائف: براهمة وكصترية وفيشية وشودرية. بيد أن كل هذه الدماء كانت متخثرة غروية وطعمها غير مستساغ، لا تسمن ولا تغنى من جوع. ولست أشك فى أن دم النائم على هذا الفراش لذيق له طعم الرحيق. ولابد أنه خلو من أى مرض لأن نسبة الهـواء والـصفراء والبلغم^{٢١} (فى جسده) لا تتغير أبدا بفضل رعاية الأطباء له ومعالجته بالأعشاب وغيرها مـن الأدوية. ولا شك أن دمه غنى بغذاء يحتوى على عصير دسم رقيق... غذاء مطيب بـسكر النبات والعسل والرمان والتوابل الثلاثة (الفلفل الأسود والفلفل الطويل والزنجبيل المجفف) ولا شك أن جسده تفوح منه رائحة أطيب لحوم البهائم والأسماك والطيور. ولابد أن دمه هـلـكـمـا اعتقد - مثل أكسير الحياة. وبودى أن أتذوق هذا الدم المغذى العاطر. فقالت الزاحفة البطيئة: لا مجال للحديث فى هذا مع أمثالك، ولا أمل لك فى تذوق دمه فلدغة من فمك لجسده مثل كى النار وأنت تعض بوحشية. فهيا انصرف عن هذا الفراش.

وعندئذ خر عند قدميها وأخذ يتوسل إليها مكررا العبارات السابقة نفسها فأخذتها الشفقة عليه ووافقت على بقاءه قائلة: حسنا. ولكن يجب، ألا تلدغه فى وقت غير مناسب أو فى

^{٢٠} هكذا ترجم الاسم الشاعرى تنطية، الذى تضم النسخ أشكالا كثيرة له.

^{٢١} هذه ثلاثة أمزجة أساسية فى جسم الإنسان طبقا للطب الهندى. والإخلال وتغير النسبة الصحيحة لها فى الجسم يسبب المرض.

موضع حساس من جسده. فقال: وأى وقت هو الأنسب في نظرك؟ إنى لا أعرف هذا لأنى لم أمر بمثل هذه التجربة من قبل، فقالت: عندما يستغرق في نوم عميق بعد أن يهده التعب، وبعد أن يثمل من الشراب أو عندما ينعم بنوم هادئ مريح بعد الاستمتاع بمباهج الحب عليه. أن تشرع في العمل ولكن ببطء وفي رفق. إنه عندما يستغرق في النوم بعد أن يتخذ درجته ساسه بفعل الشراب فلن يكون من اليسير إيقاظه. فوافق البرغوث على أن يصدع بما أمرته به. ولكن البرغوث نقض هذا الاتفاق وتجاهل خصائص الوقت المناسب عندما أمسه الجوع، فعض الملك في ظهره في باكورة هذا المساء وهو نائم أو يكاد. فقفز الملك مهتاجا وكانم لسمعته جمرة نار وصرخ قائلا: انظروا هنا. لقد قرصنى شيء مـا فـا. ابحثوا عنه. وفزع البرغوث عندما سمع كلمات الملك وغادر الفراش واختبأ في أحد الشقوق. وأقبل الحراس إلى غرفة النوم ومعهم المشاعل وقلبوا أغطية الفراش تنفيذا لأوامر مولاهم وفنشوها تنقيشا دقيقا. أسفر عن العثور على القملة "الزاحفة البطيئة" مختبئة داخل الغطاء فقتلوها.

[نهاية الحكاية ٧]

ولهذا أقول: يجب ألا تؤوى من لا تعرف خلته وإلا أصابك ما أصاب القملة "الزاحفة البطيئة" عندما لقيت مصرعها بسبب خطأ البرغوث "اللدغ".

وعندما انتهى دمنكه من رواية الحكاية قال له بنجله: أيها الصديق، كيف أمه. تطيع أن أكون على يقين من أنه يقصد إيذائى، وما هو الأسلوب الذى سوف ينتهجه في النزال؟ فقال دمنكه: لقد اعتاد يا مولاي أن يمثل في حضرة جلالتك، وأسايره تنطق بالبراءة وخلق البال. فإذا اقترب منك اليوم وقرناه مشرعتان كمن يهمن بالنطاح، ورأيتة يتطلع هنا وهناك فى هــع كمن يتأهب للقتال، فاعلم يا مولاي أنه ينوى إلحاق الأذى بك. وما أن قال دمنكه هذا وأيقن أنه نجح في تحويل قلب الأسد ضد الثور حتى انطلق ليرى سمجيفكا. وسار إليه فى تـردد وتظاهر بالجزع. فسأله سمجيفكا متلطفًا: ما بالك أيها الصديق؟ أرجو أن تكون على ما يرام. فقال دمنكه: وكيف يكون التابع على ما يرام؟ ألا ترى أن حظوظهم رهن بمشيئة شخص آخر، وأذهانهم مشغولة دائما بما سوف يقع لهم؟ إن من يعتمدون على الملاوك لا يستطيعون أن يأمنوا حتى على حياتهم. وقد قيل: المعلمون والملوك متماثلون في الفطرة لا يدوم لهم ود ولا صداقة. والطاعة العمياء لهم - مهما طال بها العهد - تزول، كما تبـدد الـسحب الممطرة الغبار. وقيل أيضا:

أى رجل على ظهر البسيطة يحصل على ثروة ولا تنتفخ أوداجه كبرياء؟ ومن ذا الذى تنتهى محنه أبدا؟ من ذا الذى لم تسحق قلبه النساء فى هذا العالم؟ قل لى بربك م-ن ي-ضمن صداقة الملوك؟ ومن ذا الذى لا يشرب كأس الحمام؟ وأى شحاذ وصل إلى مكانة عالية؟ وأى رجل خرج سليما بعد أن سقط فى برائن الأشرار؟ ولهذا قيل بحق: على الرجل أن يفكر فى كل لحظة فى الإجابة على هذه الأسئلة: متى^{٢٢} اتخذ أصدقاء وأى نوع م-نهم أخذ-ار، وأي-ن أجدهم، وما مقدار مواردى ونفقاتى؟ من أنا وما مدى قوتى؟ وعندما سمع س-مجيفكا كلم-ات دمنكه، الذى أخفى غرضه الحقيقى فى قلبه قال: أيها الصديق، ماذا تريد-د أن تق-ول؟ فق-ال دمنكه: إن الواجب يحتم على عدم إهدار ثقة الملك بى، ولكنى لا أستطيع أن أنسى أنك جذ-ت إلى هنا وبقيت معنا لنقتك بى.

وأرى أن الواجب يقتضىنى أن أتحدث إليك بلا مواربة. لقد عرفت أن مولاد-ا بنجلك-ه ينوى إلحاق الأذى بك فقد قال اليوم: لسوف أقتل سمجيفكا وأوزع لحمه على أتد-اعى. ولم-ا سمع سمجيفكا منه هذا القول غاض قلبه بين ضلوعه، وتملكه يأس عميق، فقال ل-ه دمنك-ه: عليك أن تفكر بلا إمهال فيما يجب أن تفعله فى هذه الحالة. ولما كان سمجيفكا قد اختبر دمنكه قبل ذلك ووجد أنه صادق فى كلامه، غاض قلبه أسى وفزع فزعا عظيما وقال: لقد قيل:

النساء يحظى بهن اللنام والملك، وهذه قاعدة عامة، يختص بصداقته من لا يستحقونها، والمال يجرى وراء البخلاء. وإله المطر يسقط المطر على الجبال وفوق البحر وقال لنفسه: وا أسفاه! ماذا أصابنى؟ لقد قيل أيضا:

إن المرء ليفكر بإخلاص كيف يرضى الملك وينجح فى إرضائه، فأى غرابة فى ذلك؟ إن أحدا لم يسمع من قبل أن إنسانا خدم صنما فجازاه بالعداوة! ومن المؤكد أنه ليس هناك ما يمكن عمله فى هذا الموقف.

لأن من يغضب لسبب ما سوف يزول غضبه ولا شك بزوال السبب. ولكن إذا كان قلبه ينطوى على ضغينة لا أساس لها فكيف يتأتى لآخر أن يطفى ناراها؟ وفى هذا قيل بحق:

عندما تسعى بجعة حمقاء وراء زهرة لوتس بيضاء ليلا وتعض خيال كوكب م-نعكس على ماء البركة مرارا وتكرارا ثم تجد أنها كانت على خطأ فإنها تعتق-د أن زه-رة الل-وتس البيضاء كوكب ولا تعضها حتى أثناء النهار، والذين وقعوا فى برائن المحتالين (أصبحوا منهم على حذر يبحثون عن العيب حتى فى الشخص المستقيم). ومع ذلك: ليس من ش-ك فى أن الإساءات قد تحدث بلا سبب منطقى، وسورات الغضب قد تتور بدون مبرر. ولك-ن الرجل

^{٢٢} أى لآى عمل تصلح اللحظة الحالية ويكون المكان مناسباً.

الذى عرف بصواب الراى واختبر قلبه كما اختبرت فعاله جميعا دهرًا طويلا يجب ألا يهجر دون تدبر لحقائق الموقف. وقد قيل أيضا: إن الملك الذى لا يسمع من أطبائه وحكامه ووزرائه إلا ما يسره سرعان ما يخسر صحته وفضيلته وثروته. ثم قال: أى ذنب اقترفته فى حق مولانا بنجلکه؟ فقال دمنکه: أيها الصديق، إن الملوك، كما تعرف، لا يلتزمون سببا لإظهار عداوتهم وهم دائما يفتشون عن العيوب فى الآخرين. فقال سمجيفکا: هذا صحيح، وفى هذا قيل:

لا يسلم من السخط والانتقام حتى الرجال الأوفياء المعاونون، الذين يخلصون الأود ويقومون بأعمال نافعة ويعرفون كل شيء عن طبيعة الخدمة والمبرعون من كل خيانة، إذا ما أقدموا مرة على خطوة خاطئة، وقد يظفر هؤلاء بالنجاح أو لا يظفرون. ومن هنا فإن خدمة سيد الأرض (الملك) محفوفة دائما بالمخاطر ولو كان سيد المياه (المحيط). تلك هي شدة خدمة الملوك.

إن الكثير من العواطف الكريمة التى يبديها رجال لهم قلوب رقيقة تؤدى، مع ذلك، إلى البغضاء، فى حين أن الأذى الذى يلحقه آخرون بغيرهم غدرا لا يؤدى إلا إلى الحظوة. فمن الصعب إدراك ما يدور فى أذهان الملوك، ومن المعروف أن أمزجتهم متقلبة، ولهذا فإن أحوال الوزارة لغز يستعصى حله، وبحر عميق لا يستطيع حتى السحرة أن يسبروا غوره.

الفضائل لا تعد كذلك إلا عند من يقدرونها. وعندما تلمس إنسانا يفتقر إلى الفضيلة تصبح أخطاءه. فالأنهار يصبح ماؤها العذب غير مستساغ عندما تصل إلى المدى. إن الفضائل الصغيرة تصبح عظيمة مع الرجال الذين ارتفع شأنهم بسبب ما عرفوا به من فضيلة، مثلها فى ذلك مثل أشعة القمر عندما تلمس قمة الجبل الأبيض. ومذات الفضائل الإنسانية تضع بين رجال يفتقرون إلى الفضيلة، مثلها فى ذلك مثل أشعة القمر التى تسقط على قمة الجبل الأسود. ومائة فضل يضيع بين اللئام ومائة حكمة تضيع بين الحمقى، ومائة نصيحة خالصة تضيع عند امرئ لا يتقبل النصيحة، ومائة قول ماثور يضيع بين الأغبياء.

وهبة تقدم لمن لا يستحقها تضيع، والخير يضيع عند رجل لا يطوى قلبه على الخير، والفضل يضيع عند الجحود، والشفقة تضيع عند من لا يقدر الفضيلة.

مثل الخدمة لدى رجل غبى مثل الصياح فى العراء، أو تدليك جسد ميت، أو زراعة نبات النيلوفر فى أرض قاحلة، أو الهمس فى أذن أصم أو تقويم ذيل كلب، أو هطول مطر على أرض ملحة أو تزيين وجه كفيف.

فى أشجار الصندل تعيش الأفاعي، وفى المياه تنمو أزهار النيلوفر وتعيش التماسيح، والأوغاد، كما نعلم، بمثابة القضاء الداهم للأخلاق الطيبة، فقل لى بربك أين يجدد المرء السعادة، وأنى له بمتع لا تشوبها شائبة تنغص عليه حياته وتقض مضجعه؟

وأزهار الكيناكى تحيط بها الاشواك، وأزهار النيلوفر تنمو فى الطين، والقنادون يرعون الفاجرات، وأين الجوهرة التى لا عيب فيها؟

فقال دمنكه: صحيح أن مولانا بنجلكه كانت كلماته فى بداية الأمر تقطر حلاوة ولكن قلبه فى النهاية أصبح لا ينطوى إلا على بغضاء كالسم الزعاف.

فقال سمجيفكا: هذا صحيح أيها الصديق، وقد خبرت هذا منه لأنه:

يرفع لك يده من بعيد، وتبرق عيناه، ويعرض عليك مشاركته فى مقعده، ويدرك بالأحضان الحارة، ولديه جواب حاضر لكل سؤال ولكنه يخفى بين جوانحه سما ناعما، وكل ما فيه حلو، وهو بارع للغاية فى الخداع، فأى أسلوب تخيلى مريع يلجأ إليه المحتالون!

كانت فى البداية تتزين بحلى لامعة من الأدب والكلمات الرقيقة والبشاشة، وفى منتصف الطريق كانت تقابل أيضا بالكثير من الإجلال بسبب كلماتها الجميلة التى تشبه أزهارا لا تحمل ثمارا، بيد أنها فى النهاية تبدو كريهة تفوح منها رائحة الحقد والفظاظة والخزى. وعلى المرء أن يبتعد عن صحبة الأخساء فهى لا تحقق أى هدف نبيل.

وا أسفاه! أى أساس مشترك يجمع بينى وأنا أكل للعشب وبين أسد يأكل اللحم؟ لقد قيل: عندما ترسل الشمس أشعتها الرائعة على جبل الغروب تدخل النحلة زهرة اللوتس، وهى تتحرق شوقا لتتهلل الرحيق من أوراقها، ولا تقيم وزنا للخروج من سجنها الذى يغلق عليها عند حلول الشفق. والرجل الطماع لا يفكر فى الخطر، فى غمرة تعطشه للمتعة. والنحل الغادر يكف عن ارتشاف العسل من ورد الماء ويهجر زهرة اللوتس ولما نزل برعما، وينبذ الياسمين ذا الشذى العاطر والسحر الأصيل لا لشيء إلا ليسعى وراء العصير الذى يسيل من أذن الفيلة³³. والرجال يديرون ظهورهم لما هو ملك خالص لهم ويسعون بجنون وراء الحدس السعيد برمى النرد. وأسراب النحل تسعى حثيثا وراء السائل المنحدر على حواف وأصداد الفيلة الهائجة، وتتحرق شوقا إلى تذوق العصير الحلو الطازج، ولكن عندما تسقط كلها على الأرض وتسحقها لفحات الريح الشديدة المندفعة من حركة أذن الفيلة التى تشبه المراوح فإنها وقتذاك تتحسر على العهد الذى كانت تلهو فيه وتلعب فى كنوس أزهار اللوتس.

³³ كلمة فيها لعب بالألفاظ وردت فى هذه الموشحة والكلمة السنسكريتية معناها "أذن الفيل" وسعيد فى رمى الزهر.

ولكن هذا ضعف ينتاب من يتمتعون بصفات رفيعة وقد قيل:

إن كثرة الثمار تحطم فروع الشجرة، وغزارة ريش الطاووس تجعله بطيء الحركة،
والجواد الأصيل يستخدم كالثور في جر الأعمال، والصفات الرفيعة في رجل، كما ترى، قد
تحتسب عليه لا له.

وكثيراً ما يشيح الملوك بوجوههم معرضين عن رجل يتمتع بصفات طيبة، والذساء
يؤثرن عادة بعطفهن الأشرار والحمقى من الرجال بسبب الطمع وحده، ومن النشاء الزائف أن
يقال إن علو مكانة الرجال تتوقف على صفاتهم النبيلة. والقاعدة العامة في هذا العالم أن الناس
لا تهتم بما يتحلى به الإنسان من سجايا فطر عليها. إن القدر يلهو بالناس كما يلهو الطفل
بالدمى، وهو يتقاذفهم هنا وهناك كما يشاء ويهوى... تستوى في ذلك الأسود الحبيسة في
أقفاصها ووجوهها الشقية نحيلة من وطأة الإذلال، والفيلة التي مزقت جوانب رعوسها أنياب
منافسيها، والثعابين المسحورة الساكنة، والعقلاء الذين تردوا في وهدة البؤس، والشجعان الذين
قضى عليهم سوء الطالع. وما دمت الآن أعد من زمرة المخلوقات الدنيا فإن حياتي مضیعة لا
محالة. وقد قيل:

إذا توسلت مخلوقات ضعيفة بالحيلة، وعمدت إلى المكر والخديعة فقد تتجح في الحداق
الأذى بغيرها أو تتجو هي من الأذى كما فعل الغراب وصديقه بالجمل. فقال دمنكه: وكيف
كان ذلك؟ فقال سمجيفكا:

الحكاية الثامنة

* حاشية الأسد والجمل

يحكى أن أسدا يدعى "معتز" كان يعيش في إحدى الأجام. وكان له ثلاثة أصدقاء، فهـد
وغراب وابن أوى. وبينما كانوا يضربون في الأجمة التقوا بجمل تخلف عن قافلة. وعذما
راى الأسد هذا المخلوق الذى لم ير له مثيلاً من قبل، أطلق ضحكة وقال لهـم: سدـلوا هـذا
المخلوق من يكون ومن أين أتى، فهو لا يشبه أى شىء رأيته في هـذه الأجمة مـن قبل!
وتصدى الغراب لهذه المهمة، وعاد بعد أن عرف الحقيقة وقال: هذا جمل يدعى "الخرافى"
وأعطوه موثيق الأمان وأحضروه للأسد. وروى لهم الجمل ما حدث له وكيف تخلف عن
القافلة. وأسبغ عليه الأسد الحماية ومنحه جواز الأمان. واتفق أن أصبح جسد الأسد مثخذاً
بالجراح بسبب أنياب فيل اشتبك معه في معركة ضارية واضطر الأسد إلى ملازمة مغارته.
وانقضت خمسة أو ستة أو سبعة أيام، دون أن يغادر الأسد عرينه، فتعرض أصحاب الأسد
الثلاثة للجوع الشديد بسبب نقص الطعام. ولما اشتدت بهم المحنة قال لهم الأسد: إنى، كمـا

تروون، عاجز عن الحصول لكم على طعام، كما كنت أفعل من قبل، بسبب ما أعانيه من جراح فما الذى يحول بينكم وبين بذل جهد من جانبكم للحصول على الطعام! فأجابوا: أى فائدة تعود علينا من الطعام ونحن نرى جلالتك فى هذه الحالة؟ فقال الأسد: أيها السادة إن مسلككم هــ ذا خليق بالأصحاب الأوفياء: إخلاصكم لى يضرب به المثل. وحديثكم هــ ذا يذـبض بالـصدق. ولكنكم غير عاجزين عن العمل فى حين أنى مريض. وما دمت فى هذه الحالة فعـلـيكم أن تأتونى بشىء أتبلغ به. ولانوا بالصمت فقال لهم: لماذا أراكم مرتبكين إلى هــ ذا الحـد؟ هــ ذا اسعوا وراء مخلوق فأنا حتى فى حالتى هذه سأمدمكم وأمد نفسى بالقوت الـضرورى للحمـلـاظ على حياتنا. وعندما خاطبهم بهذا القول نهضوا وانطلقوا إلى وسط الأجمة وأخذوا يـضربون فيها على غير هدى فلم يجدوا حيوانا واحدا يقتنصونه، فأبعدوا الجمل "الخرافى" من زمـرتهم وبدأوا يحيكون خيوط مؤامرة خبيثة وقال الغراب: إننا هالكون لا محالة على الرغم مـن أن وسائل خلاصنا بين يدى مولانا. فقال الأخران: وكيف ذلك؟ فقال: ما علينا إلا أن نصرع هذا الجمل "الخرافى" وننقذ بلحمه حياتنا. ولم لا؟ فقالا: ولكنه أقبل إلينا لاجنا، ووثق بنا، وقبلناـه زميلا لنا. فقال: إن الشركة بين أكلة العشب وأكلة اللحم غير متكافئة. ثم قال: يضاف إلى ذلك أن مولانا منحه جواز الأمان ومن ثم فإن قتله لا يليق وعمل يستحيل أن نقدم عليهـه. بيد أن الغراب قال لصاحبيه: امكثا هنا وانتظرا إلى أن أهين سبل النجاح لهذا الأمر. وما أن قال هذا حتى انطلق ليرى الأسد فقال له: هل وجدتم صيدا؟ فقال الغراب: إنما يجد الصيد مـن عـذـده البصر والقوة، نحن جميعا عميان عاجزون بسبب افتقارنا إلى الطعام. ومهما يكن من أمر فإن لدى اقتراحا لا أستطيع أن أحجم عن تقديمه لمولائى. إن الطعام متوفر بين يديك ومـع ذلك فانت لا تمد إليه يدا وتقضى على نفسك وهذا خطأ. فقال الأسد وكيف السبيل إلى ذلك؟ فقال الغراب: أمامك هذا الجمل "الخرافى". فقال الأسد غاضبا: تبأ لك! لو قتلته لكان هــ ذا عمـلا وحشيا. لقد أسبغت عليه الحماية وأعطيته العهد بأنه سيكون بيننا أمانا فكيف أقتلـهـه، وعـلاوة على ذلك فإن:

هبة الأمان أعظم الهبات جميعا فى هذا العالم وهى أعظم من هبة بقة أو أرض أو طعام. فقال الغراب: أه! ما أعظم فهم مولائى لمبادئ الحق! بيد أن هناك أمرا مهما آخر قالـه حكيم عظيم وهو أن من الممكن أن تلجأ إلى عمل الشر إذا كان فيه مصلحة للأخيار وقبول كذلك:

يمكن التضحية بفرد لصالح أسرة، وبأسرة لصالح قرية وبقريه لصالح أمة، ويمكن التضحية بالعالم بأسره لصالح النفس.

وأقول علاوة على ذلك: لا داعي لأن يقتله مولانا بنفسه. فقد أدركت كيف يمكن قتلـهـ بالحيلة. فسأل الأسد: بأى طريقة؟ فقال الغراب: عندما يرانا ويرى مولانا فىـهـ هذه الحالة السينة يعرض نفسه ليكون طعاما لنا حتى ينال النعيم وتفيد منه المخلوقات الأخرى، وليس فى هذا إثم. وعندما سمع الأسد هذا الكلام من الغراب حار عقله ولم ينبس ببذـتـ شـفة. وعاد الغراب إلى صاحبيه وتكلم مع كل منهما على انفراد بالفاظ معسولة وقال: ألا ترى أن مولانا فى حالة خطيرة وأن حياته معلقة بخيط^{٢٤} أوهى من نسيج العنكبوت. فلو أنه قـضى فـمـن ذا الذى يحمينا فى هذا العالم؟ وبما أن الجوع^{٢٥} قد عضه بنابه وجعله يشرف على الهلاك فهىـا نذهب إليه طائعين ونعرض عليه أنفسنا حتى نوفى بالدين الذى له فى أعناقنا وننقذ حياة مولانا الذى طالما غمرنا بإحسانه. واتفقوا على ذلك وذهبوا لزيارة الأسد وبينهم الجمـل "الخرافـى" وقال الغراب: مولاي، إننا لم نجد طعاما ولا شك أن سيدى قد أضناه طول الصيام، ولذا جئت إليك أتوسل أن تأكل لحمى. فقال الأسد على الفور: إن جسدك يا سيدى جد ضئيل. ولو أكلت لحملك فلن أشبع. فانسحب وتقدم ابن أوى قائلا: مولاي، إنى أكبر منه جسدا، وقد جئت أتوسل إليك أن تتخذ حياتك بأكل لحمى. فأجابه الأسد بما أجاب به الغراب وقال له: جسدك يا سـيدى جد ضئيل ولو أكلت لحملك فلن أشبع. وعندما سمع الجمـل "الخرافى" هذا القول من الأسد قـال فى نفسه: إنى لن أفقد حياتى على الإطلاق لو عرضت عليه نفسى. وسـوف أردد مـا قالـه صاحباى. ونهض واقترب من الأسد وقال: مولاي إنى أكبر منهما حجما وها أنذا أضرع إليك أن تتخذ حياتك بأكل لحمى. وقبل أن ينتهى الجمـل من كلامه انقض عليه الفهـد وابـن أوى ومزقا جنبه فهلك فى الحال والتهم الجميع جسده.

[نهاية الحكاية ٨]

ولهذا أقول: إذا توسلت مخلوقات ضعيفة بالحيلة وعمدت إلى المكر والخديعة فقد تنجح فى إلحاق الأذى بغيرها أو تنجو هى من الأذى كما فعل الغراب وصديقه بالجمـل. وعندما انتهى سمجيفكا من سرد هذه الحكاية عاد يقول لدمنكه: أيها الصديق، يبدو أن هذا الملك تخدمه مخلوقات خسيسة تضمر الشر لأولئك الذين يعتمدون عليه وقد قيل: إن نـسرا يخدمـه بجـع يتنازع العيش فى الماء أحسن حالا من بجعة تقوم على خدمتها طيور الجيفة المتوحشة التى تأكل اللحم. ولا شك أن الصديق الخسيس يقضى حتى على الرجل ذى الخلق القويم، فى حين أن الرجل الذى تعوزه فضيلة واحدة من الفضائل يتحول إلى رجل فاضل إذا كـان أتباعـه لا يهبطون إلى مستوى الخسة.

^{٢٤} حرفيا "روحه" وصلت إلى طرف أنفه.

^{٢٥} لعل العبارة "الجوع والمرض" بدلا من الجوع.

وهذا الملك قد انقلب ضدى بتحريض واحد أو آخر من الحاشية. وقد قيل:

إن جوانب كاملة لتزول من الجبل إذا قوضها سيل من الماء يتدفق، برفق فكيف لا تتحول قلوب رقيقة بفعل رجال من ذوى الحيلة يسعون بين أصحابها بالنميمة. ترى ماذا أفعل فى هذه الحالة؟ الراى عندى أنه ليس هناك شىء أفضل من القتال. وأرى ألا أنتظر وأمسك بزمام المبادرة. فقد قيل:

عندما يكون أب (أو شخص كبير) فظا متعجرفا، لا يفرق بين ما ينبغى وما لا ينبغى عمله ويضل فى مآهات خبيثة فلا مفر من إنزال العقاب به. إن العوالم التى يظفر بها - من ينشدون الخلود بتقديم قرابين لا حصر لها، وبالتعفف والجد وكثرة الصدقات، يستطيع أن يظفر بها فى لحظة واحدة الشجعان من ذوى الإقدام الذين يستشهدون فى قتال شريف. لابد - من الدفاع عن الروح والشرف والثروة بالقتال، فالموت فى ساحة القتال أعظم مما يطمح إليه - الرجال من مجد، وكل من يعيش تحت رحمة عدوه يكتب عليه الموت.

إنه إما أن يموت ويحصل على النعيم المقيم وإما أن يقضى على أعدائه ويظفر بنعيم الأرض. وليس من شك فى أنه من الصعب على الرجال ذوى الإقدام أن يجمعوا بين هذين النعيمين. فقال دمنكه: أيها الصديق، ليس هذا هو السبيل الصحيح لأن:

من لا يقيم وزنا لقوة عدوه ويدخل معه فى معركة لابد أن تحل به كارثة كما حدث للبحر من طائر البحر (السباق) فقال سمجيفكا: وكيف كان ذلك؟ فقال دمنكه:

الحكاية التاسعة

* طائر البحر والبحر

يحكى أنه كان هناك زوج من طيور البحر يعيشان فى موضع من الـ شاطئ، وعذما أوشكت أنثى الطائر على وضع بيضها قالت لزوجها: سيدى: هلا وجدت مكانا مناسباً لأضع فيه ببيضى؟ فقال: لماذا؟ إن هذا الموضع الذى نعيش فيه رائع جداً، فضعى ببيضك هذا ولا تخشى شيئا. فقالت: لا تحدثنى عن هذا المكان... إنه محفوف بالخطر، وربما يجرفه البحر - بأمواجه ويحمل معه صغارى. فقال: يا عزيزتى، إن البحر لا يجرو على الاشتباك معى فى هذه المعركة. فردت عليه ضاحكة: حقاً! إن هناك فارقا كبيرا بين قوتك وقوة البحر! فكيف لا تدرك مدى قوته وضعفك؟ وقد قيل:

من الصعب أن تعرف قدر نفسك، وأن تشيد بقدرة أحد أو تتدد بعجزه بالقياس إلى أمر معين. ومن يتمتع بهذا النوع من التمييز لا يصيبه هم ولو تعرض لموقف عـ صيب. وقيل أيضا:

إذا لم يبال امرؤ بنصيحة أصدقائه وأصحابه ذوى النوايا الطيبة أصداؤه مـ.أ. أصداؤه
السلحفاة الحمقاء عندما سقطت بعد أن تركت العصا. فقال ذكر الطائر: وكيف كـ.أ. إن ذلك؟
فقالت:

الحكاية العاشرة

* الأوز والسلحفاة

يحكى أن سلحفاة تدعى "الصدفية" كانت تعيش فى إحدى البحيرات. وكان لها صديقان
من الأوز إسماهما "الرشيقة" و"القبيحة". وتعرضت البحيرة بعد اثنى عشر عاما لجفاف. فقالت
الأوزتان: لقد فقدت هذه البحيرة ماءها وحان الوقت لأن نذهب إلى بحيرة أخرى. فلنودع أولا
صديقتنا العزيزة السلحفاة "الصدفية" التى عرفناها منذ أمد طويل. وقاما بتوديع السلحفاة فقالت
لهما: لماذا تودعاني؟ إذا كنتما تحباني فعليكما بإنقاذى أنا أيضا مـ.ن بـ. رائن المـ.وت. فمـ.ن
الواضح أنكما لن تعانيا مثلى من ندرة الطعام فى هذه البحيرة الضحلة، أما أنا فالبقاء هـ.أ. لا
يعنى بالنسبة لى سوى الموت الزؤام. فأيهما أخطر فى رأيكما: فقد الطعمـ.ام أم فقد الحـ.ياة؟
فأجابت الأوزتان: لقد قلت الحق. ومهما يكن من أمر فأنت تعرفين مـ.أ. تقتـ.ضيه المناسبةـ.بة.
لسوف نأخذك معنا بلا توان وعليك ألا تفقدى رشذك وتتفوهى بشيء ونحن نحلـ.ق بـ.ك فـ.ى
الفضاء. فقال السلحفاة: حسنا جدا، لن أفتح فمى بكلمة. وأحضرت الأوزتان عـ.صا وقالتـ.ا:
والآن أمسكى هذه العصا بأسنانك بشدة ونحن سوف نمسك بها من طرفيها ونحملك بعيدا فـ.ى
الهواء إلى بحيرة كبيرة. وتم ما اتفقوا عليه. بيد أن الناس عندما شاهدوا السلحفاة محمولة فوق
إحدى المدن بالقرب من تلك البحيرة صاحوا قائلين: ترى ما هو ذلك الشيء الذى يشبه عجلة
العربة ويحمله فى الهواء طائران؟ وعندما سمعت السلحفاة هذا فتحت فمهاـ.أ. لتلقـ.ى حنقهاـ.أ.
وتركت العصا لتقول: علام هذه الضجة كلها؟ ولم تكذب فتفتح فمها بهذا الكلام حتى وجدت نفسها
تسقط. وهوت إلى الأرض فانقض عليها الناس وكل منهم يتحرق شوقا إلـ.ى تـ.ذوق لحمهاـ.أ.
ومزقوها إربا بالمدى الحادة فى اللحظة التى وقعت فيها على الأرض؟

[نهاية الحكاية ١٠]

ولهذا أقول: إذا لم يبال امرؤ بنصيحة أصدقائه وأصحابه ذوى النوايا الطيبة أصابه مـ.أ.
أصاب السلحفاة الحمقاء عندما سقطت بعد أن تركت العصا. وقيل أيضا:
نجت "بصيرة" و"بديهة" وفازتا بالحياة فى هدوء وسلام وهلك "توكـ.ل". فقـ.ال ذكـ.ر
الطائر: وكيف كان ذلك؟ فقالت:

الحكاية الحادية عشرة

* بصيرة وبديهة وتوكل

يحكى أنه كانت هناك ثلاث سمكات كبيرات يعشن فى بركة واسعة وكانت أسد-ماؤهن: بصيرة وبديهة وتوكل. واتفق يوما أن سمعت بصيرة وهى تسبح فى الماء بع-ض ال-صيادين الذين تصادف مرورهم بالقرب من البركة يقولون: هذه البركة مملوءة بالسماك وغدا نلقى فيها الشباك ونصطاد ما فيها من الأسماك. وعندما سمعت بصيرة هذا قالت فى نفسها: لا شك أنهم عائدون غدا ولذلك على أن آخذ بديهة وتوكل ونذهب إلى بركة أخرى يك-ون ماؤهم-ا غي-ر حبيس. ونادت على صديقتها تـوا وطلبت منهما أن يذهبا معها فقالت بديهة: لو جاء الصيادون فسوف أنجو بنفسى بوسيلة أو بأخرى تبعاً للظروف. ولم تبعاً توكل بهذه الكلمات، فقد كانت ميّتها قد حانت، ولم تتخذ أى خطوة للذهاب. وعندما رأت بصيرة أن كلتيهما مصممة ع-لى البقاء دخلت مجرى النهر (منفذ البحيرة) وانتقلت إلى بحيرة أخرى. وفى اليوم الت-الى ج-اء الصيادون بعد رحيلها وسدوا بمعاونة أتباعهم النهر من الداخل وألقوا بشبكة كبيرة واصطادوا الأسماك جميعا. فتظاهرت بديهة بالموت وبذلت قصارى جهدها لكى تبدو كذلك وه-ى فى الشبكة. فقال الصيادون: إن هذه السمكة الكبيرة ميتة. وأخذوها من الشبكة ووضعوها بالقرب من الماء فقفزت تـوا وهربت بسرعة فائقة إلى بحيرة أخرى. أما توكل فلم تعرف ماذا ت-صنع وأخذت تتحرك بلا هدف فى هذا الطريق وذاك إلى أن وقعت فى الشبكة ولقيت حتفها ض-ربا بالهروات.

[نهاية الحكاية ١١]

ولهذا أقول: نجت بصيرة وبديهة وفازتا بالحياة فى هدوء وسلام وهلكت توكل. ل-فق-ال طير البحر: هل تعتقدين يا عزيزتى إنى مثل توكل؟ لا تخافى. من ذا يستطيع أن يؤذيك م-ا دمت أحميك بذراعى اليمنى؟ ووضعت أنثى الطائر بيضها فى الموضع نفسه ولكن البحر- المحيط سمع خلسة زهو طائر البحر أمام أنثاه وأراد أن يعرف جلية الأمر. وحم-ل الب-يض وهو يقول فى نفسه: سوف أرى ما هو صانع. وعندما رأت أنثى الطائر أن العش قد خلا من البيض امتلأ قلبها غما وقالت لزوجها: انظر ألا ترى هذه الكارثة التى حلت بى لفرط شقائى؟ ها قد حدث ما سبق أن قلته لك بالحرف الواحد. ففقدنا صغارنا لأنذ-ا اخترن-ا مكان-ا غي-ر مناسب. فقال ذكر الطير: يا عزيزتى سوف ترين ما أصنع! ونادى جمعا من الطير وأبلغهم-م بالكارثة التى حلت بهما بسبب فقد صغارهما. فقالت إحدى الطيور: لا طاقة لنا بقتال البحر-

المحيط. والرأى عندى أن خير ما نفعله هو أن نشكوه كلنا إلى الجاروسا^{٢٦} وبهذا نثيره ضده، ولا شك أنه سوف يفرج كربنا. وما أن استقر رأى الطيور على هذا حدى انطلقت لدرى الجاروسا. ولكن الرب نارايته (فشنو) كان قد استدعاه للاشتراك فى معركة نشبت بين الآلهة والشياطين. وفى تلك اللحظة أبلغ الطائران الملك العظيم ما أصابهما به البحر المحيط من ثكل بأخذ صغارهما وقالوا: فى الوقت الذى تشع فيه بالضياء يا مولانا، إذا بالبحر يصيبنا بالضر نحن الذين لا نعتمد إلا على مناقير للحصول على القوت الضرورى ولا نجد إلا الكفاف فقد سرق صغارنا وحرمانا من أولادنا. فاستشاط الجاروسا غضبا عندما علم بما لحق رعاياه من بلاء، ولكن الإله نارايته (فشنو) علم بما يدور فى ذهنه بفضل قدرته على معرفة الماضى والحاضر والمستقبل. وذهب ليراه وعندما شاهد الجاروسا الإله قال له بقلب متقل بالهم: أيليق أن أتعرض للإذلال من المحيط اللعين وأنت ربى؟ وعندما سمع الإله حقيقة ما حدث ابتسم وقال للمحيط: أعد لطائر البحر بيضه وإلا فإنى سوف ألعك بشواظ من السنة اللهب وأجفف أمواجك بالوف لا تعد من السنة النيران تحت الماء^{٢٧} وأحولك إلى أرض جافة. وعندما سمع المحيط أمر الإله فزع وصدع للأمر وأعاد لتوه بيض طائر البحر.

[نهاية الحكاية ٩]

ولذا أقول: من لا يقيم وزنا لقوة عدوه ويدخل معه فى معركة لا بد أن تحل به كارثة. كما حدث للبحر من طائر البحر (السباق).

وعندما سمع سمجيفكا هذا من دمنكه قال له: قل لى أيها الصديق، ما هو الدليل على أنه سوف يشتبك معى فى قتال؟ فقال: لقد اعتاد فى الأوقات السالفة أن يجلس على صخرة مسطحة، ويتطلع إليك وأطرافه مسترخية، ينظر إليك بلا مبالاة. أما اليوم فسوف تراه يحملق فى اتجاهك وأنت لا تزال بعيدا عنه، وذيله مرتفع، وأقدامه الأربعة مشدودة متوترة، وهوا فاجر فاه، مرهف أذنيه، وعندئذ تستطيع أن تدرك أنه يضمرك لك الشر وتستطيع أنت أيضا أن تتأهب للقتال. وما أن قال دمنكه هذا حتى انطلق ليرى كرتاكه فقال له الأخير: ماذا فعلت؟ فقال دمنكه: لقد بذرت بينهما بذور العداوة وسوف ترى النتيجة قريبا. فما الذى يدهشك فى هذا؟ لقد قيل:

إن الشقاق الذى يدبر بإحكام قد يفرق بين ذوى القلوب الخالصة، كما يفرق مجرى ماء متدفق بين جبال من الصخر الصلب؟

^{٢٦} طائر أسطورى يمتطيه الإله فشنو، ويعد ملك الطيور، وهو فى الأصل الشمس فى صورة طائر.

^{٢٧} يعتقد الهنود بوجود نار تحت المحيط.

وعندما انتهى دمنكه من حديثه هذا انطلق مع كرتاكه إلى حيث كان بنجلك-ه وأقبل-ل سمجيفكا يسير في بطة، وقلبه مفعم بهم، تبدو عليه سمات القلق، ورأى أن الأسد كما وصفه دمنكه فأنسل إلى حضرتة وهو يردد بينه وبين نفسه: لقد قيل في هذا بحق. مثل عقل الملك-ك مثل بيت يختبئ فيه ثعبان أو غابة زاخرة بوحوش الصيد. وبركة ينمو فيها النيل-وفر ببريق-ه الساحر ولكنها موبوءة بالتماسيح، والرجال الأخساء الكذابون السفلة يسمون عقله ويعك-رون صفوه دائما. ومن الصعب على الأتباع الجبناء في هذا العالم أن ينفذوا إل-ى عقل-ه. واتخذ-ذ سمجيفكا أميته كما أشار عليه دمنكه وكذلك فعل بنجلكه فعندما رأى سمجيفكا في هذه الهيدة-ة صدق ما قاله دمنكه ووثب عليه في احتياج ومزق ظهر سمجيفكا بأطراف مخالفته التي ت-شبه الفؤوس ونطح سمجيفكا الأسد بطرفي قرنيه فمزق بطنه وابتعد ليتخلص منه. ونشبت معركة-ة رهيبة بين المخلوقين المهتاجين. وعندما رأى كرتاكه أن جسد الثور والأسد قد تلونا بل-ون أشجار بلاشه الأحمر القاني في موسم الإزهار أنحى باللوم على دمنكه وقال له: تبا لك أيه-ا الشرير لقد نشبت هذه المعركة بسبب حماقتك. إن الوزراء حقا هم الذين يستطيعون ببراعتهم السياسية أن يحسموا بالمفاوضة السلمية ما لا يقدر عليه غيرهم إلا بإجراءات عنيفة-ة-ستخدم فيها القوة الهائلة والعنف الشديد. والذين ينشدون مغنم صغيرة تافهة ويشيرون باستخدام القوة فإنهم بنصيححتهم المضللة التي تفتقر إلى الفطنة إنما يقامرون بمصير الملك. ألا تبا لك أيه-ا الأحمق ليس من شك في أن واجب من يعرف عمله حق المعرفة أن يج-رب الم-صالحة لأن السياسة التي تنتهج المصالحة وحدها لا تنتهي قط بكارثة.

إن ظلام العداوة لا يتبدد بجوهر لامعة ولا بالشمس ولا بالنار بل يتبدد بالم-صالحة وحدها.

وهناك أربعة مناهج سياسية مضاعفة أربع مرات تبدأ بالم-صالحة وتنتهي ب-العنف، والعنف أسوأها جميعا ولهذا يجب تجنبه. وقد قيل أيضا:

المصالحة والرشوة وبذر الشقاق ثلاثة أبواب مفتوحة توصل دائما للحكمة. أم-ا الب-اب الرابع والأخير كما يقول أصحاب المروءة فهو العمل البطولي.

إن قوة الأقوياء - من الفيلة والحيات والأسود والنار والماء والرياح والشمس - تصبح بلا جدوى إذا قورنت بالمناهج السياسية. إن كثيرا من الأبطال لا قوا حتفهم على ال-رغم م-ن أنهم طوال عراض الأكتاف، ولم يهلكوا لأنهم حمقى، بل كانوا على بينة من أم-رهم، فلم-اذا ساروا وراء القائد؟ يضاف إلى هذا كله أنك قد أسرفت في اعتمادك المتعجرف على أنك وزير بالورثة، وهذا سوف يؤدي بك إلى التهلكة.

إذا اكتسب المرء علما ولم يتحكم في حواسه بكل روجه، وإذا لم يكن لهذا العلم فائدة في تدريب العقل على الحكم الصحيح، وإذا لم يعتصم هذا العلم بالاستقامة، وإذا كانت الخطابة أمام الناس مجرد ترديد للمحسنات اللفظية، وإذا لم يكن العلم في خدمة السلام أو لخدمة الحق المجدي، فأى فائدة في مثل هذا العلم؟

يقال في علم السياسة إن للنصيحة خمسة عناصر هي: فكرة الأمر المطلوب الاضطلاع به، والمدد من الرجال والمال، واختيار الزمان والمكان المناسب، ومذيع وقبوع الكوارث الداهية، وإنجاز المشروع المنشود بنجاح. ومولانا الآن في خطر عظيم ولا بد لنا أن ندبر وسيلة لمنع وقوع الكارثة. وقد قيل أيضا: إن البراعة تظهر عند العمل، وبراعة الوزراء تظهر في رآب ما تصدع، وبراعة الأطباء في علاج المرض العضال، وعندما تكون كل الأمور على ما يرام فمن ذا الذي لا يستطيع أن يكون حكيما؟

وأنت أيها الأحمق منحرف العقل وتوهم أنك بارع، وهذا يدفعك إلى تدبير ممل فيه هلاكك.

وقد قيل في هذا بحق:

إن العلم الذي يقضى على الغرور، يولد الغرور في الحمقى، مثله في ذلك مثل، النور، به تبصر العين وبه تعشى البومة.

وعندما رأى كرتاكه مولاه في تلك الحالة المحزنة غمره الحزن والأسى وقال: إن هذه الكارثة قد حلت بمولاي بسبب نصيحة غير حكيمة. وقد قيل في هذا بحق. إن الملوك الذين يصغون إلى رأى الأخساء ولا يسيرون في الطريق الذي رسمه الحكماء تحل بهم المصائب التي تملأ قلوبهم حسرة وأسى ويصعب عليهم الخلاص.

والآن أيها الأحمق ألا ترى أن كل عاقل يحاول جاهدا أن يخدم مولاه رجال ممل ذوي الفضل، ولكنك بذرت الشقاق بعبارتك المسمومة وقذفت في حق الآخرين، وفرقت بين مولاي وصديقه، فكيف يتأتى لمولانا ومثلك إلى جانبه أن يظفر بخدمة ذوي الفضل؟ لقد قيل: لمن يقرب امرؤ من أحد الملوك، ولو كان نبيل الصفات، إذا كان له وزير حقود، ومثله في ذلك مثل بركة ماؤها صاف عذب، تسكنها تماسيح، تمتلئ جوانحها بالحقن. وإذا كان بنزعة إلى تضخيم شخصيتك تود أن تجعل الملك منعزلا عن الناس أيها الأحمق. أفلا تعرف أن الملك لا يمجّد إلا إذا كثر أتباعه أما الملك الذي يعتزل الناس فلا يمجّد أبدا. والذين يودون له ههذه العزلة ليسوا إلا أعداءه. أفلا تدرك هذا أيضا؟ وهكذا أرى أن الخالق قد جعل منك حالة فريدة يكذب فيها الشكل (الفطرة). لأن على المرء أن ينشد الخير فيما يكره، وإذا وجد فسوف يكون طعمه سائغا. وعلى المرء أن يتوقع الزيف فيما يسره، وإذا وجد فإنه يكون سما ناقعا.

وأضيف إلى هذا أن الغيرة كانت تنهش فؤادك كلما رأيت غيرك في نعمة. وإنه لأمر رخيص أن تكره هذا لأصدقائك المخلصين. لأنه:

لا ريب في أن الحمقى هم أولئك الذين ينشدون الظفر بصديق متوسلين بالخيانة أو طلب الاستقامة بالخداع أو الحصول على الثراء بظلم غيرهم أو تحصيل العلم بلا مشقة أو كسب حب المرأة بقساوة القلب. وقد قيل أيضا:

إن ما يصيبه وزير من خير لابد أن يعود بالخير على الملك أيضا.
هل يكون للمحيط وجود بغير أمواجه التي ترتفع عالية وتتألا كالأحجار الكريمة؟ على من ينال حظوة مولاه أن ينتهج السلوك الأقوم بصفة خاصة وقد قيل:
بقدر ما يمنح السيد خادمه من ثقة، بقدر ما يضيء أمامه الطريق فيسير فيه بخطوات ثابتة مهما كان الضوء خافتا.
وإني أرى أن شخصيتك متهافنة وقد قيل:

الرجل العظيم لا تتزعزع ثقته بنفسه إذا أصابته محنة، والمحيط لا يصير موحلا بتأكل شواطئه، والرجل الإمعة ينزعج لسبب تافه وأعشاب "دربها" تتأرجح ولو مر بها نسيم عليل.
ومع ذلك فاللوم كله يقع على مولانا، لأنه قبل النصيح من أمثالك، وهو يجهل كل الجهل مناهج السياسة الستة^{٢٨} ولم يكثر بتحقيق أهداف الرغبة الإنسانية الثلاثة^{٢٩} وقد قيل في هذا:
إن الملوك الذين تسرهم كلمات الأتباع المنمقة المعسولة ولا يدأهبون لأعدائهم بـ. الأقباس والسهام يخسرون أملاكهم.

ولا شك أنك بهذه الفعال قد برهنت على أن سياستك موروثة، وأن أبـ.ك كـ.ك. إن مثلك تماما. ولكن أنى لأحد أن يعرف ذلك؟ لأنه:

لابد أن يسير الابن على نهج أبيه، فثمار المربلان لا تنمو على شجرة كتاك. إذا كـ.ك. إن الرجل عاقلا وخلقه قويا فعبتا يحاول العدو أن يجد صدعا في خطوط دفاعه يـ.ق. تحم مذـ.ه طريقه مهما طال به الانتظار، اللهم إلا إذا كشف هو بنفسه عن ثغرة في هذه الخطوط. وقد قيل:

^{٢٨} أوردنا بها قائمة في صفحة ٢٥٤.

^{٢٩} انظر صفحة ٢٥٤.

من ذا الذى يستطيع أن يكتشف، ولو حاول جاهدا، المكان الذى يتبرز فيه الطاووس^٤.
ألا تصف بالحماسة من رقصوا فرحا عند سماع هزيم الرعد؟ وعلى أية حال أى فائدة ترجى
من توجيه نصيحة لشقى مثلك؟ لقد قيل:

إنك لا تستطيع أن تثنى خشبا شديدا الصلابة ولا تستطيع أن تقطع حجرا بسكين، واعلم
أنك لا تستطيع أن تعلم أحدا لا يريد أن يتعلم. وإلا أصابك ما أصاب الع-صفور ذى المنق-ار
الإبرى من القرد. فقال دمنكه: وكيف كان ذلك! فقال كرتاكه:

الحكاية الثانية عشرة

* القرد واليراعة والعصفور

يحكى أنه كان فى أحد الأقاليم قطع من القردة. وأقبل فصل الشتاء فقامت القردة م-ن
البرد الشديد وتعرضت لكرب عظيم. واتفق أن رأيت يراعة حسبته ذ-ارا فغطته-ا ب-بعض
الأعواد الجافة والأعشاب وأوراق الأشجار ومدت أذرعها ودلت أباطها وبطونها وص-دورها
وأحست فعلا بالراحة بعد أن استشعرت دفئا وهميا. وبرز من بينها أحد القردة، وكان مقرورا
بصفة خاصة، وظل ينفخ فيها بغمه طوال الوقت وهو منتب-ه إليه-ا بك-ل جوارح-ه. ورأى
عصفور يسمى ذا المنقار الإبرى القرد وهو ينفخ فى اليراعة فهبط من الشجرة وقال: لا تتعب
نفسك أيها الصديق. إن هذه يراعة وليست نارا. ولم يعبا القرد بكلماته واستمر ينفخ. و-د-اول
العصفور مرارا وتكرارا أن يجعل القرد يكف عن هذا الصنيع ولكنه لم يتوقف. ولإيجاز فى
سرد حكاية طويلة ظل العصفور يقترب من أذن القرد ويهمس فيها بعبارته-ه ف-ى إصد-رار،
فاستشاط القرد غضبا آخر الأمر وأمسك بالعصفور بعنف وقذف به على حجر فقتله.

[نهاية الحكاية ١٢]

ولهذا أقول: إنك لا تستطيع أن تثنى خشبا شديدا الصلابة ولا تستطيع أن تقطع حج-را
بسكين واعلم أنك لا تستطيع أن تعلم أحدا لا يريد أن يتعلم وإلا أصابك ما أصاب الع-صفور
ذى المنقار الإبرى من القرد. وأقول بعد كل هذا: بم يفيد العلم، إذا لقن لمن هو غير جدير به؟
إن مثله مثل نور فى قنديل مغطى بأحد البيوت. ولهذا فأنت ولا شك وليد سفاح. وقد قيل:
إن الذين تقوم أراؤهم على حكم سليم يجب أن يتعرفوا على الابن المولود ال-ذى يعقب-ه،
والمولود الخارق ووليد سفاح.

^٤ هذه عادة مزعومة للطاويس كثيرا ما تتردد فى الشعر الهندى.

واعلم أن المولود يأخذ صفات أمه، والوليد الذي يعقبه يأخذ صفات أبيه والوليد الخارق يتفوق على الأخير أما وليد السفاح فادنى الأدنياء.
وقد قيل:

إن من يحمل عبء الأسرة ويضع تحت تصرفها ذكاه وثروته وقوته التي لا تتوافر في شخص آخر هو الابن الحقيقي الوحيد لأمه. وقيل أيضا: أنى لك بفضل لا يد-ألق إلا للحظة- عابرة؟ ألا ترى أن من الصعب أن تجد رجلا يتحلى بمقدرة لا تنتهى على إنجاز ما يد-صدى له من أعمال؟

ها أنت ذا أيها الأحمق لا تحير جوابا! وقد قيل: إذا أردت أن تعرف المجرم ف-اعلم أن صوته مبحوح وملامح وجهه متغيرة ولونه شاحب ونظراته زائغة تتم ع-ن الف-زع وج-سده يرتجف فرقا من نتائج فعلته. وقد قيل:

الخب والمغفل لا يقل أحدهما سوءا عن الآخر فالابن تسبب في اختناق أبيه بالدخان لأنه اشتط في الاحتياي.

فقال دمنكه: وكيف كان ذلك؟ فقال كرتاكه:

الحكاية الثالثة عشرة

* الخب والمغفل

يحكى أنه كان هناك ولدان من أبناء التجار يعيشان في إحدى الم-دن وكان-ا ص-د-يقين حميمين، إسماهما الخب والمغفل. وضافت بهما الأحوال فرحلا إلى ب-دة أخ-رى ليحرب-ا حظهما، وبينما هما في الطريق عثر ابن التاجر المسمى "المغفل" جزاء له على ما ق-دم م-ن الطيبات، على ألف دينار فضى في كيس كان قد خبأه أحد المرابين فتشاور مع الخب وانتهي-ا إلى قرار اتفقا عليه وقالوا: سوف نحصل بهذا المال على كل ما نحتاج إليه فلناخذ ونعود إلى بلدتنا. وقلنا راجعين.

وعندما اقتربا من موطنهما قال المغفل: لنقتسم الدنانير ويأخذ كل منا ذ-صفها وذ-دخل بيوتنا ونعيش في أبهة بين أصدقائنا وأقاربنا وسائر الناس. فقال له الخب، وأضمر في نفسه أن يخدع صاحبه، حتى يدبر خطة يغتم بها المال لنفسه: أيها الصديق مادام لدينا م-ا نقد-سمه فإن المودة بيننا سوف تظل وثيقة لا تنفصم عراها. وأرى أن يأخذ كل منا مائة دينار وذ-دفن الباقي في الأرض في هذه البقعة ونعود إلى بيوتنا ونأتى فيما بعد عندما تمنح الفرصة ونأخذ منه ما نحتاج إليه. فرد الآخر: كما تشاء. ونفذا ما اتفقا عليه وأخفيا باقى المال بعناية ف-ى

باطن الأرض عند سفح شجرة وعادا إلى بيتيهما. وفي خلال ذلك العام أنفق الخب نصيبه كله من المال إذ بدده في أغراضه الدنيئة وذلك لضالة مآثره (التي اكتسبها بفعاله الماضية). وأخذ هو والمغفل دفعة أخرى من المال المدفون عند الشجرة وأصاب كل منهما مائة دينار. وفي نهاية العام الثاني أنفق هذا المال أيضا في الأغراض نفسها. وقال الخب في نفسه: لو اقتسمت معه الدفعة الثالثة من المال (وأخذ كل منا) مائة دينار فسوف يتبقى أربع مائة دينار وهو مبلغ ضئيل جدا لا يستحق السرقة. ولهذا أرى أن استولى على الستمائة دينار الباقية واستأثر بها. وحدى. وبعد أن استقر على هذا الرأي ذهب بنفسه إلى الشجرة وأخذ ما تبقى من المال وسوى الأرض فوق الموضع الذي كان مخبأ فيه. ولم يمض على ذلك شهر واحد حتى ذهب للمغفل. وقال له دون أن ينتظر منه أن يدلي برأيه:

أيها الصديق: إن على دينا لا بد من سداذه، فتعال معي، لنقتسم المبلغ الباقي بالتساوي. فوافق المغفل وذهب معه إلى ذلك الموضع وشرعا يحفران. وعندما أتما الحفرة ولم يجدوا المال، إذا بالخب يلتفت إلى زميله في وقاحة ويضرب رأسه بحجر ويقول له في غضب شديد: أيها المغفل! لا بد أنك سرقت المال، ولم يختلسه أحد غيرك. وعليك الآن أن تدفع لي نصفه! فقال الآخر: لست بالرجل الذي يقدم على مثل هذه السرقة. ولست أشك في أنك أنت الذي سرق المال. وتشاجرا وذهبا إلى المحكمة. وعند نظر القضية استمع القاضي أقوالهم. وأمروا بالقبض عليهما معا لأن الأمر كان من الغموض بحيث يصعب معه الوصول إلى حكم قاطع. وانقضت خمسة أيام، فقال الخب للقضاة: إن لدى شاهدا في أمـر الـدنانير، فاسـألوه. وراودهم الأمل في أن يفصلوا في القضية، فسألوه: من هو شاهدك؟ قدمه لنا! فقال: إن شاهدي هو الشجرة نفسها التي كان المبلغ مدفونا عند جذورها. فاندعش القضاة وقالوا: كيف يدعي أن الشجرة أن تقدم الدليل؟ حسنا عليه أن يثبت قوله غدا. وسمحوا لكل منهما بالذهاب إلى بيته بعد دفع كفالة معلومة. ولما ذهب الخب إلى بيته توسل إلى أبيه قائلا: أبته، إن الدنانير بين يدي ولكن بقاءها في حوزتي يتوقف على كلمة واحدة منك. فقال أبوه: وماذا تريد مني أن أفعل؟ فأجاب: عليك أن تختبئ في داخل جذع الشجرة الليلة، وأن تظل مختبئا هناك. وعندما يسألك القاضي غدا عليك أن تقول: إن المغفل هو الذي أخذ المال. فقال أبوه على الفور: يا بني، هذا لن يفيد ولا شك أن أمرنا سوف يكتشف ويقضى علينا لا محالة وقد قيل:

على العاقل أن يفكر فيما يناسب وما لا يناسب الموقف وإلا أصابه ما أصاب البلهـشون الأحمق عندما أكلت النموس صغاره وهو يسعى على رزقه.
فقال الابن: وكيف كان ذلك؟ فأجاب أبوه:

الحكاية الرابعة عشرة

* طائر البلشون والثعبان والنمس

يحكى أنه كان هناك زوج من طيور البلشون يعيشان فوق إحدى أشجار الأرجونا. وكانا كلما ولدا صغارا أكلها ثعبان متوحش يتسلل من جذع الشجرة المجوف قبل أن ينبذت ريتريش. أجنحتها، وفقد ذكر البلشون صوابه من الحزن وامتنع عن تناول الطعام وذهب إلى شاطئ بركة وجلس هناك وهو خائر العزيمة يندب حظه. فرأه سرطان بحري وقال له: عماه، لماذا إذا أراك اليوم حزينا يائسا؟ فأخبره بما حدث له وكيف التهم الثعبان صغاره. فواساه الـ سرطان البحري بقوله: سيدى سوف أدلك على وسيلة تقتله بها، إنك تعرف جحر هذا النمس فأبدأ منه وبعثر لحم سمك فى خط متعرج حتى تصل إلى جحر الثعبان ولا شك أن النمس وسد وف تتقضى فى شراهة على هذا الطعام ويأتون إلى هنا ويجدونه. ولما كانت بينها وبين الثعبان عداوة طبيعية فإنها سوف تقتله لا محالة. ونفذت هذه الخطة بحذافيرها وسارت النموس فى الطريق الذى انتثر فيه لحم السمك وعندما عثرت على الثعبان لم تنس عداوتها التقليدية له فقتلته. بيد أنها عرفت الطريق إلى عش طائر البلشون فوق الشجرة والتهمت صغاره.

[نهاية الحكاية ١٤]

ولهذا أقول: على العاقل أن يفكر فيما يناسب وما لا يناسب الموقف وإلا أصدابه ما أصاب البلشون الأحمق عندما أكلت النموس صغاره وهو يسعى على رزقه.

غير أن الخب تغلب عليه الجشع، حتى بعد أن سمع هذه الحكاية، واصطحب أباه رغم إرادته، ووضعها فى جوف الشجرة. وفى الصباح تليت نصوص من مجموعة القوائين أمام الشجرة فى حضور قضاة المحكمة فسمع صوت من الشجرة يقول: إن المغفل هو الذى أخذ المال. وعندما سمع المغفل هذه العبارة قال فى نفسه: كيف يمكن أن يحدث هذا؟ إن ما حدث أمر مريع ومستحيل. ومن ثم سوف أتسلق الشجرة وأفحصها بنفسى. ونفذ عزمه بلا تردد ثم هبط من الشجرة وجمع أكواما من الحطب والأوراق الجافة وملا بها جوف الشجرة وأضرم فيها النار. وعندما أحرقت النار بلهبها والد الخب وكاد جسده يحترق، جحظت عيناه وصرخ فى صوت يفتت الأكباد وخرج من جوف الشجرة وهو يكاد يشرف على الموت وهوى على الأرض. فدهش الجميع وحملقوا فيه وبأدروه بالسؤال: ما معنى هذا؟

فأجاب: إن ابني الخب، هذا الشرير، هو الذي زج بي في هذا المأزق. وما كاد يفـرغ من قوله هذا حتى مات. وأدرك قضاة الملك الحقيقة وأمروا بإعطاء المال للمغفل وقتلوا الخب على السفود.

[نهاية الحكاية ١٣]

ولهذا أقول: الخب والمغفل لا يقل أحدهما سوءا عن الآخر فالابن تسبب في اختناق أبيه بالدخان لأنه اشتط في الاحتيال.

وبعد أن فرغ دمنكه من رواية هذه الحكاية قال له كرتاكه: تبا لك أيها الأحمـق. لكـم أظهرت براعتك وقضيت على أسرتك. وقد قيل:

إن الأنهار تنتهي بأن تصب في بحار ماؤها ملح أجاج والقلوب المتحابة تتباغض بسبب النزاع على النساء والسر يفضحه واش، والأسر يقضى عليها الأبناء الأشرار.

يضاف إلى هذا أنه إذا كان لرجل لسانان في فم واحد فمن ذا الذي يثق به؟ وقد قيل: مثل فم الأفاق، مثل فم ثعبان به لسانان ترتجف من معوله الأفئدة إنه قاس لا يرحم، ولا هم له إلا إلحاق الأذى بغيره.

والرأى عندي أن العمل الذي قمت به يعرضني أنا أيضا للخطر. فقال دمنكه: وكيف ذلك؟ فقال كرتاكه:

لا تتق بحقوق لمجرد أنك كنت له صديقا حميما منذ وقت طويل. ألا تـرى أن الشعبـان بعض صاحبه على الرغم من رعايته له وعطفه عليه دهرا طويلا. الرجل الأمين لا غنى له عن التهذيب، وعلى المرء أن يحترس من العاقل الماكر، ومهما يكن من أثر فـإن الأحمـق الأمين يجب أن يعامل بالرفق أما الأحمق الماكر فيجب الإعراض عنه تماما.

إنك بما قمت به من فعال لم تقض على أسرتك فحسب بل اقترفت إساءة في حق مولاك أيضا. ومادمت قد زججت بمولاك في هذا المأزق فإن أي إنسان آخر سيكون قذى في عينيك. وقد قيل: إذا أكلت الجرذان ميزانا مصنوعا من ألف رطل من الحديد فلا عجب أن يحمـل الصقر فيلا، فلم تدهشون إذا حمل صبيبا؟ فقال دمنكه: وكيف كان ذلك؟ فقال الآخر:

الحكاية الخامسة عشرة

* الجرذان آكلة الحديد

يحكى أنه كان لتاجر ابن عاش فى إحدى المدن وخسر كل أمواله فانطلق إلى بلدة بعيدة ليحرب حظه. وكان له فى بيته ميزان مصنوع من ألف بالاً^١ من الحديد ورثه عن أجداده. فأودع هذا الميزان عند ابن لتاجر آخر ورحل إلى البلدة البعيدة ليحرب حظه. ولزمه سدوء الطالع فلم يكسب فلساً واحداً على الرغم من تكرار محاولاته فعاد أدراجه وطلب من ابن التاجر الآخر الميزان الذى كان قد أودعه عنده ولكن هذا الرجل كان جشعاً فقال له: لقد أكلت الجرذان هذا الميزان. فقال الآخر فى نفسه: هذا غريب كيف تأكل الجرذان ميزانا مصنوعاً من ألف رطل من الحديد؟ وابتسم وقال: هذا طبيعى جداً لأن الحديد حلو شهى ولين فلم لا تأكله الجرذان؟

وهكذا أذعن للأمر الواقع، فابتهج صاحبه وملاً السرور قلبه وعرض عليه الضيافة وأمر بغسل قدميه ومنكبيه ودعاه لتناول طعام الغداء. وكان هناك نهر لا يبعد عن بيته كثيراً. ذهب إليه الضيف وشرع فى الاستحمام فبعث وراءه مضيفه بأبذله الوحيد ومعه ثمار الماروبلان ورداء استحمام.

فبادر الضيف وأخذ الصبى وأخفاه فى مكان آمن فى بيت صديق ثالث وعاد وحده إلى بيت مضيفه فسأله التاجر: أين ابنى الذى بعثت به وراءك؟ إنه لم يعد إلى البيت. فأجاب: وأأسفاه أختطفه صقر وما أن سمع الرجل منه هذه العبارة حتى غاص قلبه بين ضلوعه وقبض على ذراع صديقه بشدة واقتاده إلى المحكمة وصاح: النجدة!! النجدة!! إن هذا الرجل الشرير أخفى ابنى فى مكان ما. فسأله القضاة: ما قولك فى هذا؟ فأجاب وهو يبتسم: لقد اختطفه صقر! فدهش القضاة وقالوا له: هذا أمر لم يسمع به أحد من قبل. أذنى لصقر أن يخطف صبياً. فقال: وما وجه الغرابة فى ذلك؟ إذا أكلت الجرذان ميزانا مصنوعاً من ألف رطل من الحديد فلا عجب أن يحمل الصقر فيلاً، فلم تدهشون إذا حمل صبياً؟

وعندما سمع القضاة منه ذلك وعرفوا الحقيقة قالوا لوالده الصبى: أعطه ميزانه المصنوع من ألف رطل من الحديد وهو من جانبه يعيد لك الصبى. فصدع الطرفان له الأمر.

[نهاية الحكاية ١٥]

^١ وحدة الوزن لا تحددها معظم النسخ.

ومن ثم أقول: إذا أكلت الجرذان ميزانا مصنوعا من ألف رطل من الحديد فلا عجب أن يحمل الصقر فيلا، فلم تدهشون إذا حمل صبيبا؟

ولكن ما جدوى تعليمك مادمت عديم الإدراك مثل أى بهيمة؟ ألا ترى أن الحكمة تدفع بين المتعلمين وأن الزيت ينتشر على صفحة الماء وأن السم يسرى في الدم والود يدوم بين الأخيار والمودة تتوثق أواصرها بين النساء المغرمات والسر يفشى بين الأخساء والنساء. يتأصل في عالم ذوى المروءة لأن: نبيل الإنسان لا يكمن في القواعد المقررة بين طائفتهم. وسمعة الخلق تضرب بجذورها في سلوكهم، وهوان الذكر الذى يجلب معه سلسلة متصلة من المصائب، تعد بالمئات، يطارد الجحود في هذه الحياة الدنيا وفي العالم الآخر. وإن عداوتك الدائمة لكل من يتحلى بالصفات الجميلة فهذه أيضا راجعة إلى مزاجك الذى فطرت عليه فقال دمنكه: وكيف هذا؟ فقال كرتاكه:

القاعدة العامة في هذا العالم أن الخسيس لا يكف عن حسد نبيل المحتد، وأن سيئ الحظ فى الحب يحسدون من يتمتع بالحظوة لدى النساء، والبخلاء يحسدون الأسخياء والفقراء يحسدون الأغنياء والحمقى دائما يحسدون الضليع فى العلوم، وقد قيل أيضا: لا تعلم إنسانا إلا إذا كان يفهم ما يقال له مرة واحدة. فأى فائدة فى تعليمك وأنت غبي كالحجر الأصم.

وأقول لك علاوة على هذا، أيها الأحمق إنى أرى أنه ليس من الحكمة أن أظلم فى صحبتك وإلا أصابنى منها بعض الضرر فقد قيل:

يكتسب الإنسان من صحبته للأخيار والأشرار فضائل هؤلاء وريذائل أولئك، مثله فى ذلك مثل الريح التى تهب على مواضع مختلفة فتحمل الروائح الطيبة والخبيثة على السواء. وأنت لست بارعا إلا فى الحقد. أنت آفة للصدقة ولن تستقيم الأمور مادام أمثالك فى موضع السلطة. وقيل أيضا:

إن الحقوق لا يغنى لنفسه سوى الخسران. وذو المروءة لا يتردد فى نجدة الملهوف حتى فى وقت الضيق الشديد. ومن أجل هذا قيل:

ما لا ينبغي عمله يجب ألا يعمل أبدا، وعلى العاقل ألا يشغل به. ذهذه، فالذاس لا يشربون الماء الملقى على قارعة الطريق ولو أضر بهم الظما الشديد. وبعد أن فرغ كرتاكه من كلامه انصرف إلى حال سبيله. وزال غضب بنجله بعد أن صرع سمجيفكا ومسح يده التى لوئها الدم وقال وهو يتهدد وقد فاض قلبه غما وأسى وتملكه ندم شديد: واسد فاه! لقد ارتكبت إثما كبيرا بقتلى سمجيفكا الذى كان مثل نفسى التى بين جنبي. وقد قيل: إن خسارة الأتباع بمثابة الحكم بالإعدام على الملوك. لا شيء يعدل فقد قطعة من الأرض الجيدة أو فقد تابع من ذوى الراى. بل إن استعادة الأرض أيسر من استعادة الأتباع.

وعندما رأى دمنكه ما أصاب بنجلكه وأنه يبكى وينوح، وقد غلبه الحزن والأسى زحف إليه متسللا وقال:

أليق بك أن تحزن لأنك صرعت خصمك أم أن هذا من قبيل حسن السياسة؟ لقد قيل: لابد من قتل من يهدد حياة الملك ولو كان أباه أو أخاه أو ابنه أو صد-ديقه، إذا أراد الملك أن يدبر ملكه بنجاح.

يجب الإعراض عن ملك رقيق القلب وبرهمى يأكل كل شيء وامرأة خائنة-ة وصد-ديق سيئ الطوية وتابع مشاكس وموظف مهمل وعلى المرء ألا يبدى لهم أى امتنان.

انطلق فى رحلة ولو كانت طويلة مادمت تتوقع أن تجد فيها ما يسرك... اسأل حكيم-ا ولو كان طفلا وأعط جسدك لمن يطلبه وهو فى حاجة إليه واقطع ذراعك إذا أساء إليك. إن-ك تعرف أن الملوك ليسوا فى حاجة إلى الاستمسك بالفضائل كما هو شائع بين الدهماء. وقد قيل:

إن المملكة لا يمكن أن تحكم بمعايير الناس العاديين. لأن ما يعد ف-ى الذ-اس رذائل (بصفة عامة) يمكن أن يعد فى الملك من الفضائل. وقد قيل أيضا: إن سد-لوك الملك-وك مث-ل سلوك البغى لا يثبت على حال، فالملك صادق وكاذب، فظ ورقيق ف-ى الد-ديث، مت-وحش وحنون فى الوقت نفسه، شحيح وكريم ومبذر فى الإنفاق وإن كان يحصل على مبالغ كبيرة من مصادر متعددة.

واستعاد بنجلكه، بعد أن واساه دمنكه بهذه العبارات، هدوءه واطمئنانه وظ-ل ي-ستمع بمباهج السلطان كما كان من قبل وينعم بصحبة دمنكه باعتباره وزيرا له. وهنا ينتهى السفر الأول المسمى التفريق بين صديقين.

السفر الثانى

كسب الأصدقاء أو الحمامة والغراب والفار والسلحفاة والغزال

والآن يبدأ هذا السفر الثانى وعنوانه "كسب الأصدقاء" وفيما يلى منظومة الاستهلال: إن الأذكى والأوداء سرعان ما يكافون بتحقيق أغراضهم مثلهم فى ذلك مثل الغراب والـسلحفاة والغزال والفار.

فقال أبناء الملك: وكيف كان ذلك؟

فروى فسنوشرمان هذه الحكاية:

يحكى أنه كانت فى الإقليم الجنوبى مدينة تدعى مهيلاروبيا. وكانت هناك شجرة قطـن حريرى لا تبعد عنها كثيرا وكانت متينة الجذع متعددة الأغصان وكانت الطيور تقبل إليها من كل حدب وصوب وتقضى فوقها الليل. وكان من بينها غراب اسمه خفيف الجناح اتخذ منهـا سكنا. واتفق أن انطلق فى صباح يوم باكر للبحث عن الطعام ورأى صيادا رهيبـا الـسحنة، وأصابع يديه وقدميه مشققة وجسمه أغبر وشعره أشعث، يحمل فى يده هرواة وشبكة وخيـل إليه أنه القضاء الداهم فى صورة إنسان. وانزعج الغراب لمراه وقال بينه وبين نفسه: تـرى ماذا يبغى هذا الشقى؟ هل يسعى إلى الإيقاع بى أم أنه جاء لغـرض أخـر؟ ولـبـدث يترقبـ الموقف. واتجه ذلك الصياد نحو الشجرة ونشر الشبكة ونثر عليها بعض الحب ثم اختبأ فى مكان خفى لا يبعد عنها كثيرا. واتفق فى ذلك الوقت أن أقبل ملك للحمام يسمى المطوق وأخذ يحلق فى الجو وخلفه من الحمام ألف، فأبصر بذلك الحب. واستجاب للإغراء وهـبط فـوق الشبكة للحصول على الطعام فسقط فى أحابيلها ومعه رهطه بأسره. وابتهج الصياد عندما رأى ما حدث وهرع يلوح بهرواته. وكانت الطيور من رهط المطوق ترفرف حوله هـذا وهـذا. وتـجذب الشبكة بمناقيرها وأقدامها فى اتجاهات مختلفة. وعندما رأى المطوق مـا حـل بـه وبرهطه قال: هذه هى الداهية الدهياء. ليس أمامنا والحالة هذه إلا وسيلة واحدة للنجاة. عليـنـا أن نـتـكاتف معا وأن نحلق عاليا فى الفضاء وننطلق بهذه الشبكة إلى مكان بعيد. واعلموا أنـنـا إذا لم نتحد ونتعاون فلن نحمل الشبكة. وعملوا بما قال، وحملـوا الـشبكة وتركـوا الـصياد وراءهم على مرمى سهم منهم وانطلقوا فى الفضاء يحذوهم الأمل فى إنقاذ أرواحهم. وعندما رأى الصياد الطيور تحمل شبكته وتحلق بها فى الفضاء قال لنفسه: هذا أمر لم يسمع به أحد من قبل؟ وجرى وهو يقلب بصره فى الفضاء ويقول لنفسه: ليس من شك فى أن هذه الطيور تستطيع أن تحمل شبكتى مادامت تعمل يدا واحدة ولكنها لن تستمر على ذلك طويلا وسـوف تختلف فيما بينها وعندها تقع فى قبضتى.

ورأى المطوق ذلك الصياد القاسى الشرير يفتنى آثارهم فبدأ يطير هو وأتباعه بـ سرعة أكبر . وشهد خفيف الجناح ما حدث فزهد فى الطعام وجد فى أثر سـ رب الحمـام، يدفعه الفضول، وأخذ يقول لنفسه: ترى ماذا سيفعل هذا الصياد الشرير بالحمـام؟ وأدرك المطوق غرض الصياد فقال لرفقائه: إن هذا الصياد الشرير يجد فى أثرنا، ولم يفقد الأمل بعد فى الإيقاع بنا، والرأى عندى أن نغيب عن أنظاره... لابد أن نحلق عاليا جدا ونطير فوق أراض وعرة، وتلال وغابات حتى يعود يائسا. وحلقت الطيور حتى اختفت عن ناظره وأخذت معها الشبكة. وأدرك الصياد أن الحمام قد تجاوز فى طيرانه مرمى البصر ففقد الأمل وقفل راجعا. وعندما استوثق المطوق من أن الصياد الشرير قد عاد قال للحمام: انظروا. إن الصياد قد عاد أدراجه والرأى عندى أن نعود نحن أيضا وننطلق رأسا إلى مهيل روبياء. ففى الشمال الشرقى منها يعيش صديق عزيز، هو فأر يدعى الذهبى. وسوف نذهب إليه بلا توان ليقطع وثاقتنا، ولست أشك فى أنه سوف ينقذنا من هذه المحنة التى حلت بنا. فقالوا: نعم المـالرأى. ومـا أن اقتربوا من جحر الفأر الذهبى حتى هبطوا. وكان الذهبى الأريب يخشى أن تلم به كارثة فحفر جحرا له مائة فتحة ليعيش فيه. وعندما سمع الفأر الذهبى الضجة التى أثارها سـ رب الحمـام وهو يطير ارتجف قلبه هلعا ولبث فى مخبئه. ولكن المطوق أغراه بالظهور فى مدخل الجحر وقال: أيها الصديق الذهبى، اخرج ولا تخشى شيئا فنحن لا نضمرك لك سوءا. وسمع المـالذهبى قوله هذا، ولم يتحرك من معقله الحصين وقال وهو لا يزال يلوذ به: من أنت يا سيدى؟ فقال: أنا صديقك المطوق. وعندما سمع الفأر هذا فرح فرحا شديدا وقف له شعر جسده كله وذرج وقلبه يكاد يرقص طربا فشاهد المطوق ورهطه مسربلين بحبال الشبكة فقال مذعورا: ما معنى هذا أيها الصديق خبرنى. خبرنى بما حدث. فقال المطوق: أنت ذكى أيها الصديق فلماذا توجه إلى سؤالا كهذا؟ لقد قيل:

إن المرء ليتساءل من أين وبأى وسيلة ومتى وكيف وماذا وإلى أى مدى وأين يفعل الإنسان هذا، وسواء أكان عملا صالحا أم طالعا فإنه عندئذ وبهذه الوسيلة أو تلك وإلى هـذا المدى أو ذاك يعمل هذا كله مدفوعا بقوة القدر وحده.

فقال الذهبى: لقد قلت عين الصواب! إن الطائر يرى لحم الجيفة وهو على بعد مائة فرسخ أو عشرة ومع ذلك فإن هذا الطائر نفسه يعمى بصره عن حبال الشراك عندما يدب الأوان.

عندما أرى القمر والشمس يتعرضان للكسوف والكسوف وأن الفيلة والثعابين لا تـسلم من الأسر وأن الحكماء يحل بهم الفقر والمسبغة فلا بد من أن أقنع بأن القدر أقوى مـن كل شىء، وهذا ما فكرت فيه

إن الطيور لا تسلم من الأذى رغم أنها لا تحلق إلا في الفضاء، والأسماك يصيدها من يعرف كيف يصل إليها ولو كانت في أعماق البحر. فما جدوى الحسنات والسيئات في هـ. ذا العالم؟ وأي فضيلة في الحصول على مكانة رفيعة؟ ألا ترى أن القدر يمد ذراعاً ويمسك بتلابيب الإنسان عندما تحل به كارثة.

وبعد أن فرغ الفأر الذهبي من مقالته هذه شرع في تقطيع الحبال التي وقع فيها المطوق فقال له المطوق: بربك لا تفعل هذا أيها الصديق. وابدأ أولاً بتقطيع حبال الذي تحيط بأتباعي، وبعد أن تنتهي من إطلاق سراحهم اقطع حبالى. وعندما سمع الفأر الذهبي منه هـ. ذا قال له وقد نفذ صبره: كيف تهتم يا صديقى بتحرير غيرك من أسرهم ولا تعمل حساباً لنفسك؟ فقال المطوق: لا تغضب أيها الصديق. إن كل هـ. ولاء التعساء المساكين هجروا زعماءهم من أجلى وربطوا أنفسهم بى فكيف أتخلى عنهم في وقت محنتهم ولا أهتم بهم؟ لقد خطر لى أنك لو شرعت في تقطيع حبالهم فإن التعب لن يحل بك قبل أن تقطع أحمالي.

وأنك لو بدأت بتقطيع حبالى فربما يصيبك التعب يا سيدى وتكتفى بهذا العمل. ولن يكون هذا من الصواب في شيء. ولهذا بادرتك بما قلت. وعندما سمع الفأر الذهبي منه هـ. ذا تملكه الطرب وقال: إنما كنت أختبرك يا سيدى بما قلته لك وهأنذا أرى أنك بدق نداء صف بصفات الزعامة.

فبقدر ما تظهر من الرأفة لأتباعك وبقدر استعدادك لمشاطرتهم مصيرهم وبهذا السلوك الحميد أرى أنك جدير بحكم العالم بأسره.

وما أن انتهى من قوله هذا حتى كان قد قطع كل حبالهم. ولما تحرر المطوق ورهط هـ. من أسرهم ودع الفأر الذهبي وتلقى تحياته وطار هو وأتباعه منطلقين إلى وطنهم. ودخل الفأر الذهبي إلى معقله الحصين. وكان خفيف الجناح قد شهد كل ما حدث فعرت الدهشة وجهه هـ. عندما رأى كيف أطلق سراح المطوق هو ورهطه من الأسر وقال لنفسه: ما أعقل هذا الفأر الذهبي وما أحسن معقله المجهز أحسن تجهيز! إن الراى عندي أن أصادق هذا الفأر الذهبي مثل المطوق فمن يدرى؟ ربما أتعرض لكارثة وأقع في حبال شباك صياد. ولما جمع أمره على ذلك هبط من الشجرة واقترب من مدخل جحر الفأر ونادى على الذهبي باسمه، وكان قد عرفه، وصاح: تعال هنا أيها الصديق الذهبي، أرجوك! وسمع الفأر الذهبي فقال في نفسه: عجباً! أيمن أن يكون أحد الحمائم لا يزال في الشرك ولم يطلق سراحه بعد فندادنى به. ذا الاسم؟ ثم قال: من أنت يا سيدى؟ فأجاب: أنا غراب أدعى خفيف الجناح. وعندما سمع الفأر القول تطلع من داخل جحره إلى الغراب، وكان قد دلف إلى باب الجحر وقال: اغرب عن هذا المكان فقال الغراب: لقد رأيتك تطلق سراح المطوق واعجبت بك وأود أن أكون صديقاً لك.

فمن يدري؟ ربما تحل بي أنا أيضا مثل هذه الكارثة، وعندئذ أسد تطيع أن أتد-رر بف-ضل مساعدتك فبالله لا تبخل على بصداقتك يا سيدى. فقال الفأر الذهبى وهو يضحك: كيف يمكن أن تنشأ بينى وبينك صداقة؟ ألا ترى أنه لا يمكن تحقيق المستحيل، ولا سبيل إلى عمل شيء ما لم يكن ممكنا، وأن العربة لن تسير على الماء وأن السفينة لن تسير على البر.

على العاقل ألا يحاول أن يصاحب إلا من هم على شاكلته فى هذا العالم، وأنا يا سيدى طعام لك وأنت أكل لى فكيف تنشأ بيننا صداقة؟ فقال الغراب: لو أكلتك فلن أصد-يب طعام-ا كثيرا ولو تركتك حيا فقد أنقذ حياتى، كما حدث للمطوق يا سيدى النبيل. وأرى أنه ليس من-حقك يا سيدى أن تحتقر مطلبى فالنقة ممنكة حتى بالوحوش والحلف معها جائز مادامت تتحلى بخلق قويم كما حدث بينك وبين المطوق.

إن صاحب المروءة لا يتغير قلبه ولو أسىء إليه. ألا ترى أنه لا يمكن ت-سخين م-اء المحيط بشعلة من القش.

وصفاتك النبيلة تشيع فى الخارج وإن لم تحتفل بها. ألا ترى أن الياسمين العاطر يفوح شذاه ولو حجبوه بغطاء؟

وعندما سمع الفأر الذهبى هذا قال: سيدى إنك مذبذب بفطرتك وقد قيل:

المذبذب لا يخلص لنفسه فكيف يخلص لغيره ولذلك فإن المذبذب كفيل بأن يه-دم ك-ل عمل. فهلا انصرفت عن هذا المكان حتى لا تسد باب معقلى الحصين. فقال الغ-راب: أيه-ا الصديق لماذا تتفوه بهذه الكلمات القاسية عن المذبذب وغير المذبذب؟ كل ما فى الأمر-ي-ا سيدى أن صفاتك الرائعة قد اجتذبتى ورأيت أنه لابد من عقد أواصر الصداقة بينى وبينك بلا توان وهذا هو قرارى الأخير.

فقال الفأر الذهبى: كيف أكون لك صديقا وأنت عدوى؟ لقد قيل: على المر ألا يعقد حلفا مع عدو له على الإطلاق ولو كانت الرابطة بينهما وثيقة العرى فالماء يطفى النار ولو ك-ان ساخنا جدا. فقال الغراب: لماذا نقول هذا؟ إنى لم أرك قط من قبل فكيف أكون لك عدوا؟ فم-ا هذا الهراء؟ وعندئذ ابتسم الفأر الذهبى وقال: يا سيدى العزيز اعلم أن هناك ضد-ربين م-ن العداوة فى هذا العالم نصت عليهما الكتب: عداوة فطرية وعداوة م-صطنعة فق-ال الغ-راب: حسنا، وما هى السمات المميزة لهذين الضربين من العداوة؟ فقال الفأر ال-ذهبي: ح-سنا. إن العداوة المصطنعة تنشأ لسبب نوعى وتزول بزوال هذا السبب أما العداوة الفطرية-ة فإنها-ا لا تزول أبدا بأية وسيلة. وهذه العداوة الفطرية بدورها ضربان: عداوة من جانب واحد و-عداوة متبادلة فقال الغراب: وما الفرق بينهما؟ فقال الفأر الذهبى: إذا كان كل من الطرفين ي-ستطيع أن يقتل الآخر ويلتهمه فإن ما بينهما يعد عداوة متبادلة لأن الضرر هنا متبادل؟ كما هو الحال

فى العداوة بين الأسد والفيل، ولكن إذا كان أحد الطرفين قادرا على أن يقتل الآخر ويلتهمه. دون سبب مباشر ودون أن يلحق به الآخر ضررا أو يؤذيه أو يلتهمه فإن ما بينهما يعد عداوة من جانب واحد لا ترجع إلى سبب ما، كما هو الحال فى العداوة بين الد-صان والد-اموس والقط والفار، والثعبان والنمس. فأى ضرر يلحقه الحصان بالجاموس وماذا يعمد-ل الثعبان للنمس أو الفار للقط؟ فكيف نتحدث عن عقد حلف بيننا؟ ألا ترى أنه مستحيل كل الاسد-تحالة؟ وقيل أيضا: تقول إنه صديقى؟ أيكفى هذا لكى تمنحه ثقتك إذا كان شريرا؟ وتقول: لقد فعلت الكثير من أجله، ولم أجد سوى الحسرة مع أنه قريب. تلك حكاية متهافئة أو هى م-ن ذ-سيج العنكبوت لأن الناس تحكمهم أقل قطعة من النقود. وقيل أيضا:

على الرغم من أنه محظوظ ويتمتع بالكثير من النعم، ورغم أنه محبوب وأسعده الد-ظ بالنجاة من كوارث لا حصر لها إذا كان رجلا غير مستقيم لا يستحق ذرة من الثقة بسبب م-ا فطر عليه من الشر ألا ترى أن المرء لا يأمن لثعبان ينام فى أحضانه؟ إن حياة المرء تنتهى فى اللحظة التى يضع فيها ثقته فى عدوه أو فى زوجة لا تكن ل-ه ودا، وهذا مصيره ولو كان على درجة كبيرة من الثراء^{٤٢}.

والمرء الذى يريد أن يعقد مرة أخرى حلفا مع صديق أثبتت الأيام أنه يفكر إلى الابد-اء يلقي مصرعه، مثله فى ذلك مثل بغلة تحمل من بغل^{٤٣}.

إذا كنت لم ترتكب إساءة فهذا لا يدعو إلى الثقة بك لأن الأخيار لا يأمنون على أنفسهم قط من الأشرار. فقال الغراب: قد سمعت هذا كله ومع ذلك فإنى أود أن أعقد مع-ك صداقة نبيلة وأعتقد أن هذا ممكن فقد قيل:

كل المعادن تمتاز بصبرها وكل الوحوش والطيور تتحد لسبب يدعو إليه، أما الحمقى فإنهم لا يتحدثون إلا بدافع الخوف والجشع. والأخيار يتحدثون بمجرد رؤية الواحد منهم للآخر فكيف تعترض إذن؟

مثل الخسيس مثل جرة من الفخار، من السهل تحطيمها ومن الصعب جم-ع حطامه-ا، ومثل النبيل مثل وعاء من الذهب من العسير تحطيمه ولكن من اليسير ضم أجزاءه-ه بع-ضها إلى بعض. أنى لى يا سيدى أن أجد غيرك يتسم بهذه الفضائل؟ ومن أجل ذلك أصر ع-لى أن توثق معى أو اصر الصداقة. وإذا لم تفعل فإنى سوف أقف على بابك حد-ى أم-وت جوع-ا. وعندما سمع الفار الذهبى منه هذا قال: لقد أقنعتنى ولتكن مشيئتك. وأصارحك بأنى لم أقل ما قلت إلا لأختبر سلوكك. أما وقد أصررت فلا مانع لدى وإذا عن لك الآن أن تقتلنى فإنك على

^{٤٢} أو كما قال هرقل: حتى لو أمطرهم ذهبا.

^{٤٣} يعتقد الهنود أن البغلة تستطيع أن تحمل ولكن هذا يكلفها حياتها.

أقل تقدير لن يذهب بك الظن إلى أنى كنت أبله وأنت أوقعت بى بدهانك وما دمت قد أثبت لك هذا فما هى ذى رأسى فى حجرك. ولما فرغ من حديثه هم بالخروج من حجره ولكنه ما كاد يخرج منه بضع خطوات حتى توقف مرة أخرى وهو فى منتصف الطريق. فقال الغراب:

ألا تزال أيها الصديق فى ريب منى. وهل هناك ما يدعوك إلى ألا تخرج من معقلك الحصين؟ فقال: فى صدرى شىء لا بد أن أصارك به لأن الناس فى هذا العالم فريقان: فريق يعيش بما يمليه عليه قلبه وفريق لا ينشد إلا النفع فحسب وهما فريقان متعارضان. ولا بد أنس بالاتحاد الذى يمليه القلب أما الاتحاد من أجل النفع بلا فائدة منه ألا ترى أن المرء يقدم لطيور الجمل مقداراً كبيراً من حبوب السمسم لا لشيء إلا للقضاء عليها؟ أتراه يفعل هذا به-را به-؟ أليس هذا الصنيع من أجل القضاء عليها قضاء مبرماً؟

الغنى ليس دليلاً على الصداقة والعزم ليس برهاناً على العداوة. والفيصل الوحيد فى هذه الحالة هو القلب سواء أكان صالحاً أم طالحاً؟ وأنا الآن بعد أن عرفت خفايا قلبك لم أعد أخشاك ومع ذلك فقد خطر لى أن صديقاً لك قد يقضى على وأنا فى غفلة من أمرى ولم أذكر منه جانب الحذر. فأجابه الغراب: إن الصديق الذى يكتسب عن طريق القضاء على صديق فاضل يجب نبذه، مثله فى ذلك مثل الوحش الذى يخفق أكوام الأرز. وما أن سمع الفأر الذهبى منه هذا حتى سارع بالخروج وتبادل الاثنان التحية بالتوقير والاحترام. وهكذا نشأت بين الفأر والغراب صداقة وثيقة لا تنفصم عراها وطيدة الصلة كالظفر واللحم وعقداً بينهما حلفاً واتخذاً نفس الأصدقاء ونفس الأعداء.

ولبثا هناك فترة من الزمن واستضاف الفأر الذهبى الغراب وقدم له الطعام ثم ودعه. وقفل راجعاً إلى حجره وانصرف الغراب بدوره إلى حال سبيله.

وطار الغراب خفيف الجناح إلى غابة وهناك رأى جاموسة برية قتلها نمر فأكل من لحمها ما طاب له حتى شبع ثم أخذ قطعة من اللحم وذهب بها رأساً إلى الفأر الذهبى ونداه قائلاً: تعال! تعال هنا أيها الصديق الذهبى وكل هذا اللحم الذى أحضرته لك بنفسى. وسارع الفأر الذهبى بدوره إلى إعداد كوم كبير من حبوب الدخن المقشورة وقدمه للغراب وقال: وكل أنت أيضاً يا صديقى هذه الحبوب التى جمعت لك خلال جولاتى.

ومع أن كلا منهما كان قد أكل من الطعام ما أشبعه فإنه تناول ما قدم له ليعبر عن حبه للآخر. ومضت الأيام وهما يقضيان وقتهما هادئين ناعمى البال تجمع بينهما صداقة نادرة قلما شاهد العالم لها مثيلاً، وكانا يتبادلان الأسئلة اللطيفة ولا يخفى أحدهما سرا عن الآخر. واتفق أن أقبل الغراب يوماً وقال للفأر الذهبى: أيها الصديق الذهبى: إنى راحل عن هذا المكان إلى-ى موضع آخر. فقال الفأر: ولم أيها الصديق؟ فأجاب الآخر: لأنى سئمت هذه الحياة؟ فقال الفأر:

الذهبي: ولم هذا السام؟ فقال: إن على أن أحصل كل يوم على ما يسد رمقى ونحـن الطيـور نعيش في فرع دائم من أن نقع في الشباك أو تحل بنا كارثة نتوقعها بين حين وآخر. ولا ذلك ضقت ذرعا بهذا الأسلوب من الحياة. فقال الفأر الذهبي: وإلى أين تعترم الذهاب؟ فأجاب: إلى موضع لا يبعد عن هنا كثيرا... إلى بحيرة كبيرة في غابة يقيم فيها صديق عزيز لى هو ذكر سلحفاة يدعى "الكسول"، وقد ظفرت بصداقته من عهد بعيد. وسوف يمدنى بالأسماك وغيرهـا من الأطعمة اللذيذة ولن أحمل للعيش هما وسوف أمضى الوقت معه فى صفاء ولا يزعجنى أحد. وعندما سمع الفأر الذهبي منه هذا قال: هلا صحبتنى معك فقد سئمت بدورى الحياة فى هذا المكان. فقال الغراب: ولم سئمت الحياة؟ فقال الفأر الذهبي: حسنا، إنها قصة طويلة. ولكن أما وقد جمعنا هذا المكان فسوف أرويها لك كاملة.

وبينما هو يتحدث النقط الغراب صديقه بمنقاره وحمله معه إلى البحيرة الكبيرة. ورأى "الكسول" من مسافة بعيدة الغراب يقترب ومعه الفأر. ولما كان شديد الحذر^٤ فقد تساءل بينه وبين نفسه عن القادمين وقفز بعيدا عن الشاطئ وغاص فى الماء ليكون فى أمان فتناثر مـن الماء رذاذ أفرع خفيف الجناح بدوره وأخذ يتسائل عن كنهه فأنزل الفأر الذهبي على الشاطئ وطار إلى أعلى شجرة كبيرة فى الغابة ليستطلع ما يجرى. وقال وهو جاثم على الشجرة: أيها الصديق الكسول تعال... تعال هنا! أنا صديقك الغراب خفيف الجناح وقد أتيت لرؤيتك بعد هذا الغياب الطويل مدفوعا بالشوق إليك وهأنذا أناديك فتعال وعانقنى. وعندما سمع الكسول ذلك وتحقق من معناه اهتز جسمه طربا واغرورقت عيناه بدموع الفرح وخرج مهرولا مـن الماء وقال: عفوا إذا كنت قد أسأت إليك ولكنى لم أعرفك فى بداية الأمر. وعـاـنق خفيف الجناح بعد أن هبط من الشجرة وبعد أن قام نحوهما بواجبات الضيافة وهو جـذل مـسرور. سأل الغراب: من أين أقبلت أيها الرفيق؟ وكيف اتفق أن تأتى مع فأر إلى غابة موحشة؟ ومن هو هذا الفأر؟ فقال الغراب: أيها الرفيق، إن هذا الفأر يدعى الـذهبي ولا يـستطيع أن يعـدد فضائله ويقدرها حق قدرها سوى رجل يتحدث بألف لسان، ألا فلتباركه الآلهة! لقد قيل: أليس من سمات ذوى المروءة أنهم يبقون على ودهم إلى ختام حياتهم؟ وأن غضبهم يزول فى لحظة وأن فعالهم الكريمة لا تشوبها الأتانية؟

وبعد أن فرغ من قوله هذا أخبره بالقصة الكاملة لإطلاق سراح المطوق وتحالفه مـع الفأر. وعندما سمع الكسول منه هذا الثناء المستطاب على فضائل الفأر الذهبي عرته الدهشة وقال للفأر الذهبي: والآن قل لى لماذا سئمت الحياة إلى هذا الحد؟ وما هو الظلم الـذى وقـع عليك ودفعك إلى أن تهجر موطنك وأصدقاءك وأقربائك وزوجتك؟

^٤ حرفيا يعرف الأوقات والأماكن المناسبة.

فقال الغراب: لقد سألته بدورى هذا السؤال بالذات من قبل ولكنه تملص من الإجابة. وقال إنها قصة طويلة وأنه سوف يرويها عندما يصل إلى هذا المكان ولكنه حذرى الآن لم يروها لى. فهيا قل لنا أيها الصديق الذهبى لماذا سمنت الحياة؟ وعندئذ روى الفأر الذهبى حكايته الأتية:

الحكاية الأولى

* الفأر والناسكان

يحكى أنه كانت فى جنوب البلاد مدينة تدعى مهيلاروبيا وفى موضع لا يبعد عنه ١٠٠ كم كثيرا صومعة يقيم فيها ناسك يدعى ذؤابة.

وقد اعتاد أن يتسول كل يوم ويعود وقدحه مفعم بالصدقات من تلك المدينة، وبه الكثير من طيبات الطعام من السكر والعسل والرمان والحلوى من اللدائن. وكان يعود إلى صومعته ويفطر بعد أن ينتهى صيامه ثم يضع ما تبقى من الطعام^{٤٥} الذى يتناوله فى وجبة الإفطار. وأر جائباً ويخفيه بعناية فى قـدح الصدقات ليقدّمه إلى من يحضرون إليه فى الصباح، ويعلق هذا القـدح على مشجب مثبت بالجدار ثم يذهب لينام.

وعندما يحل الليل كنت أفقر كل يوم وألتهم هذا الطعام وكنت أجد فيه ما يكفـىنى أنا وأتباعى. وتملك الناسك اليأس لأنه وجد أنى أظفر كل يوم بهذا الطعام وألتهمه على الرغم من حرصه على إبعاده عنى. وفى غمرة فزعـه منى ظل ينقله من مكان لآخر ويعلقه كل ليلة فى موضع أعلى من موضعه المألوف غير أنى على الرغم من هذا كله لم أجد مشقة فى الحصول عليه والتهامه. واتفق أن قدم على الناسك بعد فترة من الزمن صديق عزيز يدعى كبير الكرش^{٤٦} ونزل ضيفاً عليه. واستقبله ذؤابة بما درج عليه الناس من ترحيب بالضيف. وبعد أن قام بالشعائر الدينية الواجبة جلس فى المساء على أريكته وسأل كبير الكرش الذى كان قد أوى إلى الفراش: أى الأقاليم أو غياض التفكير ارتدتها منذ أن افترقنا يا سيدى؟ فبدأ الـضيف يروى حكايته وقال: لقد افترقت عنك فى مهرجان البدر فى شهر كارتكه، عندما كنا نغـدو فى بصره التى يؤمها الحجاج وذلك بسبب الجماهير الغفيرة. وبعد ذلك طفت به أعلى نهـر الكنج وأسفله إلى هردور والله أباد وبنراس وأماكن أخرى يحج إليها الناس. وقصارى القـول زرت العالم بأسره من البحر إلى البحر. وبينما كان يروى الحكاية ظل ذؤابة يـضرب قـدح

٤٥ كان هذا خرقاً للقاعدة المرعية لدى الناسك، إذ كان يحرم عليهم أن يقبلوا من الطعام أكثر مما يستطيعون تناوله فى الوجبة. كما كان المعتقد أنهم لا خدم لهم... وهذه الحكاية تصور الناسكين رجلين منافقين.

٤٦ حرفياً كبير الأرذاف.

الصدقات باستمرار بعضا من قصب الخيزران المشقوق ليرن القدح فيفزعنى وكان فى هــ ذا مقاطعة للضيف وهو يروى الحكاية فغضب كبير الكرش وقال: أرانى أتلف معك برواية حكايتى يا سيدى ولا تصغى إلى فلماذا تبدو فظا وقحا وكأنك ضقت ذرعا بحكايتى ويخيل إلى أنك تركز انتباهك فى شىء آخر. فارتبك ذؤابة وقال: لا تغضب يا صديقى فأنا لم أضق ذرعا بحكايتك كما خيل إليك ولكن لأفزع فأرا لا يكف أبدا عن القفز إلى أعلى والوصول إلى قـدح صدقاتى مهما علقتة على ارتفاع شاق. إنه يلتهم بقايا الصدقات فيه. وأنا لا أستطيع أن أمنعه عن هذا بأية وسيلة. ولذلك ترانى أفرع قدح الصدقات بين آن وآخر بهذه العصا المـصنوعة من قصب الخيزران المشقوق لأفزع ذلك الفأر وهذا هو السبب الوحيد. فقال الضيف: هل هذا هو الفأر الوحيد هنا أم أن هناك فئران أخرى؟ فأجاب: أنا لا أهتم بالفئران الأخـرى. إن مـا يؤرق مضجعى هو هذا المحتال الذى يخدعنى كل ليلة وكأنه ساحر. فقال الآخر:

هون عليك. إن هذه القوة لا تصدر عن فأر فحسب، ولابد أن هناك سببا آخر يستمد منه هذه القوة. وقد قيل: لأمر ما بادلت الأم شئى سمسما مقشورا بأخر غير مقـشور أىـضا. ولابد أن هناك سببا لهذا. فقال ذؤابة: وكيف كان ذلك؟ فقال:

الحكاية الثانية

* سمسـم مقشور بأخر غير مقشور

اتفق أن طلبت يوما المأوى من برهمى فى إحدى المدن قبيل حلول فصل الأمطار حتى أحصل على مسكن ثابت^{٤٧} وأقمت فى بيته، واستيقظت ذات يوم والصبح يوشـك أن يتـنفس وسمعت البرهمى وزوجته يتحادثان من وراء حجاب، وأصدـغيت إلى حـديثهما. وسـمعت البرهمى يقول: زوجتى، غدا يوم تحول القمر فهل لك أن تقومى بواجبات الـضيافة ندـو البراهمة بقدر ما فى وسعنا. فردت عليه بلهجة لا تخلو من سلاطة لـسان لاذعة: وكيف تستضيف براهمة وأنت فى فقر مدقع! وما كاد يسمع مقالتها هذه حتى أحس أنه يغوص فى بئر لا قرار لها ولم يجد ما يقوله. وسكت طويلا ثم قال: زوجتى، لا يصح أن نقولى مثل هذا القول فالفقراء يجب عليهم فى بعض الأحيان أن يتبرعوا لمن يستحقون ولو بالقليل. وقد قيل:

كن مقتصدا مدبرا أبدا ولكن لا تسرف فى الاقتصاد وإلا أصابك ما أصـاب ابـن أوى حين لقى مصرعه بالقوس لأنه أسرف فى الاقتصاد.

فقلت: وكيف كان ذلك؟ فأجاب قائلا:

^{٤٧} أثناء سقوط الأمطار عندما يكون التجوال غير مألوف.

الحكاية الثالثة

* ابن أوى الجشع

يحكى أن صيادا كان يعيش على ما يصيده من لحوم الوحوش واسد-تيقظ صد-باح ي-وم مبكرا وثبت فى قوسه سهما وانطلق إلى الغابة ليصطاد. وسرعان ما صرع غ-زالا وحم-ل لحمه وقفل راجعا إلى بيته وبينما هو يهبط شاطنا شديدا الانحدار إلى مخاضة-ة رأى خنزير-را برىا فى حجم الجاموس، له ناب مشرع وجسده ملطخ بكتل من الطين. ففرع لمرأه وت-وجس منه شرا واستدار يريد الفرار فوجد أن الخنزير البرى يسد عليه الطريق، فما كان منه إلا أن ألقي على الأرض بلحم الغزال ملفوفا فى حزمة وشد قوسه وأطلق سهما مسموما اخترق عنق الخنزير وخرج من الجانب الآخر. وعلى الرغم من إصابة الخنزير البرى بجرح قاتل فإذ-ه تحامل على نفسه وقام بهجمة وحشية استجمع فيها قواه للمرة الأخيرة وأصاب ال-صياد فى إحشائه إصابة جسيمة أسلم على أثرها الروح وسقط على الأرض صريعا يتخبط فى دمه وقد تمزق جسده إلى ثلاثة أشلاء. وبعد أن صرع الخنزير البرى الصياد تأثر من جرح-ه القاتل-وسرى فيه السم ومات هو الآخر. وأقبل إلى ذلك المكان بعد برهة ابن أوى ي-دعى الع-واء، وكان يتضور جوعا، ويضرب على غير هدى بحثا عن الطع-ام، ف-رأى الغ-زال وال-صياد والخنزير البرى صرعى فتملكه الفرح وقال فى نفسه: ما أرحم القدر بى! لقد منحنى كل ه-ذا الطعام الوفير الذى لم أكن أتوقعه بحال من الأحوال. والرأى عندى أن ألتهمه ع-ى دفع-ات حتى يكفينى وقتا طويلا. لما كان الطعام والشراب لا يتيسران دائما للأحياء فعلى من يد-صل منهما على مؤونة وفيرة أن يأكل منه شيئا فشيئا.

ولذلك أرى أن أضع أولا لحم الغزال والخنزير البرى والصياد جانبا وأكل هذا ال-وتر المشدود على القوس. وما أن استقر على هذا الرأى حتى بادر إلى وتر القوس وتناوله بفم-ه وشرع فى التهامه. وهذا شد الوتر فنفذ السهم من حلقه^{٤٨} ولقى مصرعه.

[نهاية الحكاية ٣]

ولهذا أقول: كن مقتصدا مدبرا أبدا ولكن لا تسرف فى الاقتصاد وإلا أصابك ما أصاب ابن أوى حين لقى مصرعه بالقوس لأنه أسرف فى الاقتصاد. وعندما سمعت زوجة البرهمى منه هذا الكلام قالت: حسنا، إن لدى قدرا من السمسم وقليل من الأرز فه-ل لك أن تبك-ر بالنهوض وتذهب إلى الغابة وتحضر بعض الحطب وحشائش الكوشا وغيرهما مما نحتاج إليه

^{٤٨} حرفيا سقف الفم وفى بعض النسخ فم وعنق وصدر وقلب.

وسوف نعد أنا وتلميذك كامندكى هذا ثريدا يكفى ثلاثة من البراهمة. وفى الـصباح قـشرت السمسم ونشرته فى ضوء الشمس وعهدت به لكامندكى وطلبت منه أن يحرسه، وبينما هـى مشغولة فى الدار غفل كامندكى عن السمسم وأقبل أحد الكلاب فولغ فيه ودنسه^٩ ولما رأت ما حدث استأعت وقالت: يا كامندكى، هذا أمر يوسف له وسوف يحول بيننا وبـين استـضافة البراهمة. ولكن على أية حال اذهب وبادل السمسم المقشور بسمسم أسود، وعد سريعا لكـى أطفى ثريدا أسود بدلا منه. وعمل كامندكى بما قالت وأقبل إلى ذلك البيت الذى دخلته ليوـسأل أصحابه صدقة وحاول أن يستبدل به سمسما وقال: خذوا هذا السمسم. وفى أثناء عقـد هـذه الصفقة أقبل رب البيت وقال: وما هى شروطك لبيع هذا السمسم؟ فقالت لـه زوجة هـ: لقد حصلت على هذا السمسم الأبيض مقابل مقدار مماثل من السمسم الأسود. فابتسم وقال: لأمر ما بادلت الأم شفضلى سمسما مقشورا بأخر غير مقشور.

[نهاية الحكاية ٢]

وعندما روى الناسك هذه الحكاية قال: يا ذؤابة أرى فى هذه الحالة أنه لابد أن هـذاك سببا يمد هذا الفأر بقوة لا تقاوم تتيج له أن يلتهم الصدقات. فهل لديك فأس؟

فقال: لى ولا شك ها هى الفأس كلها من الحديد المتين ولها يـد مـصقولة. ومـا أن أحضرت له الفأس حتى شمر ثوبه إلى وسطه وزم شفتيه وقال: من أين يأتى الفأر؟ وعذـما أخبر بالموضع الذى يقبل منه شرع فى الحفر بالفأس. وسمعت فى البداية ما دار بينهما مـن حديث ولما كنت متلهفا على معرفة ما يقولان فقد توقعت وأرهفت أذنى لأسمع وتخلّيت عـن كل تفكيرى فى الطعام. وعندما شرع الرجل فى البحث عن معقلى الحصين أدركت ما يرـيد وقلت لنفسى: لقد اكتشف هذا الشرير المدخل إلى جحرى. وكنت أملك بعض الذهب، وكان قد وضعه هناك أحد المراهبين منذ أمد طويل. وكنت استمد من هذا الذهب قوة تعيننى على القفـز والوصول إلى الطعام. بيد أن هذا الشرير تتبع الطريق إلى جحرى فعثر على المـال وأخذ هـه وقفل راجعا إلى الصومعة وقال لذؤابة: إليك أيها البراهمى، الذهب الذى كان يمنح هذا الفـأر قوة^{١٠} لا تقاوم وتتيج له أن يقفز إلى أعلى ويبلغ مكانا يتجاوز طاقة إقباله. وتقاسـم الـرجلان الذهب وجلسا بنعمان بالطمانينة.

وعندما حلت بى هذه الكارثة قلت لنفسى: لو أشعلا مصباحا وكشفا عن موضعى فسوف يقبضان على ويقتلانى لا محالة. وغادرت ذلك المكان واتخذت لى معقلا فى موضـع آخر. وأقبلت الفئران الأخرى من أتباعى وقالت لى أيها السيد الذهبى نحن عشيرتك نتضور جوعـا.

^٩ دنس السمسم لأن الكلب ولغ فيه وهو حيوان نجس.

^{١٠} وفى رواية أخرى "كان يقوى قلبه" والحكاية كلها تتدد بأثر الثروة التى لا تستخدم على نفسية صاحبها.

وليس لدينا لقمة واحدة نتبّلغ بها فهلا تفضلت علينا بشيء نأكله اليوم بالذات. فأذعنت وانطلقت مع الفئران إلى الصومعة وسمع ذؤابة الضجة التي أثارها قدوم أتباعي وبدوهم على رعيهم. دح الصدقات من جديد بالعصا المصنوعة من قصب الخيزران المشقوق فقال له صديقه: لقد انتهى أمر هذا الفأر فلماذا أراك تفرج عصاك بين الحين والحين وأنت تعرف هذه الحقيقة؟ فكف عن هذا بربك!

فقال الناسك: أيها الصديق إنني أعرف أن هذا الفأر عدوى لن يكف عن الحضور المرة تلو المرة. وأنا إنما أفعل هذا خوفا منه.

فابتسم الضيف وقال: أيها الصديق لا تشغل بالك فإن قوته على القفز إلى أعلى أعلى من قدرتي. تلاشت بضيايح ذهبه. وهذه القاعدة مع الأحياء جميعا.

ولما سمعت منه هذا الكلام استشاط غضبا وقفزت إلى أعلى بكل قوتي في اتجاه رعيهم. دح الصدقات، ولكنني فشلت في الوصول إليه وسقطت على الأرض. وعندما رآني عدوى ضحك وقال لذؤابة:

انظر يا صديقي، انظر ها هو ذا عدو لا حول له ولا طول. إنه منظر يستحق المشاهدة، وقد قيل:

بالثروة يصبح كل إنسان قويا وبها يصبح متعلما، ألا ترى ما آل إليه حال هؤلاء الفئران الشرير؟ لقد أصبح مثل أقرانه مرة أخرى. ولهذا نم مستريحا خالي البال فإن ما كان يدب ستمد منه القوة على القفز إلى أعلى قد انتقل إلى أيدينا وحدنا. وعندما سمعت منه هذا فكرت لنفسى: إن ما قاله هو عين الحقيقة. لقد تضاعفت قوتي الآن وتبددت شجاعتي وهانذا لا أسد تطيع أن أقفز إلى أعلى قيد أنملة للحصول على طعامي.

وسمعت أتباعي يتمتمون ويقولون لبعضهم: هيا بنا. لنرحل فهذا الرفيق لا يستطيع حتى أن يقوم بأود نفسه فما بالك بغيره وأى فائدة نرجوها من خدمته؟ وقلت راجعا إلى مساكني وأنا أفكر وأقول لنفسى: لقد ذهبت قوتي إلى غير رجعة وهيئات أن تعود!

وفى الصباح اتجه كل واحد من الفئران إلى خصومي وهو يقول: إن ذلك الرفيق فقير. لا يستحق الخدمة!

هكذا كان سلوك أتباعي ولم يكلف واحد منهم نفسه عناء الحضور للسؤال عنى وكلمة. تطلعت حولي وجدت هؤلاء الأتباع يلهون مع خصومي وهم يروننى بأعينهم ويصيحون فى جذل وابتهاج ويتنادون وهم يصفقون بأيديهم وفكرت وقلت لنفسى: هذه سنة الحياة! لا أصدقاء لمن لا يملك مالا بل، ولا أقرباء إلا لمن يملك مالا، ولا يستطيع امرؤ فى هذا العالم أن يكون له شأن إلا إذا كان يملك مالا ولا بد أن يكون العالم ذا مال. وقيل أيضا:

العاطل عن الثروة قليل الحظ من الذكاء، يخفق فيما يضطلع به من عمل مثله في ذلك مثل الجداول الصغيرة في الصيف.

عندما يجرد الإنسان من ماله يهجره أصدقاؤه ويتخلى عنه أولاده وزوجته وإخوته. وإذا عاد إليه ماله عادوا إليه جميعا لأن المال هو أقرب الأقرباء للإنسان في هذا العالم. خواء بيت رجل بلا ولد... خواء قلب رجل بلا صديق... خواء جميع الأحياء عند البلهاء... خواء كل شيء عند الفقراء.

يا له من أمر غريب... المرء هو هو لم يتغير فيه شيء... ملكاته على حاله... لم تتعطل... واسمه كما هو لم يتغير، وعقله سليم لم تمسه جثة وصوته هو لم يتبدل... الرجل نفسه ومع ذلك فإنه يصبح شخصا آخر، فجأة عندما يزول عنه بهاء الثروة.

وإن ما يجدر بي أن أفعل في هذا المأزق؟ وما دامت ثمرات ماضى قد تبددت هكذا وفقدت مالى كله أرى ألا أبقي في هذا المكان لحظة واحدة بعد ذلك. وقد قيل: على المرء أن يقيم حيث يلقي الاحترام وألا يتشبث بالبقاء في مكان لا يحترم فيه وعليه أن يعرض عن قصر في السماء^١ ينعم فيه بصحبة الآلهة إذا لم يجد فيه الاحترام. ولكنى بعد أن قلت ذلك فكرت وقلت لنفسي:

هل أطلب من أحد صدقة؟ كلا إن هذا أسوأ فمعاذ الله أن أعيش متسولا لأن:

الشجرة المعوجة التي تنبت في أرض مالحة وتتخر فيها الديدان سرعان ما تجردها من لحائها نار تشب في الغابة بل إن وجودها أفضل من وجود المتسول. ألا ترى أنه يتلعثم وتخرج الكلمات من حلقه بصعوبة ويتصبب العرق على وجهه؟ أوليس الشحوب الذي يكسو وجه المتسول والرعدة التي تتأبى هي بعينها الأعراض التي تبدو على وجه إنسان يحتضر. والعقل يرى أن التسول باب الشقاء وخدر العقل ومنبت الوسواس وأنه مرادف للموت وقرين للبؤس ومستودع للمخاوف وأنه التفاهة مجسدة والكوارث مستوطنة وأنه مجرد المعتز من كرامته وأرى أن عذاب جهنم أهون شأنا من هذا المصير. وقيل أيضا:

المرء بلا ثروة غبي خجول فاقد للكرامة. وهو بلا كرامة عرضة للظلم، والظلم يدفعه إلى هوة اليأس، وعندما يستبد به اليأس يصبح فريسة للألم، وعندما يسلم نفسه للألم يذهب عقله، وعندما يذهب عقله ينتهي به الأمر إلى الخراب. أفلا ترى أن الفقر أس البلاء؟ وقيل أيضا:

^١ فيماته وهي كلمة فيها تورية معناها يعود الاحترام.

أن يدفع المرء بكلتا يديه بين فكي ثعبان هائج وأن يتجرع السم ويذهب ليرقد في القبر. وأن يلقى بنفسه من قمة جبل شامخ ويتمزق إربا إلى مائة شلو خير له من أن يـ. نعم بالراحـة بفضل مال يتسوله من أخصاء، وأن يقدم المرء الذى فقد سبل العيش جسده طعاما للنار خير له من أن يسأل خسيسا غليظ القلب. والآن كيف أبقي على حياتي وقد ساءت معي الأمور إلىـى هذا الحد؟ ربما استطعت أن أقيم أودى بالسرقة، وهذا فى نظري يجعلنى أسوأ حالا لأن معناه أن أستولى على مال الغير. فقد قيل:

أن يلوذ المرء بالصمت خير له من أن يتفوه بكلمة زائفة، وأن يستخصى خير له من أن يحظى بزوجة غيره وأن يجود بأنفاسه خير له من أن يبتهج بنهش الأعراض، وأن يعيش على صدقات الأصدقاء خير له من أن ينعم بأموال سلبت من الغير. وإذن فهل قدر لى أن أعـيش بما يتصدق به على الغير؛ إن هذا لأمر فظيع وهو فى رأيى الباب الثانى الـذى يـ. ودى إلىـى الموت لأن:

الحياة والموت يستويان لدى المريض، ومن يعيش طويلا فى المنفى ومن يأكل خبـز غيره ومن ينام فى بيت آخر، فى الموت راحة لهؤلاء جميعا. والرأى عندى أن أسترد ذلك المال الذى سلبه كبير الكرش. وقد رأيت أن هذين الناسكين قد وضعوا كيس المال تحت هـ. ذه الوسادة. وسوف أعيد هذه الثروة إلى جحرى الحصين وإذ ذاك أتمتع مرة أخرى بالسيادة كما كنت من قبل بفضل قوة المال العجيبة.

وبهذا العزم ذهبت إلى هناك ليلا وبينما كان الناسك يغط فى نوم عميق تسللت إلى أعلى وتعبت الكيس وإذا بالناسك يستيقظ ويبادرني بضربة على أم رأسى بعصاه المـ. صنوعة مـ. ن قصب الخيزران المشقوق. وتحاملت على نفسى وتحركت بما بقى فى من رفق أطلب الفـ. رار واستطعت أن أعود إلى جحرى وأنا لا أزال على قيد الحياة. ومضى وقت طويل تماكنت فيهـ. ه قواى فانتعشت آمالى واستجمعت شجاعتي وزحفت حتى اقتربت من الدنانير بيد أنه تنبه إلىـى وبادرني بضربة شديدة لا رحمة فيها على رأسى بهراوته. ولأزلت حتى اليوم أرتجف فرقاـ. ا عند رؤية هؤلاء القوم ولو فى الأحلام. انظر إلى هذا الجرح الذى لا يزال أثره واضحا فىـى رأسى... لقد أصبت به فى ذلك العهد!

وقد قيل: عندما تلم بالمرء داهية دهياء ويبادر إلى المخاطرة بحياته، فإنه فى مواجهة هذا الخطر الداهم لا يكثرث بالأموال البغيضة المحفوفة بالمخاطر ولا يتمنى إلا الحفاظ علىـى حياته. ولكنه ما أن ينجو بنفسه من براثن الخطر حتى يندفع مرة أخرى للحصول على هـ. ذه الأموال لتحل به كارثة جديدة. والناس فى غمار حرصهم على الحياة ولهفتهم على الثـ. روة لا يترددون فى المجازفة بإحداهما فى سبيل الأخرى.

وقررت بعد تفكير عميق أن أنصرف عن هذه الثروة التي كانت لى فى يوم من الأيام وكففت عن السعى الحثيث إليها وفى هذا قيل:

إن عضو البصر حقاً هو المعرفة لا العين، والنبل حقاً هو الاستقامة لا الانحدار - من أسرة نبيلة. والفلاح حقاً هو القناعة، والحكمة بحق هى الانصراف عما لا يمكن عمله. وإن الحظ كله للفقير. ألا ترى أن الأرض بأسرها تكون مكسوة بالجلد لمن ينتعل فى قدميه حذاء؟ ألا ترى أن الرضا الذى يحس به الخليون الذين ارتشفوا كأس القناعة - حتى الثمالة أعظم من أن يصل إليه أولئك الذين يندفعون هنا وهناك وهم يسعون سعياً حثيثاً وراء الذهب؟

إن مائة فرسخ ليست بعيدة على من تدفعه شهوة المال والجاه، والرجل القانع لا يسعى وراء المال ويكتفى بما بين يديه.

وإذا استحال على المرء الحصول على الثروة بأية وسيلة فإن خير سبيل ينتهجه - هو الذى يمليه عليه سداد رأى. وقد قيل: سئل حكيم ما هو الدين؟ فقال - هو الرحمة بالأحياء - كافة. وسئل ما هى السعادة بالنسبة للناس فى هذا العالم؟ فقال الصحبة. وسئل: وما هى المودة؟ فقال: الرفق فى المعاملة. وسئل: ما هى الحكمة؟ فقال: هى سداد رأى.

وبهذا الأسلوب من التفكير جنت إلى غابة موحشة وهناك رأيت المطوق أسيراً يتخذ - بط فى الشباك فأطلقت سراحه، كما سمعت، بفضل مأثرى التى أحرزتها عن اسد - تحقاق فى - أثرنى خفيف الجناح بوده وصادقته. ثم أقبل على خفيف الجناح وطلب منى الحضور إلى هنا فجذبت معه لزيارتك. وهذا هو السبب الذى جعلنى أسام الحياة، يضاف إلى هذا كله أن ما فى الكون بأسره ولو ضوعفت ثلاث مرات، من الغزلان والشعابين والنباتات والآلهة والشياطين والذئب - ينناولون غذاءهم قبل منتصف النهار.

والإنسان سوا أكان فاتحاً للأرض بأسرها أم كان فى الدرك الأسفل من الوجود لابد أن يأكل ليعيش... لابد أن يتناول حفنة من الأرز. وقل لى بربك أى رجل حصيف يقيم بعمى - قبيح للحفاظ على (جسده أو روحه) إذا كانت حصيلته هى الشر المستطير، كأن يستهدف غاية وضیعة، ويؤدى فى نهاية الأمر إلى لا شىء؟

[نهاية الحكاية الأولى]

وعندما سمع "الكسول" منه هذا قال له مواسياً: لا تنزعج أيها الصديق لأنك فارقت أهلك وبلدك. ولا تشغلن بالك بهذا الأمر وأنت العاقل الرشيد وقيل فضلاً عن هذا:

قد يقرأ الناس مصنفات العلوم ويدرسونها ومع ذلك يظلون أغبياء والعاقِل حقاً هو مَن يعمل بما تعلمه. ألا ترى أنه لا يكفي أن يعلم المريض باسم الدواء الناجع لكـى يـشفى مـن مرضه وتعود إليه عافيتُه؟ إذا كان المرء يخشى نتائج الحزم فلا جدوى على الإطـلاق مـن اكتساب المعرفة. فقد يحمل الكفيف على راحة يده مصباحاً ولكن هل يجديه ذلك فى شيء؟ إن المرء لا يأمن لمعروف الأيام، فقد يتسول من كانوا يجودون بالصدقات ويقتل من كانوا يقتلون غيرهم ويعذب من كانوا يعذبون الآخرين.

والرأى عندي أيها الصديق أن تعيش فى هذه الضيعة التى تفر فيها النفوس. يضاف إلى هذا كله أنه لا حاجة بك إلى الاستسلام لهذه الأفكار فقد قيل: على العاقل أن يعرف حـق المعرفة أنه لا وزن للأسنان والشعر والأظافر إذا اقتلعت من مواضعها الأصلية، ولا يهجر موطنه وهذا هو ما درج عليه الأخساء أما النبلاء فلا فرق عندهم بين أرض الـوطن وبـين أرض أجنبية لأنه:

أى أرض يمكن أن يطلق عليها أرض الوطن أو أرض أجنبية عند رجل حازم عاقل؟ فأيا كانت الأرض فإنه يستطيع أن يقيم فيها بل ويستطيع أن يجعلها ملكاً له بقوة ساعده. وأياً كانت الغابة فإن الأسد يستطيع أن يخترقها بضربات قوية من أنيابه ومخالبه وذيله، بـل إنـه هناك يروى ظمأه بدم الفيلة النبيلة التى يصرعها.

والرأى عندي أيها الصديق أن تعمل بلا كلل ولا ملل وأن تعرف أن الثروة والمتعة لا تفارقان المجتهد أبداً. وقيل أيضاً:

إن الأعوان يقبلون على المجتهد والأموال تسعى إليه. ألا ترى أن الضفادع تأتى إلى البركة وأن طيور الماء تخف إلى البحيرة الممتلئة؟

إن ربة الحظ تسعى إلى كل رجل ناشط متأهب للعمل ماهر فى أدائه، خلو من الرذائل جريء، شاكراً للنعمة، متشبع بالصدقة... إليه وحده تسعى وتلازمه.

وربة الحظ ترفض أن تحتضن كل رجل مذبذب متقاعس عن العمل مسدداً للقدرة، عاطل عن الشجاعة، مجرد من الرجولة مثلها فى ذلك مثل امرأة فاتنة لا تقبل أن تحتضن زوجها العجوز.

الرجل الكفاء الذى يعمل بنشاط يستطيع أن يحصل على الثراء فى هذا العالم ولو كان غيباً. والرجل الذى يعوزه النشاط لا يلقى أى احترام ولو كان له عقل راجح مثـل عقـل برهسباتى^٢ وأنت يا سيدى، وإن كنت قد فقدت ثروتك فإنك وهبت بصيرة نافذة وقوة وإقداماً،

^٢ معلم الآلهة ورب الحكمة.

ومن ثم لا وجه، والحالة هذه، للمقارنة بينك وبين غيرك من الأحاد العاديين. فكيف تـ سام الحياة؟

إن الحازم ينال مكانة رفيعة يحظى فيها بالشرف والامتياز ولو كان عاطلا عن الثروة. والضعيف يهوى إلى درك يلقى فيه الاحتقار والهوان ولو أحاطت به الثروة من كل جانب. ألا ترى أن الكلب لا يتمتع بهيبة الأسد ولو أحيط عنقه بطوق من الذهب. فالحزم موهبة فطرية. تزداد باكتساب كثير من السجايا النبيلة.

إن البحر المحيط في نظر من يتحلى بالإقدام والعزم، ولا يفتر إلى الجلد والقوة، ليس إلا بطيحة صغيرة أسنة، والهيملايا ملك الجبال، في نظره، ليس إلا قمة تل من تلال النمل... وإلى هذا الرجل تأتي ربة الحظ طائعة مختارة ولا تأتي قط إلى ضعيف القلب خائر العزيمة.

إن أولئك الذين يتحلون بالحزم والعزم يرون أن قمة ميرو ليست شامخة جدا وأن جهنم ليست عميقة جدا وأن المحيط الواسع ليس بحرا مترامى الأطراف.

لم تتهلل لأن لديك ثروة ولماذا تبتئس لفقدها؟ إن مثل تقلبات الأيام على الناس كمثل كرة من المطاط تضرب باليد.

والشباب والثروة يتبددان سريعا كالفقاع في الماء لأن:

الناس لا يتمتعون بالشباب والثروة إلا لأمد قصير مثلهما في ذلك مثل ظلال الغمامة وصداقة المحتال والحنطة الصغيرة والعذارى.

وفي وسعك أيها الصديق الذهبي أن تدرك هذا فلا تحزن ولا تبتئس ولو سـ لبت مذـك ثروتك.

وقد قيل: ما قدر لا بد أن يكون، وما لم يقدر لن يكون، وهذه الحكمة هي الترياق الـ ذى يفسد مفعول سم الهموم، فلم لا تتجرعه؟ أقم هنا أيها الصديق وأنت خالي البـ ال ولا تحملـ ل لعيشتك هما. واعلم أن: من خلق طيور البجع بيضا والبيغاوات صفرا والطـ و اويس متعـ دة الألوان سوف يرزقك بما يقيم أودك.

على المرء ألا يحزن قط لضياح ثروته وترديه في محنة... وعليه ألا يطلـ ق العذـ ان للفرح عندما يصادفه حظ سعيد لأن الناس يحصدون لا محالة ثمرات فعالهم الماضية، حـ سنة كانت أم سينة: على كل ذى قلب طاهر أن يؤدي كل يوم عملا واحدا على الأقل من الأعمال الصالحة: وليكن صلاة أو وفاء بنذر أو صياما لأن الموت يحصد كل يوم أرواح المخلوقـ ات مهما حاولت النجاة منه.

لا كنز أثمن من البر، وأى سعادة تعدل القناعة؟ وأى حيلة أجمل من الخلق الكريم؟
وليس هناك على وجه الأرض ما يعدل الصحة. وقصارى القول اعتبر أن هذه الدار ملك لك،
واستبشر ولا تخش شيئا واقض معى وقتك فى مودة ومحبة. وعندما سمع خفيـف الجذاح
كلمات "الكسول" التى تـزخر بجوهر الحكمة أشـرق وجهه بنور الرضا وقال: أيها "الكسول" إنك
لتتحلى حقا بسجايا الزعيم الذى يعتمد عليه الاتباع وقد فاض قلبى بالرضا الكامل لهذه الحماية
التي أسبغتها على الفأر الذهبى. وأى عجب فى هذا؟ لقد قيل:

عندما يلتقى الأصدقاء الأعزاء بأصدقاء أعزاء ويتبادلون مشاعر الفرح والسرور فإنهم
يرتشفون رحيق السعادة، وهؤلاء هم الذين ينعمون بالعيش حقا وهم النبلاء حقا.

والذين لا هم لهم إلا الاستمتاع بحياتهم والذين تفتتهم الشهوات عن تحقيق غاياتهم فإنهم
على الرغم من سمو مكانتهم فقراء حقا، لأن جهودهم تضيع هباء، ولأنهم قدموا لأصدقائهم ما
يتحلون به.

لا يفرج كرب النبلاء غير النبلاء، ألا ترى أن الفيلة وحدها هى التى تستطيع أن تنهض
بمهمة إنقاذ الفيلة التى تغوص فى مستنقع؟

أسبغ الحماية دائما على الضعيف ولو خاطرت بحياتك. واعلم أن الماجدين يرون أنه لا
ثواب يرجى من الحياة الدنيا إلا بعمل الخير للآخرين. إن من يستحق الثناء بين جميع الناس
على وجه الأرض هو من لا يرد السائل أو ابن السبيل، وهو وحده الذى يـؤدى الواجب
المفروض على الأبرار.

وبينما هم يتحادثون أقبل إلى البركة الواسعة غزال يدعى المرقش، وكان يعدو فزعا من
الصيادين ووصل إليهم وقد نال منه العطش. وعندما رآوه قادما هلعت قلوبهم وتفرقوا يجرون
مبتعدين. وهرع الغزال إلى الماء وهو يلهث من العطش. وسمع الكسول صوت رشاش الماء
فانطلق بسرعة ونزل من الشاطئ وغاص فى الماء. وفزع الفأر الذهبى وهرع يختبئ فى
جحر بجذع شجرة. أما خفيف الجناح فقد طار وصعد إلى أعلى ليتبين كنه ما يحدث وهبط
فوق شجرة سامقة. بيد أن المرقش وقف ساكنا على حافة البركة يتلفت حوله خوفا على حياته
وحلق خفيف الجناح عاليا فى الفضاء وتطلع حواليه إلى الأرض فلم يبصر ما يريب على بعد
فرسخ، وعندئذ هبط على الشجرة مرة أخرى وقال للكسول: عد، عد، لا خطر عليك من أية
ناحية. لقد تطلعت حولى فلم أجد أحدا سوى غزال من أكلة الحشائش أقبل إلى البركة ليدروى
ظماه.

وعندما سمع "الكسول" الحريص هذه الكلمات اطمأن وخرج مرة أخرى وعاد ثلاثاً. تهم، بعد أن اطمأنوا، إلى الموضع نفسه ثم قال "الكسول" مرحباً بالغزال: اشد - رب أيها - ا - صديق وابترد في الماء ثم عد إلينا عندما تنتعش وأنت منشرح الصدر.

ولما سمع المرقش هذه الكلمات قال لنفسه: لا خطر على مطلقاً من هذه المخلوقات، لأن ذكر السلحفاة، كما يعرف كل إنسان، لا يستطيع أن يفعل شيئاً خارج الماء، والفار والغراب لا يأكلان سوى لحم الموتى ولحم الكائنات ذات الأجساد الضئيلة. والرأى عندي أن أذهب إليهم. وما أن انتهى إلى هذا الرأى حتى انضم إليهم وقال "الكسول" للمرقش بعد أن رحب به وحي - اه التحية الواجبة: ألا فليحالفك الحظ يا سيدى. ولكن هلا تفضلت وقلت لنا كيف أتيت إلى هـ - ذا المكان الخفى من الغابة؟ فرد عليه قانلاً:

لقد ضقت ذرعاً بحياة التجوال المحزنة التى كنت أعيشها وطاردنى الفرسان والصيادون والكلاب وحاولوا أن يسدوا على السبل والمسالك ففزعت وعدوت بأقصى ما أسد - تطيع م - ن سرعة وسبقتهم جميعاً وجئت إلى هنا أبحث عن جرعة ماء وأود الآن أن تتوثق بينى وبين - نكم الصداقة.

وعندما سمع الكسول منه هذا قال له: لا تخف أيها الصديق واعتبر أن الدار دارك وأقم هنا منشرح الصدر وثق أنك لن تتعرض لأى مضايقة.

ومذ ذاك قضى الجميع وقتهم يتبادلون الأحاديث الودية. وكانوا بعد أن يتناولوا م - ا - ل - ذ وطاب من الطعام والشراب يجتمعون عند ظهر كل يوم فى ظل ش - جرة كبيرة، وي - شغلون أنفسهم بمناقشة موضوعات علمية مختلفة. وذات يوم تخلف المرقش عن الوصول فى الساعة المعتادة. وعندما افتقدوه انشغلت قلوبهم وتوجسوا شراً، وخشوا أن يكون قد حاق به مك - روه وخالجهم الشك فى أن حادثاً قد وقع له ولم يشعروا بالارتياح. وقال الكسول لخفيف الجذ - اح: إنك خير من يصلح لهذه المهمة فقد خلقت لها. فهلا طرت وكشفت لنا ما حدث للمرقش.

وما أن سمع خفيف الجناح هذه الكلمات حتى طار. وقبل أن يذهب بعيداً رأى الم - رقش فى موضع يؤدى إلى الماء وهو مقيد بوثق جلدى متين مشدود إلى عمود. فأقبل عليه وقال له فى حزن: أيها الصديق، كيف وقعت فى هذا الشرك؟

فقال المرقش: ليس هذا وقت اللوم أيها الصديق، وأنت ترى أننى مهدد فى أى لحظة - ة بالموت، فهيا ولا تتوان طرفة عين. وإنى أعلم أنك كفاء يا سيدى ولكنك لا تعرف كيف تقطع الأحبال فبربك انطلق بسرعة واحضر الفار الذهبى لأنه يعرف كيف يقطع وثاقى هذا بسهولة. فقال خفيف الجناح: سمعاً وطاعة. وعاد إلى صديقيه الكسول وال - ذهيبى وأخبرهم - ا - بوق - وع المرقش فى الأسر، وحث الفار الذهبى على فك وثاق المرقش وسارع بحمل الذهبى معه إلى -

هناك ولما رأى الذهبى، الغزال المرقش فى هذه الحالة اغتم غما شديدا وقال له: أيها الرفيق، كيف وقعت فى هذا الشرك وأنت الحكيم؟ فقال له: أيها الرفيق لماذا توجه إلى هـ-ذا الـسؤال؟ أنت تعرف أن القدر أقوى من كل شيء وقد قيل: ماذا يستطيع رجل يتحلى بحكمة بـ-أهرة أن يعمل فى وجه ذلك الخضم المهول من المحن والموت والقدر؟ ومـن ذا يـ-ستطيع أن يـ-صد المحنة التى تحل بكل إنسان قبل أن يراها سواء أكان ذلك فى الليل أم فى وضح النهار وقبـل أيضا:

إن عقول الحكماء لتنتنى (كأطراف المصابين بالكساح) عندما يقعون فى حبال المـوت وعندما يهزأ القدر بحكمتهم.

وما دمت أيها الصديق النبيل تعرف حيل القدر فهلا بادرت إلى تقطيع هذا الوثاق قبـل أن يعود الصياد غليظ القلب.

وما أن وجه إلى الذهبى هذا الخطاب حتى قال: لا تخف يا صديقى. فما دمت بجانبـك فلا خطر عليك من الصياد. ولكنى تواق لأن أعرف كيف وقعت فى هذا الشرك وأنت كعهدي بك حذر متيقظ دائما؟

فقال الغزال: إذا كنت مصرا على أن تعرف فاسمع كيف حدث هذا. وأصارك القـول بآنى سبق أن دقت مرارة الأسر وها هى ذى الأقدار تأبى إلا أن أقع أسيرا مرة أخرى.

فقال الآخر: حسن. أنبننى كيف تعرضت للأسر قبل ذلك؟

فقال المرقش:

الحكاية الرابعة

* أسر الغزال لأول مرة

كنت أعدو أمام القطيع بأسره، وأنا لا أزال صغيرا لم أتجاوز بعد الشهر السادس مـن عمري، وكنت أسير أمامه على مسافة كبيرة وكان فى وسعى أن أعمل حارسا للقطيع. وكـأن لنا نحن معاشر الغزلان منهجان فى السير: القفز إلى أعلى والعدو رأسا ولكن دون الوثب إلى أعلى. وبينما كنت يوما أعدو انقطعت الصلة بينى وبين القطيع وغاب عن ناظرى فـ-ارتجف قلبى رعبا وحملت حوالى فى كل اتجاه لأرى أين ذهب القطيع وأبصرته آخر الأمـر يـ-سير أمامى على مبعدة. وكانت الغزلان تسير وهى تقفز إلى أعلى وبهذا استطاعت أن تثب جميعا فوق شرك منصوب وانطلقت تسير قدما، ولبثت تبحث عني. وعندما أبصرتها اندفعت نحوها وأنا أسير بطريقة العدو رأسا، فوقعت فى الشباك وهكذا أسرنى الصياد. وعندما عاد قـدمنى إلى ابن الملك لكى يلهو معى. وما كاد ابن الملك يرانى حتى سر سـرورا عظيمـا وأجـزل

للصيد العطاء. ودللنى الأمير ورعائى رعاية عظيمة وقدم إلى كل ما انتهى من لذيذ الطعام إلى جانب أسباب الرعاية الأخرى مثل تدليك جسدى بالآدھنة وغسله وتضميده بالعطور وترطيبه بالمراهم. وكان حريم الملك وسائر الأمراء يجدون فى مدينتى سلية ولهوا ويدورون بى من شخص إلى آخر ولكم ضايقونى بجذبى من عنقى وعيذى ويدي وقدمى وأذنى وما إلى هذا بسبيل. وفى ذات يوم من الأيام فى فصل الأمطار، وبينما أنا جاثم تحت فراش الأمير تحركت فى قلبى لواعج الشوق للقطيع عندما سمعت هزيم الرعد وهو ينطلق من بين السحب، وشهدت البرق يخطف الأبصار فعدت بأفكارى إلى أخواتى وقلت لنفسى:

متى يتاح لى أن أسير وراء قطيع الغزلان وهى تعدو (هنا وهناك) يدفعها الريح والمطر؟ فدهش الأمير، وكان وحيدا لا يؤنسہ أحد سواى وقال لنفسه: هأنذا أجلس وحدى فمن ذا الذى نطق بهذه الكلمات؟ وخفق قلبه بشدة وتطلع حوله فى كل اتجاه فلم يقدح بصره إلا على. وعندما رأتى قال فى نفسه: عجباً! إن من قال هذا ليس بشرا سويا. إنه غزال. وهذا فى رأيى نذير بالشر. وأعتقد أنى هالك لا محالة. وملك عليه هذا الأمر تفكيره واهتاج احتياجه. عظيما وتلعثم فى كلامه وجرى وهو يتعثّر حتى خرج من البيت. وسقط صريع مرض خطير وبدا كما لو تقمصه شيطان مريد. وفى الصباح ارتفعت درجة حرارته وعرض نفسه على الأطباء والسحرة جميعا وأثار فيهم كوامن الجشع إذ وعدهم بالمال الوفير وقال: من يقدر منكم على شفائى من مرضى هذا سوف أجزل له العطاء. وكنت فى ذلك الوقت أتعرض للضرب بالعصى والهرافات والقذف بالحجارة من جمهور قليل الإدراك لا يدري ماذا يفعل، فخذف لنجدتى رجل ورع، ويبدو أن عمرى لم يكن قد انتهى بعد وقال:

لماذا تقتلون هذا الحيوان المسكين؟ والتفت هذا الرجل النبيل، الذى كان يعترف جموع الأسرار لابن الملك وقال له: سيدى، إن كل قبائل الحيوان تستطيع أن تتكلم، ولكن يبدو أنك لا تعرف هذا، بيد أنها لا تفعل ذلك أمام الناس، وقد عبر هذا الغزال عما يختلج فى قلبه بهذه العبارة لأن بصره لم يقع عليك. وحرك فصل الأمطار لواعج شوقه وتحولات أفكاره إلى قطيعه فتكلم وقال: متى يتاح لى أن أسير وراء قطيع الغزلان وهى تعدو (هنا هناك) يدفعها الريح والمطر؟ ومن ثم فلا أساس لمرضك يا سيدى... إنه مجرد وهم. وما كاد ابن الملك يسمع هذا الكلام حتى شفى من الحمى وأبل من مرضه وأصبح سليما معافى كما كان من قبل. وقادنى بعيدا ودهن جسمى وأمر بغسل جسدى بماء وفير وأرسل فى طلب عدد من الرجال يقومون على رعايتى وأمرهم بإطلاق سراحى فى الغابة نفسها، وامتلأ الرجال لما أمرهم به. وهكذا تعرضت للأسر مرة قبل ذلك ويابى القدر إلا أن يوقعنى فى الأسر مرة أخرى.

[إنهاء الحكاية ٤]

وبينما كان الحديث يدور بينهما على هذا النحو كان الكسول قد اقتفى آثارهما وقد طار قلبه شعاعا، خوفا على صديقيه، وأخذ يسير في ببطء شديد وهو يسحق تحت أقدامه البوص والأشواك وحشائش الكوشا، وأقبل في أناة إلى الموضع الذي كانا فيه. وعندما شاهداه ارتجف قلباهما إشفاقا عليه وقالوا له: لقد أسأت إلى نفسك أيها الصديق بمغادرتك معقلك الحصين وحضورك إلينا. فأنت لا تستطيع أن تحمي نفسك من الصياد أما نحن فنستطيع بكل تأكيد أن نفر من ذلك الصياد، الشرير لأنه لو اقترب منا فإن المرقش، وقد قطع وثاقه سوف يفر على عقبه ويعدو بعيدا، وخفيف الجناح سوف يطير ويصعد إلى أعلا شجرة وأنا سوف أجرى إلى جحر أحتمي به ولن يعجزني ذلك لضالة جسمي. كما تعلم. أما أنت يا سيدى فماذا فى وسعك أن تفعل إذا وجدت نفسك توشك أن تقع فى قبضته؟ فأجاب الكسول:

لا تقل هذا أيها الصديق، من فى وسعه أن يتحمل ألم فراق أحبائه وفقده ثروته إلا لمشاركة أصدقائه فى الحياة والمصير؟ ألا تعرف أن هذه المشاركة أشبه ما تكون بعبء شيب يتداوى به الناس لأن فيه الشفاء؟

مثل الأيام التى تقضى فى صحبة أصدقاء متقنين محبوبين، وإن كان المرء لا يصادفها إلا نادرا، مثل رحلة يقوم بها المرء سعيا وراء المال، وهو يضرب على غير هدى فى تيه الحياة. إن القلب يجد السلوى والعزاء عندما يكشف المرء بهمه صديقا حميما وزوجة فاضلة وسيدا عطوفا. ولهذا يلوح لى أيها الصديق أن المرء يجيل الطرف فيما حوله والاشواق يملأ جوانحه وذهنه مكدود بتيه فى مناطق مجهولة عندما يفترق عن صديق محب مخلص فاضل. وبينما كان يقول هذا وصل ذلك الصياد. وما كاد الفأر الذهبى يلمحه حتى جرى إلى جحر بعد أن قطع وثاق الغزال كما سبق أن وعد. وحلق خفيف الجناح فى الفضاء وانطلق بعيدا عن ذلك المكان. أما المرقش فقد انطلق بدوره يعدو بسرعة مبتعدا عن ذلك الموضع. وظن الصياد أن الغزال تمكن من قطع وثاقه بنفسه ورأى أن هذه حالة فريدة من حالات السحر وقال: لا بد أن القدر قد مد يد العون للغزال ففقطع وثاقه! والنفت فرأى ذكر السلحفاة "الكسول" يزحف ببطء على الأرض اليابسة فشعر بشيء من العزاء وقال فى لهفة: إن كان القدر قد سلبنى الغزال وأعانه على قطع وثاقه فإنه قدم إلى ذكر سلحفاة. واندفع إلى بعض حشائش الكوشا فقطعها بمذبة حادة وصنع منها حبلا متينا وجر ذكر السلحفاة من قدميه وربطهما برباط وثيق وعلقه على قوسه ثم قفل راجعا من الطريق الذى جاء منه.

ولما رأى الغزال والفأر والغراب ما أصاب صديقهم ذكر السلحفاة أخذوا يعدون وراءه وهم يصرخون فى كرب عظيم وقال الفأر الذهبى: قبل أن أخلص من هم وقيل أن أصل إلى

شاطئي محيط الأحزان أرى هما آخر قد حل بي! وقد قيل: في أوقات الشدة تأتي المصائب سراعا ولا تنزل فرادى.

إذا لم يتعثر المرء في سيره فسوف يمضي قدما على الطريق السوي مرتاحا مطمئنا، ولكنه إذا ما تعثر يوما فسوف يواجه حجر عثرة في كل خطوة يمشيها، فيا ويل! ما أن وضع القدر نهاية للثراء حتى نادى الظل الظليل صديقا، وجد عنده من أضناه السفر راحة وانتعاشا، وها هو ذلك الصديق يقضى عليه أمام ناظري.

أنى لنا أن نجد صديقا مثل الكسول! لا! من المحال أن نعثر على مثل هـ ذا الصديق! وكيف نعيش والحياة نفسها لا طعم لها بدون الأصدقاء كما يقولون.

لا يستطيع المرء إلا بومضة نادرة من ومضات الحظ أن يكتسب صديقا ودودا بفطرته... ولا يتكلف في صداقته ويخلص لك الود حتى في وقت الشدة.

إن الرجال لا يستمدون من الأم أو الزوجة أو الولد تلك البهجة التي تتجدد أبدا والتي يستمدونها من الصديق الحميم.

إن العاقل لا يتردد في أن يجاهر بأن الصديق الوفي يضيف على الحياة في هذا العالم متعة لا تعادلها متعة فالصديق يجلب السعادة في هذه الحياة الدنيا ولا وجود للصديق في العالم الآخر.

ويحق لي الآن أن أتساءل: لماذا لا يكف القدر عن توجيه ضرباته المتلاحقة إلى عبي هذا النحو؟ فأننا أولا كما نعرفون، فقدت مالي وتعرضت بسبب فقرى لاحتقار أتباعي وتملكني اليأس، وصبرت وتحملت العيش في المنفى بعيدا عن أهلي وخالتي، وأخيرا هأنذا أفراق صديقا حبيبا. فتأمل كيف تتابع على حلقات المصائب. وقد قيل أيضا: إن ظروف الحياة التي أثمرت لها فعال الناس تقفو بعضها بعضا في أوقات مختلفة، سواء أكانت خيرا أم شرا، تتجلى في ولا شك في هذه الحياة التي لا بديل لها ومع ذلك فإنها تبدو لي وكأنها تكرر لشيء واحد يتجسد في صور مختلفة. في الجسد تكمن المصائب والحظ السعيد يعزف لحن البؤس، واللقاء يعقبه الفراق، وكل ما يولد لا بد أن يموت^٣ أي إنسان لا تنزل به المصائب عذما يجيء الأوان؟ وأي حياة في هذا العالم موصولة بالسعادة؟ ألا ترى أن السعادة والشقاء يتعاقبان في دورة طبيعية مثل دورة النجوم^٤ في فلك السماء؟ إن الضربات لتنتهال بلا توقف على المقعد، وعندما يفرغ الطعام تشتعل الأحشاء جوعا. والخصومات والعداوات تبرز في أوقات المدة وفي أوقات الشدة تأتي المصائب سراعا ولا تنزل فرادى.

^٣ في هذه العبارات الثلاث من المنظومة تلاعب بالألفاظ بأسلوب المقابلة.

^٤ دائرة البروج.

والآن وا أسفاه! لقد أصابني الضر بفراق صديقي فأى فائدة ترجى من محاولة ذ-سيان هذا الأمر الجلل ولو استعنت بكل قومي؟

لقد قيل: من الذى أبدع هذه الجوهرة ذات المقطعين المسماة "رفيق"؟ إنه هو الذى يفرج الكرب ويزيل الهم وينقذ من الخطر وهو جدير بالحب والثقة.

وبعد أن بكى الفأر الذهبى وناح ما شاء له النواح قال للمرقش وخفيف الجناح: على أية حال ما فائدة نواح لا يجدى فتىلا؟ دعونا ندبر وسيلة لتحرير الكسول من أسره قبل أن يؤخذ-ذ ويبتعد عن مرمى أنظارنا. فقالا معا: نعم، لنفعل هذا فوراً. فقال: على الم-رقش أن ينطلق-ق عدوا أمام ذلك الصياد ويعمد إلى السقوط فى موضع لا يبعد عنه كثيراً ويكون قريباً من الماء ويتظاهر بالموت. وعلى خفيف الجناح أن يحط على جسده ويثبت قدميه بين قرنيه المتفرعين وينقره بمنقاره ويتظاهر بأنه ينقر عينيه. وليس من شك فى أن هذا الصياد الأحمق-س-وف يقول لنفسه فى غمرة جشعه هذا الغزال ميت، وسوف يطرح ذكر السلحفاة ويجرى م-سرعا ليحصل على الغزال وعندما يذهب سوف أبادر من جانبيه وأقطع وثاق "الكسول" بأسناني حتى إذا تم ذلك جرى بسرعة إلى البحيرة، وعليك أيها المرقش عندما يدنو منك الصياد الشرير أن تبذل أقصى جهدك للفرار منه، وامتلئ المرقش وخفيف الجناح ونفذاً هذه الخطة بدقة ورأى الصياد الغزال طريحاً على الشاطئ وخيل إليه أنه ميت وأن الغراب ينهش لحمه، فسر وألقى-ي بذكر السلحفاة على الأرض وأسرع نحو الغزال. وفى هذه اللحظة انقض الفأر الذهبى ع-لى وثاق الكسول ومزقه إرباً، فسارع ذكر السلحفاة بمغادرة ذلك المكان واختفى فى الم-اء. أم-ا الغزال فعندما رأى الصياد يقترب منه نهض مسرعاً واختفى فى لمح البصر ه-و والغ-راب. وخيل للصياد أن ما شاهده ليس إلا ضرباً من ضروب الشعوذة وتساعل ماذا يعنى؟ وقف-ل راجعاً إلى حيث كان ذكر السلحفاة فرأى الحبل وكان غليظاً فى سمك الأصبع مقطوعاً-ا إرباً. إرباً، وأن ذكر السلحفاة قد اختفى وكأنما حدث هذا بفعل ساحر. فبدأت تراوده ال-شكوك ف-ى سلامة جوارحه واندفع خارج تلك الغابة بخطوات سريعة وقد طار قلبه شعاعاً وهول ه-و. وبتلفت حوله فى كل اتجاه وعاد إلى داره حزينا كاسف البال.

وهكذا أقبل هؤلاء الأصدقاء الأربعة جميعاً وقد تخلصوا من المتاعب وسلمت أجسادهم من كل أذى. وانطلقوا مرة أخرى إلى مقرهم المألوف وقضوا وق-تهم م-ذ ذاك ف-ى س-عادة وعاشوا فى طمأنينة يتبادلون الأحاديث الودية ومن ثم:

عندما تعقد الدواب حلفاً مثل هذا ذاع صيته فى أرجاء العالم، فأى عجب ف-ى أن يعق-د مثل هذا الحلف بين الناس الذين وهبوا العقل والذكاء؟
وهنا ينتهى السفر الثانى المسمى كسب الأصدقاء.

السفر الثالث

الحرب والسلام أو الغربان والبوم

والآن يبدأ السفر الثالث المسمى الغربان والبوم ويدور حول الحرب والسلام وهذه هي منظومة الاستهلال:

لا تضع ثقك في امرئ أديته من قبل ولا في عدو انقلب إلى صديق. ألا ترى كيف
أحرق الغربان عشا كان مملوءا بالبوم؟
فقال أبناء الملك: وكيف كان ذلك؟
فقال فصنوشرمان:

يحكى أنه كانت هناك شجرة تين هندی عظيمة في إحدى الغابات، وكانت تبـدو كأنهـا ترحب بالمسافرين بظل أوراقها الوارف وجذوعها المشجرة. وكان يقيم بها ملك للغربان يدعى لون السحاب وله من الأتباع ألف غراب، وفي موضع غير بعيد كان يقيم ملك للـبـوم يدعى ساحق الأعداء، وله من الأتباع أيضا ألف من البوم. واستطاع ساحق الأعداء أن يحصل على معلومات دقيقة عن قلعة الغربان من أتباعه، ودفعه إلى ذلك ما يـكنه من كراهية تذكيتها العداوة الفطرية بين البوم والغربان. وفي جنح الليل أتى ومعه حشد كبير من البوم وانقض على ملك الغربان ورهطه انقضاض الصاعقة وكأنه القضاء المحتوم. وأوقع بالغربان مجـزرة رهيبـة وانصرف راضيا عن نفسه وعن أتباعه. وفي صباح اليوم التالي وجد لون السحاب أن كثيـرا من الغربان الذين أفلتوا من المذبحة قد خرجوا من المعركة بمناشير محطمة وأجنحة مهـيـضة وسيقان مكسورة فأمر بتفتيش المعسكر بأسره وتلقى عنه تقريراً وافتتح المجلس الـذي عقـده لوزرائه بهذه العبارات: ها أنتم ترون هذه المذبحة الرهيبة التي أوقعها بـذـا عـدونا سـاحق الأعداء. لقد وجد الطريق إلى معقلنا الحصين وسوف يتحين ولا شك فرصة أخرى للمجـيء مرة ثانية هذه الليلة^{٥٥} ليقضى علينا القضاء الأخير. فهيا بنا نضع الخطط المحكمة بلا إهمـال لإبقائه خارج المعقل. وعندما سمع الغربان منه هذه العبارات انسحبوا إلى مكان خاص. وكان له خمسة وزراء توارثوا منصب الوزارة أبا عن جد، وهم الطائر إلى أعلى، والطائر قـدما، والطائر خلفا، والطائر أماما، وطويل العمر. وبدأ يسألهم واحدا واحدا وسأل مـن بيـدهم أولا الطائر إلى أعلى وقال:

^{٥٥} وفي رواية أخرى ليلا.

سیدی، ہم تشیر علینا ان نفعل بعد ذلك فی هذه الظروف؟ فأجاب: وهل أعرف شـدینا
یستحق ان أشیر به؟ مولای انی لا أستطیع ان أردد إلا ما ورد فی کتب العلم: عندما يتعرض
المرء لهجوم من قوة أعظم فلیس هناك أمامه سوى ان یخضع لها أو یغادر البلاد.

وعندما سمع ملك الغربان هذا قال للطائر قدما: وما رأيك أنت یا سیدی فقال:

مولای، بالنسبة لما قاله زمیلی من ان من يتعرض لهجوم من قوة أعظم یجب ان یغادر
البلاد أرى ان المرء یجب ألا یغادر معقله الحصین فجأة وبدون سبب وجیه. والرأى عندی
أننا فی هذه الظروف یجب ان نقضى الوقت بین بین... عندما یهددنا الخطر ننسحب وعندما
نكون فی أمان نبقى فی معقلنا هذا.

ولما استمع الملك لرأیه هذا سأل الطائر خلفا: وأنت یا سیدی، ما رأيك فی هذا الأمـر؟
فأجابه بقوله: أيها الملك إن عملية الرحیل والعودة سوف تنهك قوانا وتؤدى بنا إلى الهلاك. إذ
لا یخفى علیك ان علینا ان ننقل ونعید الفقراء والعمیاء والمشلولين والمـشوهین ومـن لهـم
أجنحة مهیضة والعرج والمرضى إلى جانب متاعنا كله، وهذا وحده یکفیـ لأن یحـرق بـذـلـا
الخراب والدمار. والرأى عندی ان السلام هو خیر ما ننتهجه فی هـذه الظـروف لأـنـه إذا
تعرض ملك ضعیف لهجوم من ملك قوى له جيش قوى فلیس أمامه إلا ان یسارع بعقد صلح
ینقذ خزائنه وجیشه ونفسه. ولهذا یحسن بنا ان نبادر بالخضوع لهم حتى نبقى هنا فی صـفاء
ولا یزعجنا أحد. فلما فرغ الملك من مشورته ایضا سأل الطائر أماما: سیدی بماذا تشیر علینا
فی هذه الظروف؟ فرد قائلا: مولای خیر لنا ان نقیم فی الغابة ونشرب الماء عکرا بما اجترته
الغزلان من ان نعیش فی خضوع زری لعدو ذاق حلاوة السیادة. یضاف إلى ذلك ان:

على الرجل القوى ألا ینحنى قط أمام رجل لیس ندا له، فانهناء المرء أمام من لا یعـد
من أنداده هو الشر المستطیر. وهذا التسليم بالخضوع ضیم یأباه الرجال الأقویاء ذوو الإقدام.
وقد قیل ایضا:

إن ظل الإنسان یطول عندما ینحنى كما یحدث للعصا، بید أنه إذا تجـاوز الحد فـی
انهنائه فإن ظله یتلاشى تماما والرأى عندی ان على المرء ان ینحنى على شریطة ألا یتجاوز
الحد فی انهنائه. ولیس لدينا الكثير مما نلتقى معهم فیـه على صعیـد واحد فکیف یمکننا بـدون
أساس مشترک ان نعقد معهم صلحا؟ والرأى عندی ان الحرب معهم هی خیر الحلول بالذـسبة
لنا على الإطلاق. وعندما علم لون السحاب بأراء هؤلاء الأربعة من وزرائه التفـت لطویـل
العمر وقال له: أبـتاه، إنك وزیرنا بالوراثـة، ولبثت فی هذا المنصب فترة أطول من غیرك وقد
وقفت حیاتك على تحقیق الرفاهیة لنا فماذا یحسن بنا فی رأيك ان نفعل وقد تطورت الأمـر
وأصبحت كما ترى؟ انی على یقین بأنك سوف تشیر علینا بخیر ما یجدر بنا ان نفعله.

وعندما سمع طويل العمر هذه الكلمات قال: وماذا عساي أن أقول يا مولاي بعد أن قال هؤلاء ما قالوا؟ لقد حبذ بعض زملائي الحرب، وأثر بعضهم السلام، وقد عبر صداحك -ل- رأى عن وجهة نظره خير تعبير. وبالنسبة لما قاله زميلي الطائر خلفا، أرى أن هذه النصيحة تحمل في أعطافها القضاء علينا، إذ كيف نخوض معهم معركة على قدم المساواة؟ من الواضح أن هذا القتال لن يكون متكافئا وفيه غين لنا فهم أقوى منا من جميع الوجوه. وأرى أنه ل-يس من الحكمة أن نقاتلهم فقد قيل: كل من يندفع بلا روية ولا تبصر إلى عمل لا يقيس فيه قوته -ه وضعفه بقوة عدوه وضعفه فلا يلومن إلا نفسه إذا حلت به كارثة، على الم-راء ألا ي-ستهين بالأعداء ولو كانوا أقل منه وزنا، لأن من يفعل غير ذلك لا يحصد إلا الفشل. على الم-راء أن يلزم جانب الحذر والارتياح مع عدو يتذرع بالصبر والحكمة ويهاجم في الوقت المناسب ويعرف نقاط قوته وضعفه ومواطن قوة الخصم وضعفه.

من تسلس له قيادة ربة الحظ ويكسب قلبها بوسائل سياسية سوية تلازمه وه-ي قرية -رة العين ولا تفترق عنه مادامت لم تتعرض بزواجها منه لما يشينها.

في وسع عدو عظيم، ولو كان يقيم على بعد أن يقضى على ملك جليل الشأن وماذا في وضع امرئ خائر الهمة أن يفعل ولو كان مسلحا وعدوه في متناول يده.

لا تحنقر المرء ولو كان خائر العزم، إذا أسينت معاملته أو فر بنفسه من ساحة المعركة وتخلى عن الجميع. ولا تحنقر المرء ولو كان وحيدا مجردا من السلاح. هكذا يقول الخب-راء في علم تدبير الملك.

إن المنتصر حقا هو من يتغلب على عدوه بلا مشقة، والمنهزم حقا هو من يخوض مع عدوه معركة غير محققة النتيجة ويمكن أن يكسبها خصمه.

النجاح ضربان معروفان: نجاح يتوسل بالحيلة، وآخر يتوسل بالقتال. والنجاح ال-ذى لا يظفر به المرء بالاستراتيجية يعنى هلاكه المحتوم. فأى الضربين في اعتقادك أفضل؟

من العسير إدراك مناهج الحكم لدى المتعالين والخبثاء والجشعين والمستسلمين لشهواتهم والأخساء والمنفخة أوداجهم من الكبرياء وسريعي الغضب.

وهذه المناهج نفسها لا يحافظ عليها إلا من لا يتجاوزون الحدود الصحيحة ومن ل-قد -وا أحسن تعليم والقادرون على ضبط النفس والصابرون والبارعون في أصول السياسة ووسائلها وغير الأغبياء.

وأنا لا أشير عليكم بالحرب على الإطلاق، فمثل من يقاتل رجلا يفوقه قوة كمث-ل م-ن يقاتل فيلا وهو راجل، كلاهما ينتهى به الأمر إلى الهلاك التام!

فقال لون السحاب: حسن يا أبتاه. والآن ما هو رأيك النهائي؟ فأجاب: سيدى، لقد قيل: ليس من شك أنه يستحيل على المرء الظفر بربة الحظ ولو دفع مهرها غاليا وضد-حي بحياته فى سبيلها، وهى تخف طائفة مختارة إلى دار من يعرض النصيحة الخالصة. كل من لا يطلب نصيحة أصدقاء يتمنون له الخير ويعرفون ما ورد فى كتب العلام، ويسألهم واحدا بعد الآخر فى أمور مختلفة يستبد به الكرب. إن الحظ السعيد ليخف إلى الرجل الممتاز الذى يعمل حساب المكان والقوى والواجب-ب والمناهج السياسية وحاضره ومستقبله وقبل أن يقدم على أى عمل، كما تخف الأنهار إلى-ب المحيط الزاخر بالماء. يجب أن يكون المستشارون من الأبطال وأن تكون صحائفهم بيضاء ناصعة لا ت-شوبها شائبة، ويجب أن يكونوا عقلاء بعيدى النظر لأن المملكة إنما تعتمد على-ب المستشارين الصالحين. إن الحظ لن يسير أبدا فى ركاب الجاهل ولو شرب المجد بالانتصار على أعدائه فى معركة يتطاير فيها شرر لا حصر له من النار التى تنشأ من احتكاك أنياب الفيلة. ولا مندوحة لمن ينشد النصر من أن يتبع ما يراه المستشارون البارعون فيمشورتهم يتحقق له النجاح التام. إن ربة الحظ لا تختار من ينحدر من أسرة عريقة ولا ذا المظهر الوسيم ولا من اكتسب المعرفة وهى لا ترى فى ذلك دليلا على الامتياز. وصحيح أنها مترددة ولكنها تلازم الرجل-ل الشجاع الذى يحيط به مستشارون صالحون وتتثبت به وحده. هل هناك شك فى نجاح من ينتهج أشكال السياسة الستة^{٥٦} ويجعلها دعامة؟ ألا فليتبع أساليب النبلاء وعندئذ لن يكون من الصعب عليه أن يظفر بالنجاح. ألا يندفع الرجال المعتزون بأنفسهم إلى الردى بلا وجل من أجل المجد؟ "إنهم لن ينالوا قبسا من الخلود إذا جلل حياتهم العار" ارفع قدمك اليمنى (واخط إلى الأمام) إلى النصر! لم تتمهل؟ إن أساتذتنا يقولون إن التسويف أس البلاء. أى فائدة ترجى من هذه الثروة غير المجدية التى تشبه حديث الببغاء والتى تتبدد-ب ذ النواة بمجرد سماعها؟ إذا كنت عاقلا فاترك الصمت وتحدث بما يقتضيه الموقف لأن العقلاء يصرحون بأن النصر أساسه النصيحة الخالصة. ولكن من المعروف جيدا أن هناك ستة أبواب للنصيحة يمكن أن تغشاها من خلالها أيها الملك. وعلى الرغم من أنك تعرفها يا مولاي حق المعرفة فسوف أذكرها لك يا صاحب الاسم

⁵⁶ انظر صفحة ٢٥٤.

المجيد! المرء نفسه والوزير والرسول وصاحب السر ومرابض التطهر - ر الثلاثة - كل - يوم
وتعابير الوجه والإيماء وتعد الباب السادس. وذلك هو الرأي المقبول الخاص بالذ-صيحة.
ومهما يكن من شيء فاسمع ثمرة النصيحة التي لا تضيع. واعلم أن المرء يغتم في الدنيا ولا
يتعرض لخسارة في الدين أو الحب وهذه هي فائدة المستشارين مضاعفة ثلاثا: الموافقة على
القرارات وإزالة الشك والحكمة الحاضرة أبدا.

ولهذا يجب بذل كل الجهد للمحافظة على سرية النصيحة. مثل النصيحة التي تطبق
تطبيقا غير سليم مثل غول يستغاث به خطأ، وهي لابد أن تقضى على من يستعين به. إن
الانقسام في الرأي بين الوزراء لا يؤدي إلا إلى القضاء على شيعة المرء ورفع شأن العدو
وهو لا يفيد أبدا.

كل من يقسم دخله ومصروفاته بطريقة سليمة وكل من يتمسك وك-لاؤه بالسرية ولا
يفشى سره لأحد وكل من يخاطب وزراءه برفق يحكم الأرض بأسرها حتى حافة المحيط.

ولهذا أقول مرة أخرى: إنى لا أؤيد الحرب ولكنى أرى أيضا أن السلام مستحيل بالنسبة
لنا ما دامت هناك عداوة فطرية بيننا وبين اليوم. والآن إذا كنت تتشد نصيحتي حقا فاصد-رف
هؤلاء الوزراء البارعين في الكلام وحده والذين لا هم لهم في الحياة إلا التمسك ب-الوزارة
واعلم إنه عندما تجيء اللحظة الحرجة وتتأزم الأمور فلن تثمر النصيحة الخالصة إذا سمعتها
سنة أذان.

وعندما فرغ من هذا الكلام قال لون السحاب: أبتاه، إنى صغير السن قليل الخبرة،
وسوف أفعل ما تشير به على. والأمر كله موكل إليك وإنى أعلم أنك أدت الذي ت-سدى
نصيحة مثمرة وأن لديك العلم والحكمة المكتسبة من التجربة، وأنت تحب لى الخير أبدا-عن
جد. ولكن هلا حدثتني عن موضوع أتلطف على معرفته وهو: كيف نشأت عداوتنا مع اليوم؟
فأجاب: بزلة في الكلام يا سيدى.

لأن الحمار الأحمق الذى كان يرتدى جلد النمر لقى م-صرعه بعد أن ظ-ل يراءى
الحشائش بلا انقطاع لأمد طويل بسبب زلة في الكلام. فقال الملك: وكيف كان ذلك؟
فقال طويل العمر:

الحكاية الأولى

* حمار فى جلد نمر

يحكى أن غاسل ثياب كان له حمار وهنت قواه بسبب ما كان يحمله من أثقال عظيمة
من الثياب تفوق طاقته. ورأى غاسل الثياب أن ينعشه فكساه بجلد نمر وأطلقه يرتع ويم-رح

ليلاً ويأكل الحب الذي يملكه غيره. وأخذ الحمار يأكل من الحب ما شاء دون أن يقترب منه. أحد ولم يفكر أحد في أن يبعده عن الحب لأن الناس ظنوه نمرًا. واتفق يومًا أن رآه فـلاح، كان يعمل حارسًا للحب وقال في نفسه: هذا نمر! إنني هالك لا محالة! وانحنى ولف جسده في عباءة رمادية وتسلل يبتعد في حذر وفي يده قوس مشرعة. وعندما رآه الحمار عن بعد، وكان قد سمن واستعاد قواه ظن أن الفلاح أتان. ولما كانت منيته قد حانت فقد عدا خلف الفـلاح بأقصى ما يستطيع من سرعة وبدأ يطارده. فاطلق الرجل ساقيه للريح، وجرى كما لم يفعل. من قبل. وقال الحمار في نفسه: لعلها أخطأت الظن بي واعتقدت أني نمر لأنني ارتدى جلده. وأرى أن أعود إلى طبيعتي وأطمئننها بالنهيق.

وما أن استقر على هذا الرأي حتى بدأ في النهيق. وسمع حارس الحب هــذا الـصوت فدهش له وعرف أنه إنما يواجه حمارًا لا نمرًا فاستدار وأطلق عليه سهمًا صرعه في الحال.

[إنهاء الحكاية ١]

ولهذا أقول: لأن الحمار الأحمق الذي كان يرتدى جلد نمر لقي مصرعه بعد أن ظـل يـرعى الحشائش بلا انقطاع لأمد طويل بسبب زلة في الكلام. كذلك بدأت عداوتنا مع الـبـوم بـزلة لسان. فقال لون السحاب: وكيف كان ذلك؟ فروى طويل العمر هذه الحكاية:

الحكاية الثانية

* الطيور تختار ملكا

يحكى أن جماعة من الطيور لم يكن لها ملك فاجتمعت وأخذت تتشاور فيمن تنصبه ملكا عليها وقررت آخر الأمر أن تنصب البوم ملكا عليها وجمعت كل ما يـلـزم للتتويجـه طبقـًا للشعائر المـرعـية، وأعدت لحفل التتويج الشماسي وشعارات الملكية والمراوح والعرش والمقعد الملكي والثياب الكتانية والأواني المقدسة المزخرفة بأشكال هندسية إلى غير ذلك من شعارات الملك. وعند ذلك حلق غراب في الفضاء وهبط. وما أن رآوه حتى توقفوا عن المـضى فـى إجراءات حفل التتويج وقالوا: لا بد أن يشترك هو أيضا معنا في الاجتماع وليس له أن يعتـذر لأن اختيار ملك لنا يهم العالم بأسره. وعندما وصل إليهم سألوهم: سيدي هل توافق أنت أيـضا على اختيار البوم ملكا لنا؟ فقال: لماذا؟ هل بادت كل الطيور؟ هل اندثر البجع والـبط والأوز الأحمر القاني والكروان والطاووس والوقواق والحمام والدراج وغيرها من الطير حتى ينصب علينا هذا البوم بسحنته الكئيبة ملكا؟ يضاف إلى هذا كله أنه:

معقوف الأنف أحول العينين، له نظرة وحشية غير ودية، وسحنته تنطق بالشر عندما يكون راضيا، فبربكم كيف يبدو عندما يكون غاضبا؟ ومن الطبيعي أن يكون كلامه فظا ممعنا في القسوة تافها كريها. فإذا توجتم هذا اليوم ملكا عليكم فكيف تأملون في الحماية؟

إن كل ما ينظر إليه يراه أحمر كاللهب ولا يمكن الإفادة منه حتى في الإيهام بخدعة. وقد قيل: قد يتوسل الملك بخدعة لتحقيق النجاح إذا كان لا حول له ولا طول فبخدعة القمر عاشت الأرانب في سلام فقالت الطيور: وكيف كان ذلك؟ فقال الغراب:

الحكاية الثالثة

* الفيل والأرانب والقمر

يحكى أن الجذب أصاب أرضا واستمر اثني عشر عاما، فجفت العيون والجداول والبحيرات والبحيرات وأشرفت كل الحيوانات وبخاصة الفيلة على الهلاك بسبب العطش، وتعرضت لمحنة شديدة فاستغاثت الفيلة بملكها وكان يدعى ذا الأنياب الأربعة وقالت له:

مولانا إن صغار الفيلة كادت تهلك من العطش، وبعضها يحتضر والبعض الآخر مات بالفعل فهلا دبرت لنا حيلة تفرج بها كربنا وتوفر لنا بها من الماء ما يروى ظمأنا.

وعندئذ بادر ملك القطيع بإرسال بعض الفيلة السريعة للسعى وراء الماء في كل الجهات الثمانية جميعا. وعاد أحدهم إلى الملك وقال له: مولاي في موضع غير بعيد توجد بحيرة تسمى بحيرة القمر وهي مترعة بالماء العذب الصافي، وهي مترامية الأطراف يبلغ اتساعها ربع مساحة السماء.

وعلى إثر ذلك انطلق ملك الفيلة مسرعا مع رعاياه جميعا، وهم يهللون من الفرح، حتى وصلوا إلى البحيرة. وبينما كانت الفيلة ماضية في طريقها إلى شاطئ البحيرة الدسي كان يصعب الوصول إليها من جميع الجهات سحقوا رؤوس أرانب كثيرة، كانت تعيش على الشاطئ وحطمت أعناقها. وانصرف قطع الفيلة بعد أن ارتوى واغتسل. واجتمعت الأرانب التي بقيت على قيد الحياة للتشاور وقال ملك الأرانب واسمه ذو المنخار الشانك: ماذا نفعل الآن؟ إن قبيلتنا سوف يقضى عليها لا محالة لأن الفيلة عرفت الطريق لهذه البحيرة ولا بد أن تأتي ثانية. وعلينا أن نتأهب لمجئها وتدبر خطة تكفيها شرها. فقال أرنب يدعى "النصر" وكان معروفا بحنكته وسعة حيلته: هذا أمر غير عسير وأنا أعد الجميع بأن الفيلة لن تعود إلى هذا المكان. وعلى كل حال أرجو أن تختاروا منكم واحدا ليكون شاهدا على أعمالي.

ولما سمع ذو المنخار الشانك منه هذا قال متهللا: إني واثق من نجاح مسعاك يا سيدى العزيز! لأنه:

عندما يرسل الأرنب "النصر" إلى الأمام، وهو يعرف حق المعرفة جوهر تعاليم كذب السياسة ويعرف متى وأين يعمل فإن نجاحه سوف يكون كاملاً.

إن من يقصر حديثه على الموضوعات المفيدة ويتحدث باعتدال ويتكلم بالسفسكريفية ولا يتكلم كثيراً ولا يتحدث إلا بعد التروى فى الحقائق فإننى أقرر أن حديثه يكون مجدياً ويؤدى إلى النجاح فى كل عمل.

ولسوف تعلم الفيلة مدى قوتى المثلثة، ولو أنى سوف أظل بعيداً عن الميديان، عندما يدركون رجاحة عقلك، ذلك لأننى أستطيع أن أحكم على ملك لم أره من قبل عندما شاهدته رسوله أو الاطلاع على رسالته وأعرف إذا كان هذا الملك عاقلاً أو غير عاقل.

لأن الرسول يستطيع أن يعمل على الاتحاد أو يسعى إلى الفرقة والرسول قد يكون سبباً فى سعادة الناس أو شقائهم. وإذا ذهبت أنت فكأننى ذهبت أنا بنفسى لأن:

فى وسعك أن تتحدث بما هو لائق وبما تراه صالحاً وفى وسعك أن تقول ما تشاء وإنى واثق أنه لن يختلف عما أقوله أنا.

وهذا هو واجب الرسول: كلمات تناسب الموضوع المطروح للمناقشة، لا أكثر ولا أقل. ويجب أن يعرف كيف يعبر عن غرضه فى إيجاز بحيث يتحقق الأثر المطلوب.

وبعد أن سمع الأرنب "النصر" هذه الكلمات ودع ملك الأرانب وانطلق لزيارة ملك الفيلة. وعندما وصل وشاهد ملك الفيلة قال فى نفسه: أنى لمثلنى أن يلقاه وجسدى ضئيل جداً بالقياس إليه. وقد قيل:

إن الفيل يقتل بمجرد لمسة والثعبان بالشتم والملك بضحكة والشرير يقتل وهو يبالغ فى الكلام المعسول. والرأى عندى أن أتسلق قمة هذا الجبل قبل أن أحيى ملك الفيلة. وبعد أن ارتقى الجبل قال: السلام عليك يا من يقف هناك! وعندما سمع ملك الفيلة هذا تلفت حوله وقال للأرنب:

من أنت ومن أين قدمت يا سيدى؟ فقال: أنا رسول من قبل سيدى القمري. فقال ملك الفيلة: حسناً، أفصح عن مهمتك. فقال الأرنب: أنت تعرف بالطبع يا سيدى أنه ماعلى الرسول إلا البلاغ المبين. وكل إنسان وكل ملك يستخدم الرسول ليكون لسان حاله. وقد قيل:

إن الرسول لا يقول إلا الصدق حتى عندما يلجأ الناس إلى السلاح. ولما كان الرسل لا يقولون إلا ما كلفوا بإبلاغه فإن الملك يجب ألا يقتلهم.

والآن أقول لك بأمر القمر: كيف تجرؤ على إلحاق الأذى بغيرك دون أن تعمل حساباً للفرق بينك وبين خصمك؟ لقد قيل:

من يندفع بلا روية ولا تبصر إلى العمل دون أن يعمل حساباً لقوته وضعفه وقوة عدوه وضعفه فلا يلومن إلا نفسه إذا ما حلت به كارثة.

وقد اعتديت بلا وجه حق على بحيرة القمر التي تحمل اسمي وقتلت الأرناب التي أسبغ عليها حمايتي وهذا ليس من العدل في شيء. وأراني الآن مديناً لهم بتأييد شخصي. ولما كنت أحملهم على صدري فإني معروف لهذا السبب بالذات بين الناس بالأرناب المومس-وم^{٥٧}. والآن إذا لم تكف عن هذا السلوك المعيب فسوف تتعرض مني للكثير من الأذى. أما إذا كففت أذاك عنهم فسوف تجني فائدة كبيرة وسوف أنتعشك بأشعتي الفضية، واعلم أنك إن لم تـدعـن لـمـا أقول فسوف أمسكها عنك ويصلي جسدك شواظ من نار الحرارة وتهلك أنت وأتباعك. وبعد أن سمع ملك الفيلة هذا الكلام من الرسول ارتجف قلبه هلعاً وداخله خوف عظيم وقال له: هذا صحيح أيها الصديق. لقد أسأت التصرف بسبب الجهل وأعدك أنني لن أرتكب فعلاً يغضب القمر. فقال الآخر: إن جلالته هنا في البحيرة فتعال يا سيدي وحدك لأريه لك. وعندما تقـدم لمولانا فروض الاحترام وتهدا سورة غضبه تستطيع أن تتصرف. وبعد أن قال الأرناب هـذا اقتاد الفيل ليلاً إلى بحيرة القمر وأشار إلى صورة القمر المنعكسة على صفحة الماء. وقال ملك الفيلة لنفسه: لا بد أن أظهر نفسي تماماً ثم أقدم للرب فروض الاحترام.

ووضع خرطوميه في الماء وغمسه مسافة طويلة ذراع رجل، فـماهـنـز قـرص القمر. وتحرك في الماء المضطرب وأخذ ينتقل هنا وهناك وكأنه مثبت على عجلة، وخيل للفيل أنه يرى ألف قمر. وتظاهر الأرناب بالفزع وأن قلبه قد ارتجف هلعاً والتفت حوله وقال: وا أسفاه وا أسفاه! لقد أغضبت القمر أضعافاً مضاعفة! فقال الفيل: ولماذا غضب القمر المبجل مني؟

فأجاب الأرناب "النصر": لأنك لمست ماءه. وعندما سمع الفيل هذا سحب خرطوميه من الماء وخر على ركبتيه وذيله بين ساقيه وأحنى رأسه إلى الأرض وقال للقمر-ر المبجل-ل في خشوع: أيها الرب لقد فعلت هذا بسبب الجهل فاغفر لي فعلتي ولن أعود إلى هنا مرة أخرى! وما أن قال هذا حتى قفل راجعاً من الطريق الذي أقبل منه دون أن يلتفت وراءه ولم يعد إلى هذا الموضع مرة أخرى.

[نهاية الحكاية ٣]

ولهذا أقول: قد يتوسل الملك بخدعة لتحقيق النجاح إذا كان لا حـول لـه ولا طـول، فبخدعة القمر عاشت الأرناب في سلام.

^{٥٧} يميز الهنود صورة أرناب في القمر بدلاً من صورة رجل.

وفضلا عن هذا فإن هذا اليوم ذا الأفكار الخبيثة دنىء لا يستطيع أن يحمى رعاياه. وقد قيل: عندما يحتكم متخصصان إلى ملك خسيس ليقضى بينهما فهيئات أن يجدا عنده الإنصاف. وليس من شك في أن كلا منهما هالك لا محالة كما حدث للأرنب وطائر الحجل. فقال الطيور: كيف كان ذلك؟ فقال:

الحكاية الرابعة

* القط وطائر الحجل والأرنب

حدث منذ أمد بعيد أننى كنت أسكن فوق شجرة وكانت تحت هذه الشجرة نفسها جد-ر يعيش فيه طائر معروف باسم الحجل ونشأت بيننا بفضل هذا الجوار صداقة وطيدة. وكنا كل يوم فى بواكير المساء، بعد أن نتناول طعامنا وننعم بنزهتنا فى الخارج نمضى الوقت فى حديث ممتع نتبادل فيه الأسئلة والأجوبة. واتفق يوما أن تأخر طائر الحجل عن الوصول فى موعده الذى اعتدنا فيه أن نتسامر كل يوم فانشغل عليه فؤادى وتساءلت: أتراه قتل أم أسر أو هفا قلبه إلى مسكن آخر ولهذا لم يحضر فى موعده. وكنت أفكر أثناء ذلك فى الأيام الخوالى. وجاء بعد ذلك أرنب يدعى طويل الأذنين وأقام فى الجحر الذى كان يعيش فيه طائر الحجل-ل. ولما أبصرته قلت لنفسى: هذا ليس صديقى، ولا يهمنى إذا أقام أو ذهب.

ولبث الأرنب هناك فترة عاد بعدها طائر الحجل إلى الموضع نفسه، وإذا به يج-د الأرنب فى جحره فبادره بقوله: اسمع يا هذا، اخرج من هذا الجحر بسرعة فهو جحرى فقال له: أيها الأحمق، ألا تعرف أن المسكن والطعام ملك لمن يجدهما فى متناول يده؟ فقال ط-ائر الحجل: إن لدى شهودا، فلنسألهم، وهذا ما تتطلبه القضية، وقد قيل فى كتب القانون:

شهادة الجيران حاسمة فيما يتعلق بالصهاريج والآبار والبرك والدار والمسكن وهذا م-ا أعلنه مانو.

فوافق الآخر قائلا: ليكن.

وانطلقا لكى يقول القانون كلمته فى المسألة وتبعتهما أنا أيضا عن قرب وأنا ذ-واق لأن أرى نتيجة ما يحدث. وعندما ابتعدا قليلا قال طائر الحجل للأرنب: ولكن من هو الذى سينظر فى قضيتنا؟ فقال الأرنب: كيف تسأل هذا السؤال؟ هنا القط العجوز المسمى مخذ-ر الأذن-ين، وهو يعيش على ضفة النهر، وقد وقف حياته على التوبة، وهو معروف بالرفق بكل مخل-وق حى. وثق أنه يعرف القانون وسوف يصدر فى قضيتنا حكما يستند إلى القانون.

وعندما سمع طائر الحجل هذا قال: لا شأن لنا بهذا المخلوق الحقير، فقد قيل:

لا تثق بمن يرتدى مسوح ناسك، فكثير من النساك يشاهدون فى مناسك الحج المقدسة
ولا تنقصهم الحلو والاسنان!

وعندما سمع القط مخثر الأذنين هذا القول تظاهر بغير حقيقته لكى يحصل على قود-ه
بأسر السبل وأراد أن يكسب ثقتهم فوقف على ساقين وحملق بثبات نحو ال-شمس وذراع-اه
ممدودتان، وأغلق عينا واحدة، وانهمك فى الصلاة بخشوع. وبينما كان يصلى امتلا قلباهم-ا
ثقة به وزحفا نحوه، وعرضا عليه نزاعهما حول المسكن وقالوا له: أيها الناسك، استاذ القانون،
إن لدينا نحن الاثنين نزاعا فاحكم بيننا بالحق كما تقضى بذلك نصوص القوانين. فقال: إن-ى
عجوز تبلدت حواسى، ولهذا لا أستطيع أن أسمعكما جيدا وأنتما على مبع-دة. اقتربا-ا مذ-ى
وتحدثا بصوت مرتفع. وعندئذ اقتربا منه وقصا عليه قصتهما. وأراد مخثر الأذنين أن يكسب
ثقتهم ويجعلهما يقتربان منه أكثر مما فعلا فتلا نصوصا من كتب القانون: عندما يقضى على
العدل فإن هذا يقضى بدوره على كل شيء. وعندما يحافظ على العدل يحافظ على كل شيء.
ولهذا يجب أن نتحرى العدل لنلا يقضى عليه فنهلك جميعا. العدل هو صديقنا الوحيد-د الذى
يقتفى أثرنا حتى فى الموت، لأن كل ما عداه يندثر، ويفنى مع الجسد.

فى الظلام الحالك نغرق مع أننا نقدم قرايين من الدواب. وكف الأذى عن الناس فريضة
دينية ولا يوجد ما يفضلها قط ولن يوجد. إنما يتمتع برؤية صادقة كل من يعد زوجة غيره من
الرجال محرمة عليه مثل أمه وممتلكات غيره محرمة مثل تربة الأرض وكل المخلوقات سواه
محرمة أيضا مثل نفسه التى بين جنبيه. ولكى نوجز فى سرد حكاية طويلة نق-ول إن الق-ط
كسب برياته ثقتهم إلى حد أنهما صعدا إلى جحره، وعندئذ أمسك بهما ذلك المخلوق الخسيس
وقضى عليهما بضربة واحدة.

[نهاية الحكاية ٤]

ولهذا أقول: عندما يحتكم متخاصمان إلى ملك خسيس ليضى بينهما فبيهاث أن يج-دا
عنده الإنصاف. وليس من شك فى أن كلا منهما هالك لا محالة كما حدث للأرذ-ب وط-ائر
الحجل.

ولما كان هذا اليوم مخلوقا خسيما فإنه فى رأى ليس جديرا بأن ينصب ملكا.

وعندما سمعت الطيور منه هذا الكلام رددوا بينهم وبين أنفسهم: لقد تكلم وأج-اد. ثم-م
قالوا: حسن، سوف نعقد اجتماعا فى وقت آخر وننظر فى الأمر العام وهو الترشيح لمذ-صب
الملك.

وانفض جميع الطيور بعد ذلك وتفرقوا كما جاءوا وتركوا اليوم وحده ينتظر التذويج على عرش الملك. فسأل: من هذا الذى ألقى هذا الخطاب للإضرار بى؟

وعندما علم اليوم أنه الغراب غضب وقال له: أى ضرر ألحقته بى لكى تتدخل فى أمر تتوحيى. إن الجرح الذى ينشأ من نفاذ سهم فى الجسد يلتئم، والخشب الذى يقطع بفأس يـ. تحم ولو احترق بنار تشب فى الغابة، أما الجرح الذى تحدثه الكلمات فلا يـ. دمل أبـ. دا. قـ. صارى القول سوف تكون بيننا نحن اليوم وبينكم معشر الغربان منذ اليوم عداوة لا تنطفئ ناراها أبدا. وعندما انتهى اليوم من كلامه انصرف، والغيط ينهش فؤاده، إلى الموضع الـ. ذى جـ. اء منه. وفكر الغراب والهم يفرى قلبه وقال لنفسه: أى فعل مشنوم قمت به الآن فى أمـ. ر يهـ. م الصالح العام! لقد قيل:

إن كلمة يتفوه بها المرء بلا سبب وجيه وفى وقت غير ملائم ومكان غير مناسب ولا تتفق مع الحوادث المقبلة وتتبعض بالعداء للمخاطب تـ. زرى بالمتكلم وتعود عليه بالوبال، وهـ. ي لا يمكن أن تكون كلمة بل سما زعافا.

ليس من شك فى أن العاقل، ولو كان قويا يجب ألا يناصر شخصا آخر العداء عامـ. دا متعمدا، فمن ذا الذى يتناول السم بلا هدف وهو سليم العقل لا لشيء مـ. دوى أذـ. ه يعـ. رف أن الطبيب فى متناول يده؟ وقد وقعت فى هذه الورطة بسبب غباوتى. وكان لابد أن يحدث لـ. ي هذا مادمت لم أشاور الأصدقاء الذين يودون لى الخير وقد قيل: يحظى بالشهرة والثروة مـ. ن يتبادل وجهات النظر مع الأصدقاء المخلصين أكثر من مرة ومن يتروى مرارا قبل أن يقـ. دم على أمر يرى أن من سداد رأى الإقدام عليه وأن الجميع يقرونه على ذلك. وبعد أن قال الغراب هذا انصرف من هذا المكان.

[نهاية الحكاية ٢]

هكذا يا مولاي نشأت العداوة بيننا وبين اليوم بسبب زلة لسان. فقال لون السحاب: لقد فهمت مرادك. والآن فكر يا أبتاه ودبر لنا خطة نتقى بها شرهم قبل أن يعودوا لينقضوا علينا.

فقال: مولاي إن الحرب والسلام من الوسائل الستة وهى: الـ. سلام والحدـ. رب وسياسة الانتظار والزحف والتحالف والمعاملة المزدوجة.

وليس لدينا الآن فرصة لانتهاج سياسة الانتظار أو الزحف أو التحدـ. الف أو المعاملة المزدوجة، لأن سياسة الانتظار فى مواجهة عدو قوى تؤدى بالمرء إلى دمار حـ. صنه الـ. ذى يعتصم به بل القضاء عليه هو نفسه، والزحف يعنى بوضوح تخلى المرء عن حصنه، ومـ. ع

أى حليف قوى نربط أنفسنا بحلف؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يطبق سياسة المعاملة المزدوجة؟ وفى ظل هذه الظروف ليست أمامنا الآن أية فرصة لانتهاج الوسيلة الأربعة: المصالحة والرشوة وبث الشقاق والتوسل بالعنف. ومهما يكن من شيء فإن هناك وسيلة خامسة هـ-ى الخدعة وهى لا توجد فى كتب الثقافات. وهذا ما أراه وسوف ألجأ إليها لكى أتغلب على العدو وأذله. وقد قيل: كثير من الخصوم الذين لا حول لهم ولا طول يمكنهم أن ينجحوا عند بدء الخصومة فى خداع عدوهم بذكائهم، كما حدث للبرهمى عندما سلب منه المحتالون العنزة. فقال: وكيف كان ذلك؟ فقال طويل العمر:

الحكاية الخامسة

* البرهمى والمحتالون

يحكى أن برهميا حصل على عنزة من قرية أخرى ليقدمها قربانا للآلهة. وبينما كان عائدا إلى بيته وهو يحمل العنزة فوق كتفه شاهده فى الطريق محتالون فقالوا: لنعمل على أن يخلى هذا البرهمى سبيل العنزة! وانتهوا إلى قرار فقسموا أنفسهم إلى جماعات مكونة من واحد ومن اثنين ومن ثلاثة واتجهوا نحوه من الجهة المقابلة فى الطريق وقال الأول للبرهمى: لماذا تحمل هذا الكلب على كتفك؟ لعلك تحمله لأنه يصلح لقتل الدواب. وانصرف بعد أن فرغ من كلامه. فقال البرهمى لنفسه: ماذا يقصد هذا الشرير؟ ما أعجب قوله إنى أحمل كلبا على كتفى!

والتقى المحتالان الآخران بالبرهمى وقالوا له: أيها البرهمى، ما هذا الأمر المعيب الذى تفعله؟ أهذا الشيء هو الحبل المقدس أم المسبحة أم وعاء الماء المقدس؟ أتحمل على جبهتك شعار البراهمة وتحمل كلبا على كتفك؟ إن هذا لا يليق بك على الإطلاق! ولكن ليس من شك فى أنه كلب بارع فى قتل الأرناب والغزلان والخنازير البرية! وانطلقا إلى حال سبيلهما بعد أن قالوا هذا. فتعجب البرهمى ووضع العنزة على الأرض وأخذ يتحسس جسدها كله جزءا بعد جزء ومر بيده على أذنيها وقرنيها وأعضائها المستورة وذيلها وباقي أعضائها وقال لنفسه: يا للحمقى! كيف يتصورون أن هذه العنزة كلب؟ ووضعها على كتفه مرة أخرى ومضى فى سبيله، وما كاد يسير بضع خطوات حتى قابله المحتالون الثلاثة الآخرون وقالوا له: إيـاك أن تلمسنا! نتح عن طريقنا فأنت أيها البرهمى طاهر فى مظهرك الخارجى فحسب. إنك تحمل كلبا ولا بد أنك صياد! وانصرفوا بعد أن قالوا هذا. عندئذ فكر البرهمى وقال لنفسه: ترى هل فقدت حواسى؟ لا بد أن يكون هؤلاء جميعا على حق. ولا شك أن هناك أمورا غير طبيعية تحدث فى هذا العالم. من يدري؟ لعل هذه العنزة غول اتخذ صورة كلب. وعلى أية حال فإن

الغول يستطيع أن يتخذ شكل كلب. وما أن وصل في تفكيره إلى هذا الحد حتى أطلق سراح العنزة واغتسل ليتطهر وعاد إلى بيته وأخذ المحتالون العنزة وأكلوها.

[نهاية الحكاية ٥]

ولهذا أقول: كثير من الخصوم الذين لا حول لهم ولا طول يمكنهم أن ينجحوا عند بدء الخصومة في خداع عدوهم بذكائهم، كما حدث للبرهمي عندما سلب منه المحتالون العنزة. ومن أجل ذلك يا سيدى فسوف أطرح أمامك رأيى وأرجو أن تفكر فيه ملياً وتفعّل بالضبط ما أقوله لك.

فقال الملك: وما هو يا أبتاه؟

فقال "طويل العمر": مولاي لابد أن تتزع ريشى وتسبني بالفاظ مقذعة وتلطيخ جسدى بدم الذين قتلوا من قبلى، وتقذف بى تحت شجرة التين الهندى هذه بالذات ثم تذهب إلى جبل رشيا موكا وتظل هناك مع أتباعك إلى أن أبداً أنا بوسائل نصت عليها كتب العلم فى السير بهم إلى طريق الفناء. وبعد أن أحقق غرضى أعود مرة أخرى لرؤياك. ويجب ألا تظهر ربحى نحوى أية رحمة.

وبعد أن تم عمل هذا طار "ساحق العدو" عند غروب الشمس وانقض على شجرة التين الهندى نفسها مع حاشيته من المحاربين فلم يجد هناك غراباً واحداً. وهبط من الشجرة وقال لنفسه: ترى أين ذهب هؤلاء الأعداء؟

وفكر "طويل العمر" وهو ملقى لا يراه اليوم تحت الشجرة وقال لنفسه: إذا رحل هؤلاء الأعداء دون أن يكتشفوا ما حدث فأى شيء أكون قد فعلته؟ لقد قيل: إن الأمانة الأولى على الذكاء من غير شك ألا أكون أنا البادئ بالتصرف والأمانة الثانية على الذكاء هى أن أتابع ما بدأت حتى النهاية:

ولهذا قيل: ألا تبدأ شيئاً خير من أن تكف عما بدأت. وأرى أن أكتشف لهم نفسى برفعة عيىرتى ليسمعوا صوتى...

وما أن خطرت لطويل العمر هذه الفكرة حتى أطلق صرخة ضعيفة سمعها اليوم الذين كانوا بالقرب منه وأدركوا أنها صرخة غراب وأبلغوا ذلك لمولاهم. وعندما سمع ساحق العدو هذا النبأ نزل يدفعه الفضول وليتأكد من جلية الأمر بنفسه وقال لوزرائه:

سلوا من هو؟

فقال: أنا طويل العمر.

وعندما سمع ملك اليوم هذا عرته الدهشة وقال: هذا رئيس وزراء ملك الغربان الأثو-ر عنده، فكيف وصل به الأمر إلى هذه الحالة؟

واستوضح منه ما حدث فقال له: اسمع يا مولاي، بعد أن قمتم بما يشبه المذبحة في الغربان وانصرفتم تطلع لون السحاب إلى جنده المحاربين الذين نجوا من المذبحة واغتم غما عظيما وطلب المشورة من وزرائه. ولكي أوجز في رواية حكاية طويلة أقول إنهم كانوا يدبرون للقضاء عليكم فقلت: إنهم أقوىاء ونحن عاجزون، ومن ثم فإن خير ما نفعله على الإطلاق هو أن نخضع لهم فحسب وقد قيل: إن الشخص الذي لا حول له ولا طول يجب ألا يفكر في أن تكون بينه وبين عدو أقوى منه خصومة إذا كان ينشد الخير لنفسه. وإذا حذا حذو القصبه التي تتحنى أمام العاصفة فإنه لن يجرّد من ممتلكاته، وإذا قلد الفراشة التي تحوم حول اللهب فإن القضاء المحتوم ينتظره.

وعندئذ قالت الغربان إنني أتحيز للعدو. ولم يفكروا لحظة واحدة وانقضوا على وتركوني في هذه الحالة التي تجدونني عليها.

وعندما سمع ساحق الأعداء هذا تشاور مع وزرائه بالوراثه: ذى العين الحمراء، وذى العين القاسية، وذى العين الملتهبة، ومعقوف الأنف، وذى الأذن المسورة، وبدأ أولاً بسؤال ذى العين الحمراء وقال له: ماذا نفعل يا سيدى في هذه الظروف فقال: "أى حاجة بنا للتفكير فيما نفعل؟ يجب قتله بلا تردد، لأن العدو الضعيف يجب أن نقضى عليه قبل أن نتاح له الفرصة ليقوى إذ سوف يكون من الصعب إخضاعه بعد أن يستعيد قوته وجرأته.

وفضلا عن هذا فإن هناك مثلاً سائراً معروفاً يقول: إذا أنت ربة الحظ دون أن تسعى إليها وأعرضت عنها صبت عليك لعنتها. وقد قيل: الفرصة لا تتاح إلا مرة واحدة لمن ينشدها ومن الصعب أن يجدها المرء مرة أخرى إذا هم بعمل. ولهذا فإنك بقتل عدوك تظهر مملكتك من الأشواك. وعندما سمع ساحق الأعداء هذا الكلام وجه حديثه إلى ذى العين القاسية وقال له:

وأنت يا سيدى ماذا ترى؟

فأجاب: مولاي يجب ألا يقتل لأنه لاجئ: إن الجبناء الذين يضربون بلا رحمة لاجئين أثخنهم الجراح واستغاثوا بهم مسترحمين جزأؤهم الذهاب إلى روبافا وغيره-ا-م-ن-نيو-ران جهنم.

والذى يحمى لاجئنا خائفاً فزع إليه، يثاب أكثر مما لو قدم جوادا مطهما بعدته الرائعة قربانا للآلهة.

وعندما سمع هذا القول أيضا، سأل ذى العين الملتهبة: وأنت يا سيدى ما رأيك؟ فقال: مولاي، لا شك فى أن اللاجئ يجب ألا يقتل، ولو كان من الأعداء. ومما يروى أن حمامة استضافت عدوها بما يليق به بعد أن طلب منها أن تقبله لاجئا، بل إنها دعتة إلى أن يأكل لحمها.

ألم تسمع حكاية من قال: عجباً، إن من اعتادت أن تجفل مذى دائماً تعانقنى الآن! بوركت أيها المحسن إلى خذ كل ما لدى! ولكن اللص قال له:

لا أرى لديك شيئا أستطيع أن أخذه منك وإذا كان هناك ما أخذه فـ سوف أعـود مرة أخرى إذا لم تعانقك.

فقال ساحق العدو: وكيف كان ذلك؟ فقال:

الحكاية السادسة

* الرجل العجوز والزوجة الشابة واللص

يحكى أن تاجرا نيف على الثمانين عاما ومع ذلك استطاع بفضل أمواله أن يتزوج مـن فتاة. وسرعان ما أدركت أن شبابها ضائع لا محالة لارتباطها برجل عجوز، بينما هـى لمـا تزل فى زهرة الشباب. ومع أنها كانت ترقد على الفراش كل ليلة بجانب زوجها فإنها كانت تدير جسدها الرشيق وتتبعده عنه ولا تحير حراكا وكأنها لوحة مـصورة لا حياة فيها ولا حركة. وكانت جد يائسة. وذات ليلة جاء لص، اعتاد أن يسلب الناس أموالهم إلى هذا البيت. فرأته الزوجة وفزعت منه واستدارت ولفت ذراعيها حول زوجها وتشبثت به. فارتجف جسده بأكمله بنضوة الحب والفرح وقال لنفسه: إن هذا أمر عجيب يفوق الخيال فترى كيف حدث؟ وتطلع حوله وأبصر اللص فقال لنفسه مرة أخرى: إنها تعانقنى بالطبع خوفا منه.

وعندما أدرك هذا قال للص:

أيها الصديق، عجباً! إن من اعتادت أن تجفل منى دائما تعانقنى الآن! بوركت أيها المحسن إلى، خذ كل ما لدى! إلخ.

[نهاية الحكاية ٦]

ففى هذه الحالة نجد أن تقديرا عظيما قد حظى به فاعل أثيم يسلب الناس أمـوالهم فـمـا بالك بامرئ يفزع إليك لاجئا وما دام قد أودى منهم فسوف يساعد على نجاحنا ويعمل معـنا على القضاء عليهم، ولعله يكشف لنا مواطن الضعف فيهم. والراى عندى أن نبقى على حيالته.

وعندما سمع ساحق الأعداء منه هذا سأل وزيره معقوف الأنف: وأنت يا سيدى ماذا ترى أن نفعله فى هذا الأمر الذى نواجهه؟ فقال: مولاي، أرى ألا يقتل، فقد قيل:

قد تجد العون من الأعداء عندما تدب بينهم الشحنة. ولا عجب فقد أنقذ اللص حياة البرهمى وأنقذ الغول حياة بقرتيه.

فقال الملك: وكيف كان ذلك؟ فروى هذه الحكاية:

الحكاية السابعة

* البرهمى واللص والغول

يحكى أن برهميا فقيرا تلقى هدية، وكانت هذه الهدية عبارة عن بقرتين، ربيتهما بـين عجول أطعمت بالسمن والزيت والملح والحشائش وغيرها من الأطعمة المغذية حتى أصدبتا ربلتين. فشاهدهما لص وقال لنفسه: سوف أسرقهما فى هذا اليوم.

وانطلق فى المساء الباكر يسعى لتحقيق غرضه، وبينما هو فى طريقه لمسه كتفه شخص مجهول فسأله فى فزع: من أنت؟ فقال بنبرة تتم عن الصدق: أنا غول من أكلة البراهمة أطوف بالليل. والآن عليك أنت أيضا أن تقول لى من أنت؟ فقال: أنا لص. فسأله الغول مرة أخرى: وإلى أين أنت ذاهب؟ فقال: فى نيتى أن أسرق بقرتين من برهمى.. وأنت إلى أين تذهب؟ وكان الغول قد اطمأن أيضا إلى صدق محدثه فقال: أنا أيضا ذاهب لأقبض على شخص ذلك البرهمى.

وعندئذ انطلقا معا ولبثا يترقبان اللحظة المناسبة. وما أن ذهب البرهمى لينام حتى أخذ الغول يزحف ليقبض عليه أولا فقال له اللص: لا تفعل فليست هذه هى الطريقة الصحيحة، وانتظر حتى أسرق أنا البقرتين وعندئذ تستطيع أن تقبض عليه. فقال الغول: وهذا أيضا خطأ، إذ ربما يوقظه صياح البقرتين وعندئذ أكون قد جئت إلى هنا لأعود بخفى حنين. فقال اللص: إذا قبضت عليه ونهض وأطلق صرخة استغاثة فسوف يستيقظ لها كل إنسان، وعندئذ لن أستطيع أن أسرق بقرتيه. والرأى عندى أن أبدأ بسرقة البقرتين وبعد ذلك تستطيع أن تلتهم البرهمى.

وبينما هما يتنازعا على هذا النحو استشاط كل منهما غضبا وأيقظا، ففى غمرة صراعهما، البرهمى. فقال اللص: أيها البرهمى إن هذا الغول أكل البراهمة يريد أن يقبض عليك. فقال الغول أكل البراهمة: وهذا اللص يريد أن يسرق بقرتيك.

وعندما سمع البرهمى هذا نهض واتخذ جانب الحذر فأنقذ نفسه من الغول بتلاوة مانترا رب طائفته وأنقذ بقرتيه بالتلويح بهرواته وفر اللص والغول لا يلويان على شيء.

ولهذا أقول: قد تجد العون من الأعداء عندما تدب بينهم الشحنة، ولا عجب فقد أنقذ
اللس حياة البرهمي، وأنقذ الغول حياة بقرتيه. وفضلا عن هذا:

يروى أيضا كما تعرف أن شيبى الفاضل النبيل منح لحمه للصقر لينقذ الحمامة. ولهذا
ينبغي ألا تقتل اللاجئ.

وعندئذ سأل الملك ذا الأذن المسورة فأبدى له النصيحة نفسها. وعندئذ نهض ذو الع-ين
الحمراء وابتنس بينه وبين نفسه ابتسامة ساخرة وقال: وا أسفاه، لقد قضيتم على مولانا بفضل
سياستكم السيئة. وقد قيل:

إن الأحقق تخدعه الكلمات المعسولة. ولو رأى الأذى بعينيه. ألم تر كيف حمل النج-ار
زوجته مع عشيقها فوق رأسه. فقال الجميع: وكيف كان ذلك؟ فرد قائلا:

الحكاية الثامنة

* النجار القواد

يحكى أن نجارا كان يعيش فى إحدى المدن مع زوجته-ه الحبيبة-ة. وأبلغ-ه الأصد-دقاء
والأقرباء جميعا أنها امرأة غير عفيفة، فأراد يوما أن يستوثق من الحقيقة وق-ال: عزيزتى،
هناك قاعة للملك يجرى بناؤها فى قرية بعيدة ولا بد أن أذهب إلى هناك غدا. وسوف أمضى
هناك أياما. فهيا أعدى ما يلزمنى من مؤن لرحلتى.

فقامت وأعدت له ما طلب وهى مسرورة. وعندما فرغت من ذلك أخذ أدواته ومؤن-ه
وقال لها وهو يهم بالخروج فى الساعة الأخيرة من الليل: أن لى أن أذهب يا عزيزتى! فاغلقى
الباب! بيد أن النجار عاد دون أن تعلم ودخل بيته من الباب الخلفى واختبأ هو وصبيه تح-ت
الفرش. ومهما يكن من شىء فإنها ابتهجت عندما فكرت فى أنها تستطيع أن تلتقى بع-شيقها
فى هذا اليوم دون أى عائق وأرسلت وسيطتها لتستدعى عشيقها وبدأ يأكلان ويقصفان وما إلى
ذلك بسبيل دون أن يتطرق إلى قلبيهما الخوف من وجود رقيب فى ذلك البيت وقبل أن يطفئ-ا
شهوتهما اتفق أن لمست المرأة ركبة النجار وهى تتحرك فقالت لنفسها: لا شك أن ه-ذا ه-و
زوجى النجار! فماذا عساي أن أصنع؟

وفى تلك اللحظة ناشدها عشيقها قائلا: "هلا قلت لى يا عزيزتى من تحبين أكثر، أنا أم
زوجك؟" فقالت تلك المرأة سريعة الخاطر: ما أسخف ه-ذا ال-سؤال! إن الذ-ساء ب-الطبع لا
يتمسكن كثيرا بالأخلاق ويفعلن كل ما يخطر لهن على البال، وقصارى القول لو لم تكن له-ن
أنوف لأكلن الروث طائعات ولا شك، وهذه العبارة المقتضبة تلخص القصة بأكملها ولكننى إذا
ما سمعت أن شرا ولو يسيرا قد حاق بزوجى فسوف لا أتردد فى الذ-ضحية ل-ه بروح-ى.

وخذعت هذه الكلمات الكاذبة التى أطلقتهى المرأة الوقاح قلب النجار وقدّال لتلميذ: ذه: فلـ تعش زوجتى الحبيبة المخلصة الوفية! لسوف أكرمها أمام عيون الناس جميعا. وما أن انتهى من قوله هذا حتى رفعها هى وعشيقتها، وهما راقدان على الفراش، فوق رأسه وجرى بهما فى طريق الملك وغيره من الطرقات والناس تسخر منه.

[نهاية الحكاية ٨]

ولذا أقول: إن الأحقق تخدعه الكلمات المعسولة ولو رأى الأذى بعينه. ألم تـ ر كيف حمل النجار زوجته وعشيقتها فوق رأسه؟

ولهذا فإننا هالكون لا محالة وسوف يقضى علينا قضاء مبرما من الأصول إلى الفروع. إنهم فى مظهرهم الخارجى وزراء بيد أنهم أعداء، وعلى العاقل أن يقبض على أولئك الذين ينصرفون عن السياسة الرشيدة ويمارسون نقيضها. الموت حق على الناس جميعا وحدى النبلاء يلقون حتفهم ويختفون من الوجود كما يتبدد الظلام بشروق الشمس، إذا تناسوا المكاسب المناسبة والزمان الملائم للعمل بسبب انصياعهم لمشورة وزير أحق.

بيد أن ملك اليوم لم يعر كلماته التفاتا وأمر بحمل طويل العمر إلى قلعته. وقال طويل العمر فى تلك اللحظة: مولاي، لماذا تأخذنى، ما دمت لا أصلح لشيء وأنا فى هذه الحالة؟ أى فائدة لى فى أن أعيش بعد هذه المحنة التى حلت بى؟ أرجو أن تصدر أمرك بإشعال نار لألقى بنفسى فيها. فقال ذو العين الحمراء وكان قد أدرك غرضه الخفى: ولم تريد أن تلقى بنفسك فى النار؟ فقال: ولم لا؟ لقد هبطوا بى إلى هذا الدرك بسببك وأود أن أولد من جديد على هيئة اليوم، وذلك بتقديم جسدى قربانا للنار، لعل أسدد للغربان ما أدين لهم به من ضغينة.

فقال ذو العين الحمراء: إن كلامك هذا يحمل معنى خفيا وهو مثل الخمر المزوجة بالسّم، مذاقها فى مبدأ الأمر يبعث على البهجة ولكن ليس من السهل التنبؤ بما يترتب بعد ذلك.

من المستحيل أيها الشرير أن تولد من جديد فى صورة اليوم ولا يمكن التفكير فى ذلك، لأن الفأرة العذراء عادت إلى طبيعتها كما كانت بعد أن رفضت الشمس والدسحاب والريح والجبل أن تكون زوجا لها، ولأن من الصعب التغلب على الطبيعة.

فقال: وكيف كان ذلك؟ فقال ذو العين الحمراء:

الحكاية التاسعة

* الفأرة العذراء

يحكى أن حكيما فى أحد الأقاليم هم يوما بأن يعضض فمه بعد أن اغتسل فى نهـر الكنج وإذا بفأرة تسقط من فم صقر وتهوى بين يديه. وعندما رآها وضعها فى ورقة شـجرة تين هندی وقام بطقوس الاستغفار وما ينبغى لها وقفل راجعا إلى بيته. وعندما تذكر الفأرة قال فى نفسه: أتيت أمرا إذا بتركى الفأرة الصغيرة التى فقدت أباهـا وأمها وكنت فى هذه أئما لأنها الآن فى كنفى.

وما أن فكر على هذا النحو حتى عاد وحول الفأرة إلى فتاة عذراء بقوة التوبة وأخذها إلى بيته وقدمها لزوجته، وكانت عقيما لم تتجب وقال لها: عزيزتى إليك هذه الابنة خـذها ورببها أحسن تربية.

وأنشأتها زوجة البرهمى مذ ذاك ورعتها رعاية الأم الرعوم. ومرت الأيـام ووصلت الفتاة سن الثانية عشرة فبدأ الحكيم يفكر فى زواجها وقال فى نفسه: من الخطأ أن أدع فتـرة بلوغها تمر، فهذا سوف يكون من جانبى إئما لا يغتفر.

وقد قيل:

إذا وصلت عذراء إلى سن البلوغ فى بيت أبيها دون أن تتزوج فإنها تعد غيـر أهـل للزواج ويعد والدها من المسودرا^٨ ولذلك ساعد لها على زوج قوى يستحقها عن جدارة. وقد قيل:

يجب ألا يكون هناك زواج أو صداقة إلا بين شخصين متكافئين فى المستوى والأصل، وينبغى ألا يكون بين عليـة القوم والسفلة.

واستدعى الشمس المبجل ذا الألف شعاع وقال له: أنت قوى السلطان فتـزوج ابنتـى! ولكن الرب المبجل، حامى العالم، الذى يرى كل شىء فى الحال، رد عليه قائلا: أيها الـسيد المحترم، إن السحاب أقوى منى فهو يحجب ضوئى فلا يرانى الذـابـس. فقـال الحكـيم: هـذا صحيح! واستدعى السحاب وقال له: خذ ابنتى! فقال: إن الريح أقوى منى فهو يهب هنا وهناك فى كل اتجاه.

فاستدعى الريح أيضا وقال: خذ ابنتى! وعندما سمع الريح ذلك قال لـه: أيها الـسيد المحترم إن الجبل أقوى منى لأنى لا أستطيع أن أحركه قيد أنملة.

^٨ من أفراد أدنى الطوائف.

وعندئذ استدعى جبلا وقال له: خذ ابنتي! فقال: نحن الجبال حقاً ثـ. ابنتون لا ننزعـ. زرع ولكن الغنران أقوى منا فهي تحفر فينا جحورا لها لا حصر لها في كل جهة. وعذـ. دما سدـ. مع الحكيم هذه الكلمات استدعى فأرا وقال له: خذ ابنتي! فقال له: هذا أمر لا سبيل إليه إذ كيـ. ف تستطيع ابنتك أن تدخل جحري؟ فقال الحكيم: هذا صحيح كل الصحة. وحول الفتاة إلى فارة مرة أخرى بقوة التوبة وأعطاهما للفار.

[نهاية الحكاية ٩]

ولهذا أقول: الفارة العذراء عادت إلى طبيعتها كما كانت بعد أن رفـ. ضت الـ. شمس والسحاب والرياح والجبل أن تكون زوجا لها ولأن من الصعب التغلب على الطبيعة. ولم يعر ملك اليوم، مع ذلك، التفاتا لكلمات ذي العين الحمراء بل أخذ طويل العمر وذهب به إلى معقله فكان السبب في القضاء على عشيرته. وبينما كان طويل العمر في طريقه إلى هناك قال لنفسه وهو يبتسم:

إن من أثار بقتلى كان ينشد مصلحة مولاه وهو الوحيد بين الوزراء الذي يعرف تدبير الملك.

ولو أنهم أصاخوا السمع إليه لخابت آمالي. وعندما وصلوا إلى مدخل المعقل قال ساحق الأعداء لوزرائه: دعوا طويل العمر يقيم حيثما يحلو له. وحدد طويل العمر مسكنه في مدخل المعقل وهو يفكر في أنه بذلك يسهل عليه الهرب في الوقت المناسب. وأخذت طيـ. ور البـ. وم تتطلق كل يوم كما نشاء في رحلات تعمل فيها يد السلب والنهب.

وعندما تكتفى من الطعام تحضر لحما وفيرا وتقدمه لطويل العمر تنفيذا لأمر ملـ. يكهم. ولم يعجب هذا التصرف ذا العين الحمراء فاستدعى أقرباءه وقال لهم: أرى أنذـ. ا هـ. الكون لا محالة في القريب العاجل بسبب هذا الغراب. وليس من الحكمة في شيء أن نظل في المكـ. إن نفسه ونشارك هؤلاء الحمقى مصيرهم المحتوم. والرأى عندي أن نبحث عن كهف جبلي آخر ونقيم هناك في سلام.

وما أن قال ذو العين الحمراء ذلك حتى رحل مع أتباعه إلى مكان آخر.

واستعاد ذلك الغراب طويل العمر قوته ونبت ريشه في وقت قصير وأصدـ. بح جـ. سده جميلا مثل جسد الطاووس. وعندما علم بكل شيء عن العدو قوته وجراءته ومـ. واطن القـ. وة والضعف في معقله الحصين ومسكنه وطرق الدخول إليه قال لنفسه: لقد تجسـ. ست وعرفـ. ت مدى قوتهم وسلطانهم وتفاصيل بناء معقلهم وكل ما يتعلق به. وعلى الآن أن أعمل بلا تـ. وان على هلاك أعدائنا.

وعندما طافت برأسه هذه الأفكار، أراد أن يوقع باليوم مذبحة رهيبة فملأ الجحور فـى مدخل معقل اليوم بالنفائيات وانطلق مسرعا إلى لون السحاب. وما أن رآه لون السحاب حذـى عائقه فى شوق وسأله عما حدث فقال طويل العمر: مولاي، ليس هذا هو الوقت المناسب لرواية مغامراتي. إن الوقت يمر بسرعة وأرجو أن يأخذ كل منكم عصا من الخشب ويذهب إلى معقل اليوم وسوف أجيء معى بشعلة. ولننطلق جميعا بأقصى سرعة ونحرق الدار وفيها كل الأعداء.

وصدعوا جميعا بأمره ونفذوا خطته ووضعوا خشبا سريع الاشتعال ومـا أشد به فـى الجحور الممتلئة بالنفائيات وأضرموا فيها النار. وهكذا قضى الغراب بضربة واحدة على كل أعدائه فلم يبق لهم أثر.

وهكذا أحرق طويل العمر معقل أعدائه ولم يسلم من الحريق حتى الثعابين التى تـسعى فى الأرض ونجح فى تحقيق غرضه كاملا وأعاد تتصيب لون السحاب ملكا على الغربان بكل ما كان له من سلطان فى شجرة التين الهندى ذاتها على أنغام الموسيقى التى كانت تـصـدح معبرة عن التهنئة والرخاء والنجاح. وعندما رأى لون السحاب أن أعداءه قد هلكوا أسبغ على طويل العمر كل الشرف وقال له فى فرح عظيم: أبتاه، كيف أمضيت وقتك عندما كنت فـى وسط الأعداء؟ لقد قيل:

أجل، إن من ينشدون الصدق فى أفعالهم خير لهم أن يلقوا بأنفسهم فى نار ملتتهبة من أن يتحملوا ولو لحظة واحدة صحبة عدو.

فقال طويل العمر: سيدى على العاقل، عندما يتهدد الخـطـر أن ينتهج أى الـسـبـل التـى توصله إلى شاطئ الأمان مهما لاقى فى هذا السبيل من مشاق. ألم يزين أرجونا المتوج، كمـا تفعل النساء، ذراعيه بأساور تشبه خراطيم الفيلة، بدل أن يمـسـك بهما أسلحة ماضية وتظهر عليها سمجات من وتر القوس؟

على العاقل، ولو كان قويا أن يصبر ويحتمل صروف الزمان بل وأن يصاحب قوما من الأخساء الأشرار ويكون صلبا لا تلين قناته ويستطيع أن يتحمل الصاعقة. ألم يعمـل بهيمـا القوى بيديه مع الطهارة فى بيت الملك متسيا، أولم تتلوث يداه بالدخان، أولم تذوي مـن الجـهـد الذى بذله فى استخدام ملاعق الطهى؟

على الرجل الذكى الذى يصبر على ضربات القدر أن يؤدى بنفس راضية كل عمـل سواء أكان سارا أم كريها وأن يقوم به بالهمة نفسها عندما تحل به محنة. ألم يرتد أرجونـا الأشول زنار امرأة به جلاجل؟ أولم يلبس ثوب اللعيب على الرغم مـن أن ذراعيه كانت مشغولتين بتوجيه ضربات مجلجلة من وتر قوس جندبقا (قوس أرجونا) العريض المختلج؟

على العاقل، الذى ينشد النجاح، أن يطرح كرامته جانباً، ولو كان شجاعاً جريئاً، ويقف ليحسب بعناية خطواته القادمة فى الظروف التى رسمها القدر. فقد تلقى ابن ذرم -الدهشيري (بذشتيرا) فروض الاحترام من إخوته الذين كانوا مثل اندرا ملك الآلهة وكوبرا إله الذروة وياما إله الموت. أولم يحمل مع ذلك فترة طويلة عصا البراهمة المثلثة وهو فى محنته؟

إن ابني مادري (تكوله وسهادنيا) كانا يتمتعان بالجمال والنبل وكانا موه-وبين ب-أرفع الصفات، ومع ذلك التحقا بخدمة قراطه وكانهما دابتان من قطعان أبقاره وخيوله.

إن درويدى كانت تنعم بجمال لا يضارع وبكل ما فى الشباب من صفات رائعة، وكانت تتحدر من أسرة عريقة بل إنها كانت مثل ربة الحظ نفسها ومع ذلك ف-إن عذ-رات الزم-إن أوصلتها بسلطان القدر كما تعرف، إلى أن تضرب عجيب خشب الصندل فترة طويلة فى قصر الملك متسيا، وكانت تصدع لأوامر فتيات متعاليات وقحات ينادينها بالفتاة "الخادمة". وقال لون السحاب: يخيّل إلى أن صحبة العدو كالوقوف على حد السيف؟ فقال طويد-ل العم-ر: ه-ذا صحيح يا مولاي، ومع ذلك فعندما يجد العاقل نفسه مجرداً من القوة يجب أن يتحمل ه-ذه الصحبة دون أن يكشف عن حقيقة مشاعره ويتظاهر بأنه صديق ويصبر على صروف الزمان ويستتر ضعفه بالتظاهر بالمودّة.

والآن لكى أوجز فى القول أقرر أنى لم أر قط من قبل مثيلاً لتلك الجماعة من الحمقى-ى ولم أحترم منهم غير ذى العين الحمراء. لقد أدرك بالضبط ما كنت أضمره فى قلبى. ومهم-ا يكن من أمر فإن الآخرين كانوا وزراء بالاسم فحسب. فأى فائدة لهم. وكيف لم يعرفوا ه-ذه الحقيقة البسيطة: إن التابع الذى يفد من معسكر العدو وهو يتلطف للإقامة مع أعدائه ال-سابقين لا فائدة منه بسبب ما يثيره وجوده من قلق مستمر. ومثله فى ذلك مثل الحياة مع الثعبان.

مثل الفشل الذى يؤدى إلى الدمار الشامل ويستمر خطره إلى وقت متأخر مثل الم-رض الذى يصيب أوراق التوت، التى تتغذى بها دودة القز، مثل الحمامة التى تأكل بذور ثمرة م-ن شجرة تين هندی.

إن الأعداء تمنح لهم الفرصة لضرب خصومهم - إذا لم يحترسوا مما يرون وم-ا لا يرون - عندما يجلسون أو يرقدون أو يسيرون أو عندما ينشغلون بتناول الطعام وال-شراب. ولهذا فإن على العاقل أن يحترس لنفسه وأن يسهر عليها كما يحرس مسكن "جماعة الثلاثّة" لأن الإهمال يؤدى إلى التهلكة. وفى هذا قيل وما أحسن ما قيل:

عندما لا يقدم للمرء رأى الصائب فإنى له أن يفلت من أخطاء السياسة؟ ومن ذا ال-ذى ينجو من الأمراض إذا تناول طعاماً ملوثاً؟

ومن لا يكون وقحا عندما يصادفه الحظ الحسن؟ ومن ذا الذى يستطيع أن ينجو من برائن الموت؟ ومن ذا الذى لا تفتته النساء؟

إن الرجل المتعطر يفقد سمعته والرجل المذبذب يفقد صديقه. ومن يجهل الطقة وس المقدسة يفقد أسرته والمنتهف على النجاح الدنيوى يفقد دينه والشرير يفقد ثمار العلم، والبخيل يفقد السعادة، والملك الذى يستعين بوزراء مهملين يفقد ملكه. إن النار لتسرى بسرعة فى الخشب شديد الاشتعال والكدر يسرى بشدة فى نفوس الحمقى، والغضب فى أصحاب النزوات، والحب فى قلب الوسيم والحكمة فى عقل الذكى والعدل فى حكم من يتحلّى بالرفق والرحمة والعزة فى نفس النبيل.

والآن أيها الملك، لقد صدقت عندما قلت إن صحبة الأعداء مثل الجلوس على حافة السيف وأنت بهذا القول تثبت أنك حكيم ومهما يكن من أمر فإن:

الرجل العاقل قد يحمل عدوه على كتفه ليحقق غرضه ولا عجب فقد حمل ثعبان الكوبرا الضفادع وقضى عليها.

فقال الآخر: وكيف كان ذلك؟

فقال طويل العمر:

الحكاية العاشرة

* الضفادع تركب الثعبان

يحكى أنه كان هناك ثعبان من ثعابين الكوبرا بلغ من الكبر عتياً، وكان يدعى "ضد-عيف الناب" فقال لنفسه: وكيف أستطيع أن أعيش مرتاح البال بهذا الأسلوب من الحياة؟ وذهب إلى بركة فيها ضفادع كثيرة واتخذ مقعده على الشاطئ وتظاهر بالحزن والأسى. وبينما هو جالس هكذا سأل ضفدع وهو يضرب فى الماء: عماه لماذا لا تبحث اليوم عن طعام كما اعتدت أن تفعل؟ فقال يا صديقى، كيف تساورنى أية رغبة فى الطعام وأنا بئس كما ترى؟ وهاك السبب فى بؤسى: فى الليلة الماضية وبينما كنت أبحث عن الطعام فى بواكير المساء أبصرت ضفدعا واستجمعت قواى وتأهبت للانقضاض عليه والإمساك به ولكنه رآنى وهرب خوفاً من الموت واندس وسط جماعة من البراهمة كانوا منهمكين فى تلاوة بعض الذصوص المقدسة ولم أعرف أين ذهب وأخذت أبحث عنه وخيل إلى أنى عثرت عليه فعضضت ابن أحد البراهمة فى اصبع قدميه بعد أن ضللنى شبهه بالضفدع، فمات لساعته. وطغى الحزن على أبهى ولعنى قائلاً: أيها الشقى ما دمت قد عضضت ولدى وهو لم يلحق بك أى أذى فسوف تصبح مركباً.

للضفادع بسبب ما اقترفت من جريمة. ولن تحصل على قوت يومك إلا مما يجود به عليه. ك الضفادع. ولهذا أتيت لكي تمتطوا ظهري.

فأبلغ الضفدع ذلك للضفادع الأخرى فابتهجوا أيما ابتهاج وانطلقوا جميعا وأبلغوا النبأ. لملك الضفادع وكان اسمه "قدم العنكبوت". وعندئذ أقبل هو وجميع وزرائه في لهفة عظيمة وعدوا هذا حدثا عظيما. وصعد ملك الضفادع خارج البركة وامتطى ظهر الثعبان بنفس راضية. وأقبل في أثره الآخرون وجلس كل بدوره طبقا لمراتبهم. ولم يستطع بعضهم أن يجد له مكانا فجرى وراءه وقام "ضعيف الناب" بحركات مختلفة لكي يحقق مصالحه. وقال "قدم العنكبوت" للثعبان:

إن السفر على ظهر "ضعيف الناب" يناسبني أكثر من السفر على ظهر فيل أو عربة أو جواد أو على عربة يجرها رجل أو في قارب.

وفي اليوم التالي تظاهر "ضعيف الناب" بأنه منهوك القوى فقال له "قدم العنكبوت":

أيها الصديق، لماذا تسير اليوم في بطة ولا تمشي كما كنت تفعل من قبل؟

فقال: مولاي ليس لدى قوة لأحملك اليوم كما حملتك من قبل بسبب قلة ما أصبت من طعام. فقال "قدم العنكبوت": أيها الصديق، كل بعض صغار الضفادع، فقال: لقد أردت أن أفعل هذا ولكنني لا أستطيع أن أكل إلا ما تجودون به على بناء على أوامر جلالته. وهكذا ترون أن حياتي رهن بإشارة منكم.

وبدا مذ ذاك يلتهم من الضفادع ما شاء. وفي خلال بضع أيام تجددت قواه فابتسم لنفسه في رضى وقال: لقد حصلت لنفسى بخدعة على طعام مضاعف من الضفادع. ترى متى يندثرون بعد أن أتى عليهم جميعا.

وعندما سمع "قدم العنكبوت" هذا ثارت شكوكه وعجب مما قال فسأله: ماذا قلت؟ فقال الثعبان وهو يخفى ما ينم عنه ملامحه: لا شيء. وعندما أمره بالحديث مرة أخرى قال: مولاي، هذا ما قلت:

لا يعرضن إنسان نفسه للعنة من أحد البراهمة! فخير له أن يتحول إلى قنّة جبل وعرة أو شجرة يصيبها شواظ من برق لافح.

وعلى الرغم من كل هذه الأشياء فإن "قدم العنكبوت" لم يدرك تماما ما يعنى لأن عقله ضلّته هذه الكلمات المعسولة.

وقصارى القول إن هذا الثعبان استطاع أن يلتهم الضفادع جميعا فلم يبق منها أثر.

[نهاية الحكاية ١٠]

ولهذا أقول: الرجل العاقل قد يحمل عدوه على كتفه ليحقق غرضه ولا عجب فقد حمل ثعبان الكوبرا الضفادع وقضى عليها. وهكذا أيها الملك قضيت على أعدائنا جميعا كما قد قضى "ضعيف الناب" على الضفادع.

أقول:

إن النار التي تضطرم في الغابة تحرق كل شيء ولا تبقى على غير الجذور أما فيضان الماء فإنه يمزق الأشجار ويقتلعها من جذورها ويأتى على كل شيء على الرغم من أنه معتدل ملطف للهواء.

فقال لون السحاب: هذا صحيح. وأضيف إلى ذلك ما قاله بعض الحكماء:

إن مصدر العظمة عند الرجال الذين يتحلون بحسن السياسة أنهم لا يتخلون عن تبعه ما اضطلعوا به من أعمال، حتى عندما تواجههم الصعاب.

وعلى هذا فأنت يا سيدى الذى قضيت على أعدائنا القضاء المبرم.

فقال: هذا ما كان. وقد قيل:

على العاقل أن يقضى على البقية الباقية من دين أو نار أو مرض أو عدو ولا يترك لها أثرا، وهو إن فعل ذلك فلن يفشل أبدا. مولاي، إن الحظ يؤثرك بعونه على غيرك. وكل مـا يقوم به الناس من أجلك يكتب له النجاح. وقيل أيضا:

على المرء أن يجمع بين القوى وصاحب الحيلة، وبين صاحب الحيلة والناشط الهمـام فكل هذين خليقان بالنجاح إذا اعتدلا في نفقاتهما.

أى شيء يعز على المرء الذى يتحلى بضبط النفس والصدق والعقل والعزم؟

من لا يجزع عندما يواجه المتاعب ولا يغلبه الفرح عندما يتحقق له النجاح ومن يضبط نفسه عند الغضب ويتوسل بالحلم ويعرف الوقت المناسب لبذل الجهد والعناء ومـن يحدـر ص على إخفاء الفضيحة ويعرف مواطن الضعف لخليق بأن يظل الحظ له خادما، ما انتهج هـذا السلوك وعرف كيف ينظم أفكاره.

من أنا؟ وما هو الزمان الحاضر وما هو المكان الحالى، وأى الفضائل أو الرذائل تـبـدو على؟ ومن هم أعدائى ومن هم حلفائى، وأى قوة لدى، وأى وسيلة عندى لتنفيذ خطة نافعة؟ وأى رصيد من الحظ الحسن لدى؟ وإلى متى يلازمنى التوفيق؟ وماذا يكون ردى إذا عرض الناس عن كلامى؟ إن الأخيار الذين لا يشغل فكرهم غير النجاح وحده لا يخيب أملهم أبدا.

والإقدام فى حد ذاته لا يكفى وحده لتحقيق ما يصبو إليه المرء من نعيم. وقد قيل: إن الأعداء الذين يقتلون بالسيف لا يقتلون أما الذين يقتلون بالحكمة فهم الذين يقتلون حقـا، ولا

تقوم لهم قائمة بعد ذلك أبدا. فالسيف لا يقتل سوى الجسد، أما الحكمة فإنها تقضى على قبيـل المرء وسلطانه وشهرته.

قد يقتل سهم يطلقه أحد الرماة رجلا، وقد لا يقتله، أما الحيلة البارعة، التى يتوسل بهـا رجل ذكى فإنها قد تقضى على مملكة بأسرها هى ومليكها. وعلى هذا إذا حالف القدر رجـلا وقام بجهد يكافئ رجولته فإنه يوفق فى كل أعماله، ما دام ذكاؤه يسعفه فى الدـال بالذـدبير المناسب للعمل الذى يضطلع به، وما دام حاضر الذهن على الدوام، وإن الثروة لذـأتى إليهـه طائعة مختارة ولا تتحرف خططه عن طريقها المرسوم وهو خليق بأن تتحقق جميـع آمالـه. وإذا كان الأمر كذلك فليس فيه ما يثير الدهشة. إن هذا الرجل يبلغ مقاما رفيعا ويجد المتعة فى النهوض بأعمال تكسبه ذبوع الصيت. وهو الرجل الذى اختاره القدر!

وعلى هذا فإن الملك لمن يتمتع بحرية الفكر ويتحلى بالحكمة والشجاعة. وقد قيل: يربط الناس أنفسهم بالرجل ذى الفكر الحر الشجاع الحكيم وهؤلاء الناس يصبحون مـن الأتباع. والثروة تأتى لمن له أتباع ومن الثروة يأتى الجاه، ومن الجاه يأتى السلطان، ومـن الـسلطان يأتى الملك.

فقال لون السحاب: أبتاه، ما أسرع ما ظهرت فوائد علم تدبير الملك. لقد وجدت بفضل نهجك السياسى السبيل إلى قلب ملك اليوم ساحق الأعداء فقضيت عليه هو وأتباعه جميعا.

فقال طويل العمر: إن من حسن السياسة أن تبدأ أولا بالخضوع للوصول إلى غرض لا يستطيع تحقيقه إلا بالعنف. ألا ترى أن الشجرة السامقة بقمته العالية وهى أنبل مـا أنجبتهـه الغابة لا تقطع إلا بعد أن تقدم إليها فروض الاحترام.

ولكن أى فائدة يا مولاي فى الكلمات التى لا تتيح فى النهاية فرصة للعمل؟ وما أحـسن ما قيل: إن الكلمات التى تصدر من رجال خائرى العزيمة يخشون الجهد والنصب، ولا هـم لهم إلا تسلية أنفسهم بالثرثرة الجوفاء، ولا تؤدى فى آخر الأمر إلا إلى خيبة الأمل وذـصبح أهدافا للسخرية فى العالم.

على العقلاء ألا يستهينوا بالأمور ولو كانت ضئيلة الأهمية. ولهذا السبب ينظر بعـض الناس إلى الواجبات المفروضة عليهم ولسان حال كل واحد منهم يقول:

فى وسعى أن أعمل هذا.. إنه أمر هين من اليسير عمله.. إنه لا يحتاج منى إلى عناية. وبعضهم يتردون فى وهدة الحزن الذى سرعان ما يلم بهم عند وقوع مكروه بسبب تذـبطهم فى لجة الإهمال.

والآن وقد قضى على الأعداء مولاي، فإن فى وسعه أن ينام هادنا قرير العين ويعـيش فى سلام إلى أن يبلغ من العمر أرذله.

وفى هذا قيل:

يستطيع المرء أن ينام فى هدوء وسلام فى بيت لا يضم ثعبانا أو فى بيت قـضى فيهـ
على الثعابين ومن العسير أن يذوق المرء طعم النوم فى بيت رأى فيه ثعبانا أفلت من الموت.
أنى للرجال الذين يحفزهم الطمع والكبر والإقدام أن يجدوا فى قلوبهم التى نفذ صدـبرها
موضعا للرضا، اللهم إلا إذا فرغوا من أداء العظائم من الأعمال التى تتطلب جهودا موصولة
مضنية، تباركها دعوات أحبائهم... جهودا تتطلب أعظم قدر من البراعة والجرأة التى تحقق
لهم رغباتهم.

والآن وقد أتممت العمل الذى بدأت به خيل إلى أن نفسى سوف تنعم بالراحة. فقال لـون
السحاب: وكيف ذلك؟ فقال طويل العمر: مثل القلب الذى شفى من الحمى والجسد الذى خـف
بعد أن ألقى عن كاهله حمل ثقيل، مثل الروح التى تصبح أخف عندما يعبرـر المـرء بحر
المتاعب ويتحقق غرضه الذى أقسم على أن يظفر به من عدوه.

والآن بعد أن هلك أعداؤك فإن عليك أن توقف حياتك على حماية رعايـاك ولتـستمع
طويلا بهذه المملكة فى ظل عرشك الجليل الذى توطدت أركانه، ليتوارثه من بعدك أبـنوك،
وأبناء أبنائك. وقيل أيضا:

إن الملك الذى لا يسعد رعاياه بحمايتهم والإنعام عليهم لا فائدة منه، ومثله مثل حلمة
الثدى على عنق العنزة.

والملك الذى يحب الفضائل ويمقت الرذائل وتبهرجه السياسة الرشيدة يتمتع طويلا بجلال
الملك الذى يبدو فى شاراته الثابتة وعرشه المزين بالمظلة البيضاء.

ويجب ألا تغتر بالحظ السعيد وتقول لنفسك: لقد دانت لى المملكة. واعلم أن حظـوظ
الملوك لا تثبت على حال. فقال لون السحاب: وكيف ذلك؟ فقال طويل العمر: إن ربة حظ
المملكة عرضة لأن تكبو فى اللحظة التى تمتطى فيها، مثلها فى ذلك مثـل قـصبه خـدـر
عندما بهم امرؤ بتسلقها. إنها مثل الزنبق من الصعب إمساكها ولو بذل فى سبيل ذلك الجهـد
الجهيد ومهما ألححت جادا فى طلب رضاها فإنها تتخلى عنك فى النهاية، لأنها مذبذبة سرعان
ما تغير رأيها مثل أمير القردة... إنها مثل خط من الماء على ورقة زهرة النيلور الهـذى لا
يلتصق بها... وهى غير ثابتة مثل مجرى الرياح ولا يعتمد عليها مثل التحالف مع اللـذام، ولا
تجد الرحمة إلى قلبها سبيلا مثل السحب فى السحر، وهى فانية بطبيعـها مثـل صدـف مـن
الفقاعات فى الماء. وهى لا تبدى اعترافا بالجميل لما يبذل من أجلها مثل طبيعة الجسد، وهى
تختفى فى اللحظة التى تظهر فيها مثل الثروات الطائلة التى يحصل عليها الإنسان فى الحلم.

وقصارى القول:

إن الملك ما أن ينصب على عرش مملكته حتى يرى لزاما عليه أن يصرف ذهنه كله إلى الأخطار التي تهدده لأن أوعية الماء المقدس التي تستخدم عند التتويج يصب على الملك المصائب مع الماء.

وليس ثمة رجل مهما كانت منزلته، لا يتعرض للكوارث والمحن. وقد قيل:

عندما يفكر المرء في نفى راما وإذلال مالى وإقامة أبناء باينو في الغابة والقضاء على فرشنش وفقد الملك نالا لمملكته وظهور فشنو في هيئة قزم وقتل أرجونا وما حدث لرافنا سيد سيلان - فإن من الواضح أن كل ما يحل بالإنسان إنما يحدث له بقوة القدر. ولا يستطيع أحد أن ينقذ منه آخر. إلى أين ذهب دشرتأ صديق ملك الآلهة الذى حارب فى السماء؟ وإلى أين ذهب ملك سجرا الذى سيطر على فيضان البحر؟ وإلى أين ذهب ابن فينا الذى خرج من راحة يد أبيه؟ وإلى أين ذهب مالو لحم الشمس ودمع؟ ألم يغلق الدهر الغاشم الآن عيونهم التى كان قد فتحها؟ أين الملك والوزراء والهوريات الحسان والمنتزهات وبساتين اللذات، الذى بكاه الرجال فى الزمن القديم؟ إنها كلها... كلها التهمت بها أنياب الموت.

إن العلم زينة العقل ورذيلة الحمق، وهو مثل الماء الذى يسيل من أذن الفيل وماء النهر والقمر بالليل وتأمل الزهاد ذوى الحزم والسياسة الرشيدة للملك.

إن الفرح نقضى عليه خيبة الأمل. والخريف يختفى بقدوم الشتاء والظلام يتبدد بطلوع الشمس. والمعروف يقضى عليه عدم الاعتراف به والحزن يتبدد بحادث سعيد. والمصائب تزول بالسياسة الرشيدة، والحظ بالغاً ما بلغ من العظمة نقضى عليه السياسة السيئة.

وعلى هذا فإن الملك الذى لا يبخل على رعاياه بأنعم المشورة الحكيمة، وينتهج سياسة رشيدة من جميع الوجوه يتمتع بسعادة الملك.

وهنا ينتهى السفر الثالث المسمى الحرب والسلام أو الغربان واليوم.

السفر الرابع

الخسران أو القرد والتمساح

هنا يبدأ السفر الرابع المسمى الخسران وهذه هي منظومة الاستهلال:

كل من تخدعه الكلمات المعسولة فيتخلى عما حصل عليه يصيبه ما أصاب التمساح
الأحمق من القرد. فقال أبناء الملك: وكيف كان ذلك؟ فقال: يحكى أن ملكا للقرد يدعى "مجعد
الوجه" كان يقيم على شاطئ بحر. ولما وهنت قواه بسبب تقدمه فى السن انبرى له قرد آخذ
فتى، اشتعلت فى قلبه نيران الغيرة ولم يصبر عليه وثار ضده وطرده من عـ شيرته فأخذ
يمضى وقته فى المنفى. وكانت هناك على الشاطئ نفسه شجرة تين تسمى "العسلية"، وعـ اش
القرد العجوز على الثمار التى تطرحها هذه الشجرة. وفى ذات مرة بينما كـ ان يأكل هـ ذه
الثمار، سقطت إحداها من يده فى الماء وأحدث اصطدامها بالماء صوتا جميلا طرب له القرد
وبدا يقطف ثمار التين ويلقى بها الواحدة إثر الأخرى ودل بذلك على أنه غبى كسول بفطرته.
وانفق أن تمساحا يدعى "بأدى العظام" كان يمر أسفل الشجرة فالتقط ثمار التين وأخذ
يلتهمها وهو منشرح الصدر وظل فى موضعه هذا لكى يحصل على الطعام اللذيذ بلا عـاء.
وقويت بين مجعد الوجه وبينه أواصر الصداقة والمودة وامتلا قلب التمساح بحب عظيم للقرد
ولم يعد يهتم بموعد عودته إلى بيته.

وجلس أنثاه بين صوحيباتها وقد فاض قلبها حزنا وغما بسبب طول مدة فراق التمساح
لها وتساءلت: ترى أين حبيبى الآن؟ وماذا يفعل بعيدا عن بيته ومـ اذا يـ صرفه عـاء؟ إنـه
ليهجرنى وقتا طويلا كل يوم. هو يقع فى خطأ جسيم بإهماله "الأهداف الثلاثة"^٩ فقالت إحدى
صديقاتها: كيف يمكنك أن تنعمى بالسعادة فى هذا البيت أو تحصلى على الثروة من زوج كهذا
وأنت لا تعرفين حتى ما يفعله؟ لقد رأيته بعينى رأسى فى موضع على الشاطئ يلهو سرا مع
قردة أو ما أشبه ويبدى لها أعظم مودة. فاعرفى عنه هذا واعملى بلا إهمال ما لا بد من عمله
فى مثل هذه الظروف. وعندما سمعت زوجة التمساح هذا الكلام غلبها الحزن وتخلت عـن
القيام بجميع أعبائها المنزلية، وارتدت ثيابا متسخة ولطخت جسدها بالزيت وألقت نفسها على
الفرش ورقدت وهى تصك أعضاءها حولها فى قلق ووقفت حولها صديقاتها.

وعندما عاد التمساح إلى بيته بعد غيبة طويلة أمضاها مع مجعد الوجه بدافع حبه لـه،
وجد زوجته فى تلك الحالة السيئة. وتساءل وهو جد منزعج: مم تـ شكوى ومـا الـ سبب فى
مرضها؟ فلم تتبس واحدة من صديقاتها ببنت شفة ولزمن الصمت العميق. فكرر السؤال المرة

^٩ أهداف الرغبة الإنسانية.

تلو المرة بإلحاح شديد. وأخيرا قالت إحداهن، وكانت أقربهن إلى قلب زوجة التمساح، وقد جاشت عواطفها: سيدى إن مرضها لا دواء له. وعليك أن تعدها اليوم هالكة لا محالة. فلا شفاء لها.

وما أن سمع التمساح هذا الكلام حتى غلب عليه الحزن وقال بلهجة تـنـم عـمـا يـكـذـه لزوجته من حب عظيم: إذا كان هناك دواء يشفيها من علتها فسوف أحصل عليه ولو كلفنى حياتى، ولتكن روحى لها فداء. فقالت: ليس هناك غير دواء واحد يشفيها من علتها وهو قلب قرد. ولو كان من الممكن تقديمه لها فسوف تكتب لها الحياة من جديد. وعند ذلك قال لنفسه: أى مصيبة حلت بى! أنى لى قلب قرد إلا أن يكون قلب مجعد الوجه! ولكن لو فعلت هـذا فسيكون عملا من أعمال اللنام. ومع ذلك:

أيهما له المكانة الأولى فى قلبى: الزوجة أم الصديق الذى يبز الجميع نبلا؟ ليس من شك فى أن المرء لو خير بين الزوجة والصديق لاختار الزوجة فعن طريقها يحقـق المرء "الأهداف الثلاثة" وعن طريقها يكسب الأصدقاء ويظفر بالشهرة. والعالم بأسره يتوقف عليه. وإذن فمن ذا الذى لا يبونها مكانا عليا.

وتملكته حيرة عظيمة وقال لنفسه مرة أخرى:

واحسرتاه! لأبد من قتل صديقى الوحيد الحبيب الذى فعل من أجلى الكثير والذى يتحلى بالكثير من الصفات النبيلة، وكل ذلك من أجل امرأة! فيا ويلي! يا ويلي!

وبينما هو يفكر على هذا النحو وقلبه لا يطاوعه على القيام بهذا العمل الخسيس، سـار فى ببطء شديد نحو مجعد الوجه. وعندما لاحظ القرد أنه يتقدم ببطء قال له: ما سبب تـأخـرك اليوم أيها الصديق؟ فقال: أيها الصديق، من الصعب على أن أجيب على هذا السؤال. أنا لا أنعم كثيرا بصحتك وعلى الرغم من أنك لم تبد لى سوى الحنان طوال هذا الوقت فـإني لـم أستطع أن أرد لك الجميل، وهو أقل ما يجب. وقد قيل:

إن الرجال يتشبهون بالصدقة من أجل المصلحة الشخصية.

ولكنك يا أنبل القردة تبدى لى مودة خالصة وأنت خير مثال للصدقة. وقيل:

من سمات ذى المروءة أن يحسن إلى من لا تربطه بهم أى مصلحة وأن يكون كريما. وأن يصنع الجميل وأن يأخذ بيد كل من يكبو. فقال الآخر: ولم لا؟ ليس من شك فى أن هـذا إحسان لا نظير له. وأنت تعلم أنى نفيت من بلدى وأقصيت عن أهلى فوجدت عندك ملجأ اللوذ به وتوطدت بيننا أوامر الصداقة وهأنذا أمضى معك وقتى فى هدوء وراحة بال وما أحـسن ما قيل: من ذا الذى ابتدع هذه الجوهرة ذات المقطعين المسماة "رفيق". إنه هو الذى يزيل الهم ويفرج الكرب وينجى من الخطر وهو جدير بالحب والثقة.

فقال التمساح: أى صداقة أعظم من هذه التى تتيح لك أن تلقى زوجة صد-ديقك الحم-يم وتزوره فى داره وتشاركه طعامه فأنت مطمئن وتكاشفه بأسرارك؟

وأنا إلى الآن لم أوجه إليك الدعوة لزيارتى فى بيتى ولم أقدمك لزوجتى ول-م أس-الك مشاركتى الطعام.

فقال القرد: وماذا فى ذلك؟ إن هذه هى الصداقة العامة بين الناس.

وقد قيل أيضا:

إن اللئيم قد يريك زوجته كما يفعل الممثلون على المسرح أمامك. والبهائم يق-دم له-ا الطعام وهذا لا يعنى شيئا على الإطلاق. لأن من طبيعة ذى المروءة التى فطر عليها أن يفعل الخير لكل من يصاحبه وهو لا يبذل فى ذلك جهدا!

فقال الآخر: أى عجب فى أن يكرم أحد الأخيار العاقل والفاضل؟ إن مثل هذا الأم-ر لا يستغرب فعله إلا إذا صدر من لئيم. ومثل هذا مثل البرودة فى قرص الشمس. ومع ذلك: على المرء ألا يتقل على صديق أو قريب بمودة زائدة عن الحد. ألا ترى أن البقرة ت-دفع عجله-ا بطرف قرننها عندما يحاول أن يفرط فى شرب اللبن؟

ولهذا فإن على أيها الصديق أن أرد لك الجميل وبيتى يقع فوق جزيرة جميلة فى وس-ط البحر. وهناك تنمو أشجار رائعة مثل شجرة الأمانى السماوية وتط-رح ثم-ارا له-ا م-ذاق الرحيق. فهل لك أن تتلج صدرى وتصعد على ظهري وتزورنى فى بيتى؟

فسر القرد بهذا الكلام، وقال: هذا جميل منك أيها الصديق. وهو يروق لى كثيرا. هي-ا بنا وخذنى إلى هناك!

وحمل التمساح القرد فوق ظهره، ولم تكن تداخله ذرة من شك فيما سوف ي-صنعه به-ه صديقه واستسلم لمصيره الدايم. وبينما التمساح يمضى فى طريقه قال فى نفسه: وا أسفاه! إن مطالب النساء صعبة تثير الشجن ومع ذلك فهن زبدة الحياة، وهأنذا أوشك أن اقت-رف أفض-ع جريمة من أجل امرأة.. جريمة فظيعة تستحق منى كل تنديد.

وماذا يقال عن هذا؟

"إن الذهب يثبت معدنه النفيس إذا حك بحجر. ويقال إن الرجل تتأكد رجولته بسلوكه فى العمل. والثور يبرهن على قوته بمقدار ما يحمل من أقال. أما النساء فلي-ست ثم-ة وس-يلة معروفة لاختبار نواياهن. وهأنذا أجد لزاما على أن أقتل صديقى من أجل امرأة! وبينما ك-ان التمساح يحدث نفسه على هذا النحو سأله القرد: ماذا نقول؟

فقال: لا شيء.

وشعر القرد بشيء من القلق لأن التمساح لم يصارحه بما يدور في خلدّه وقال لنفسه: ترى ما السبب في أن التمساح لا يجيب على سؤالي؟ ولكنى سوف انتزع منه بـذكائى سـره المكنون!

وعندما وصل في تفكيره إلى هذا الحد سأله مرة أخرى بإلحاح شديد فأجاب: إن زوجتى مصابة بمرض عضال وأنا حزين من أجلها.

فقال القرد: ألا يمكن شفاؤها بأدوية الأطباء وتعاويذ السحرة؟

فرد التمساح قائلاً: لقد سألتنا أولئك وهؤلاء فقالوا إنها لن تعيش إلا إذا أكلت قلب قـرد. ولما سمع القرد ذلك منه استسلم لقضائه المحتوم وقال لنفسه وا أسفاه! لقد هلكت ها أنذا أجـد الجزء على استسلامى لمتعى الحسية على الرغم من سنى. أولم يقل بعـضهم: إن الرذاذـل تسيطر، حتى في الغابات، على الرجال الذين ينساقون وراء أهوائهم، وإن تحكم المـرء فى الحواس الخمس، ولو كان يعيش فى بيته، يعينه على التحلى بتعفف الزهاد، لأن الرجل الـذى يكبح جماح عواطفه لا يفعل شيئاً يلام عليه وبيته بمثابة صومعة للتوبة! وبينما هو يفكر على هذا النحو قال للتمساح:

إنك لم تحسن صنعا أيها الصديق. إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تـصارحنى بـه مذـى البداية؟ ألا تعلم أنى تركت قلبى ورانى هناك على الشاطئ وأنه كان يجب أن أحضره معى عندما لبيت دعوتك؟ وقد قيل:

إن من يرغب فى الحصول على حسنات الدين الثلاث والنجاح فى الدنيا والحب يجـب ألا يأتى صفر اليدين ليلقى برهميا أو ملكا أو امرأة. فقال التمساح: ماذا نقول؟ أين قلبك؟ فرد القرد قائلاً: على شجرة التين بالذات. فمن المعروف أن القردة تحتفظ دائماً بقلوبهـا عـلى الأشجار. وإذا كانت لقلبي فائدة لك فلنعد لنحصل عليه ثم نكر راجعين. ولما سمع التمساح هذا الكلام استخفه الطرب واستدار متجها نحو الشاطئ، وما أن بلغه حتى قفز القرد فى لهفة وقلبه يرقص طرباً وتسلق شجرة التين، وجلس على أحد أغصانها وهو يردد بينه وبين نفسه:

ها! ها! لقد أنقذت حياتى برغم كل شيء. ووقف التمساح تحت الشجرة وقال له: هــلا أحضرت قلبك أيها الصديق وعدت مسرعاً؟ فقال له القرد وهو يضحك: هيهــات أن أجـىء معك مرة أخرى! لقد أدركت كنه ما تتويبه بى، وما قلته لك لم يكن إلا خدعة لـأنجـو مـن برائتك، فهيا انصرف أيها الأبله! أ يوجد قلب خارج الجسد؟

بالخدعة كنت تتشد قتلى فقابلت الخديعة بالخدعة وأنقذت نفسى من الموت بـضليلك. وعندما أدرك التمساح معنى هذا الكلام قال للقرد: على أية حال أيها الصديق أحضر معى ولو بدون قلبك وسوف أعالج زوجتى بدواء آخر. فقال القرد: لست حماراً أيها الـشـرير. فالأبلـه

الذى ليس له أذنان ولا قلب، بعد أن جاء وذهب مرة أخرى وبعد أن ذهب جاء مرة أخرى فلقى حتفه فوراً.

فقال التمساح: وكيف كان ذلك؟

فقال القرد:

الحكاية الأولى

* حمار بلا قلب ولا أذنين

يحكى أن أسداً كان يقيم فى إحدى الغابات. وكان له تابع من بندابات أوى. وحدث أن أصيب هذا الأسد بداء فى المعدة وفقد قوته ولم يستطع أن ينهض بعمل شئ. وعندما عـض الجوع بنابه ابن أوى قال للأسد:

مولاي، كيف نستطيع أن نعيش هكذا دون أن نعمل شيئاً على الإطلاق. فقال له الأسد: أيها الصديق، لا دواء لمرضى هذا سوى قلب حمار وأذنيه، ولا سبيل لشفائى إلا بآكلها، ومن أجل ذلك عليك أن تبذل جهودك لتحضر لى حماراً. فرد ابن أوى قائلاً: سـمعاً وطاعة يا مولاي.

وبعد أن انتهى من كلامه رحل فوجد حماراً يملكه غاسل ثياب فى المنطقة المجاورة للمدينة فقال له: لماذا أراك هزيراً إلى هذا الحد أيها الصديق؟ فأجاب الحمار: إنى أعيش أيها الصديق وأنوء كل يوم بحمل ثقيل من الثياب وفضلاً عن ذلك فإن هذا الشرير غاسل الثياب لا يعطينى كفايتى من الطعام. فقال ابن أوى: ولم تسمح بتعذيب نفسك على هذا النحو؟ ما رأيك فى أن تجيء معى إلى موضع يخيل إليك فيه أنك ترفل فى النعيم! فقال الحمار بلهفة: بربك قل لى أين هذا الموضع؟ فقال ابن أوى: فى هذه الغابات الممتدة الشاسعة الممتلئة بدشائن خضراء لها لون الزمرد، والتي يفيض فيها نهر عظيم، تعيش ثلاث من الأتـن^٦ لم تر مـثلهن قط من قبل، ويتألقن بنظرة الشباب وأعتقد أنهن فررن من المشاق نفسها التى تتعرض لها. فما رأيك فى أن أقدمك لهن. وعندما سمع الحمار هذا الكلام قال: أفعل بربك. وأحضر ابن أوى الحمار الأبله أمام الأسد، الذى ما أن رآه فى متناول مخالفه حتى تملكه الطرب ووثب يريد أن ينقض عليه ففزع الحمار واستطاع أن يهرب بجلده بسبب ضعف الأسد وفر لا يـلـوى عـلى شئ دون أن يلتفت وراءه وقد امتلأ قلبه ذعراً. وقال ابن أوى للأسد: حـسناً! أهـذه خـبر الضربات التى تستطيع توجيهها؟ وإذا كنت لا تستطيع أن تقتل حماراً يقف أمامك فكيف تنتظر أن تقهر خصومك؟ فرد الأسد قائلاً: أنت على حق فيما قلت! ولكن لو استطعت أن تحـضره

^٦ جمع أتان وهى الحمار.

لى ثانية فسوف ترى كيف أصرعه فى هذه المرة. فقال ابن أوى: إذن تأهب لـ ذلك حدى لا يفلت منك بالطريقة نفسها عندما أحضره أمامك بالحيلة، على الرغم من أنه عرف مدى قوتك وجراعتك! وانصرف ابن أوى وهو يضحك. انطلق إلى الحمار وقال له: لماذا عدت من حيث أتيت؟ فقال الحمار: ولقد حدث أمر فظيع... رأيت أحد المخلوقات المهيولة مثل قنة الجبل، ولا أعرف ما هو، ينقض على ففررت هاربا منه وأنا لا أكاد أصدق أنني نجوت بحياتى! فقال ابن أوى: إنك لم تفهم ما حدث فقد قيل: كثيرا ما يحدث فى هذا العالم أن تظهر عقبات لا وجـود لها فى الواقع، وذلك عندما يبحث الناس عن الأهداف الثلاثة. إن الأتان عندما رائك تحركت فى جسدها لواعج شهوة عظيمة وشرعت فى احتضانك بلهفة وانفعال، وكنت جبازا مـمظـوع الفؤاد ففررت لا تلتوى على شيء. ولكنى أعرف أنها لا تستطيع أن تحتل العيش بدونك ومن أجل هذا مدت ذراعها لتوقفك عندما هربت. وهذا كل ما حدث. فهيا وعد معى!

ولما سمع الحمار هذا الكلام قال: سوف أجيء معك. وما أن فرغ مـن كلامه حدى انساق وراء ابن أوى فأمسك به الأسد وقتله.

وبعد أن تم للأسد ذلك قال لابن أوى: أيها الصديق، إن مباشرة هذا العـلاج تقـضى الصلاة للآلهة والقيام ببعض الطقوس الأخرى. وبدون هذا لا يكون للعلاج أثر. ومن ثم البث هنا فى هدوء واحرس جثة هذا الحمار حتى أتطهر وأقوم ببعض الشعائر الأساسية المقدسة ثم أعود.

وانصرف الأسد فقال ابن أوى لنفسه: لابد أنه دواء ناجع!

ولما كان شرها بطبعه فقد أكل قلب الحمار وأذنيه. ثم مسح فمه ومخالبه حتى نظفهم. تماما وجلس يترقب عودة الأسد.

وبعد أن تطهر الأسد عاد والتفت، كما تقضى بذلك المراسم، نحو اليمين (حول الجسد) فلم يجد القلب ولا الأذنين، فقال: ماذا حدث؟ قل لى أين قلب الحمار وأذناه؟

فقال ابن أوى: مولاي، أنى لهذا الحمار الأبله أن يكون له قلب يعى به وأذنـان يـسمع بهما؟

لو كان له قلب أو أذنان لما تصرف على هذا النحو. ألا ترى أن هذا الأبله لـيس لـه أذنان، ولا قلب، بعد أن جاء وذهب مرة أخرى، وبعد أن ذهب جاء مرة أخرى؟ وعندما سمع الأسد هذا الكلام لزم الصمت.

[نهاية الحكاية الأولى]

ولهذا أقول: لست حماراً فاغرب عن وجهي فأنت لا تستطيع أن تخذعني مرة أخرى. لقد حاولت أولاً أن تحقق غرضك بكلمات معسولة ولكنني أدركت ما تضرره في قلبك بفـضل عثرات ذكائك على الرغم من حرصك الشديد على إخفاء غرضك الدنيء. وها أنت ذا تتلقـى درساً ممن يفوقك في الدهاء. لقد استطعت أن أكسب الوقت بخدعة بارعة وقابلت المثلـ بالمثل؟ وما أحسن ما قيل في هذا:

لا شك أن في تقسيم الحكم الذي يصدره المرء إلى جزئيات يفيد في إيضاح هذا الحكم. وهو كفيل بأن يشفي عقول الأذكياء الذين يعرفون الحقيقة من الوهم كما تفعل الأدوية الناجعة. فقال التمساح لمجعد الوجه وهو معجب بذكائه المتوقد:

إن العقلاء يعترفون بحماقتهم ويمتدحون حكمة الآخرين. ومهما يكن مـن أمـر فـإن جهودهم لا تخيب أبداً في أي عمل يتصدون له.

ولما فرغ التمساح من كلامه، انطلق عائداً إلى بيته وقد خابت آماله.

وهنا ينتهي السفر الرابع المسمى الخسران.

السفر الخامس

العمل الطائش أو البرهمى والنمس

والآن يبدأ هذا السفر المسمى العمل الطائش وهذه هي منظومة الاسد-تهلال: ك-ل م-ن يستسلم لثورة الغضب دون أن يتحرى حقائق الأمور يخسر صد-ديقه كم-ا ح-دث للبرهمى والنمس.

فقال أبناء الملك: وكيف كان ذلك؟

فقال فصنو شرماني^{٦١}.

كان هناك برهمى من أسرة صالحة يدعى دفاشرمان^{٦٢} يعيش في إقليم جوضة. وكادت زوجته برهمية تدعى بجنيادتا. واتفق أن حملت جزاء ما قدمت من أعمال صالحة. وعذ-دما أدرك دفاشرمان هذا ابتهج ابتهاجا عظيما وقال: لقد ظفرت بنعمة كبرى وسوف أرزق وق-ال لزوجته: لقد تحققت آمالي يا عزيزتي وسوف تلدين ولدا تتحقق فيه كل أمانى المعقودة عليه، وسأقوم من أجله بالطقوس المقدسة اللازمة وهى طقوس الحمل والولادة والتسمية وما إلى ذلك بسبيل. وسوف يكون عماد البيت.

وعندما خطبت زوجته بهذه العبارة قالت: من ذا الذى يعرف ما إذا كان المولود ول-دا أو بنتا؟ ومن ثم ليس من اللائق والحالة هذه أن نتحدث عن شيء لا يزال فى حجب الغيب، وعلى المرء ألا يبتهج قبل الألوان فقد قيل:

إن من يحلم بالمستقبل يجد نفسه ملقى على الأرض، وقد أبيض وجهه ورأسه وثيابه-ه مثل والد سومشرمان.

فقال البرهمى: وكيف كان ذلك؟ فأجابت:

الحكاية الأولى

* البرهمى الذى بنى قصورا فى الهواء

يحكى أن برهميا كان له ولد مشغول بدراسته. وكان يتناول الطعام على سبيل ال-صدفة بانتظام فى بيت أحد التجار. وفى الأيام التى لا يتناول فيها طعامه هناك يتلق-ى مكي-الا م-ن البرغل فيأخذه إلى البيت ويضعه فى جرة ويخترنه. ومرت الأيام وامتألت الجرة بالبرغل.

^{٦١} بهجة الرب، أو عون الرب.

^{٦٢} قربان.

وفى ذات يوم كان البرهمى راقدًا فى فراشه وفوق رأسه الجرة مدلاة من مشجب مثبت على الحائط. وبعد أن نال قسطًا من النوم فى وقت القيلولة نهارًا، استيقظ وأخذ يفكر. روقه -ال نفسه: لقد ارتفع ثمن الحب، وثمن البرغل أكثر ارتفاعًا، فهو غ-ذاء ي-صلح لأن يع-د مد-ه عشرات الأصناف من الطعام، ولذلك لابد لى من الحصول على برغل يساوى عشرين روبية، وإذا بعته أستطيع أن أحصل على عشر عنزات، كل واحدة منها تساوى روبيتين. وعندما تبلغ العنزات من العمر ستة شهور فسوف تحمل ويخرج حملها إلى الوجود. ولا شك فى أن عددها بعد خمس سنوات سوف يتضاعف حتى يصل عدد القطيع إلى أربعمئة. ومن المعروف أن-ك تستطيع أن تحصل مقابل كل أربع عنزات على بقرة فتية ندر لبنا وتتحلى بأحد-سن ال-صفات وتلد عجولاً حية. وبهذا الحساب أبادل هذه العنزات الأربعمئة بمائة بقرة. وعندما تلد ه-ذه الأبقار فإن بعض عجولها تصبح ثيراناً خصية استخدمها فى الزراعة وأحصل م-ن ورائه-ا على حب وفير. وأجنى من حصيلة بيع هذا الحب ذهباً نضاراً، وأبنى قصراً من الأجر، تحيط به الأسوار. وسوف يرى أحد البراهمة الأجلاء ما أنعم به من ثروة طائلة ووفرة ما لدى م-ن الخدم والجوارى والرياش بأنواعها فيقبل من غير شك أن يزوجنى من ابنته الجميلة. وسوف أنجب منها بعد فترة من الزمن ولدا يحفظ نسبى ويعمر طويلاً وينجو من ك-ل م-رض بم-ا اكتسبه من فضل. وعندما أفرغ من القيام بطقوس الميلاد وغيرها من ال-شعائر المذ-صوص عليها أطلق عليه اسم "مسوثرمان"^{٦٣}. وبينما الصبى يلهو ويلعب تكون زوجتى منصرفة إلى-ى القيام بأعبائها المنزلية ولا تعباً بما حولها ولا تكثرث بالصبى. وإذ ذاك ألوح بع-صا غليظة. وأضرب بها زوجتى بسبب ما أكنه لولدى من حب عظيم يملأ شغاف قلبى-ى. واند-دفع وه-و مستغرق فى أحلامه يلوح بعصاه فأصاب الجرة وما لبثت أن سقطت مهشمة إلى مائة قطعة. تتناثر فوقه وتبعثرت حبات البرغل. وأبيض جسد البرهمى وثيابه من البرغ-ل المطد-ون وشعر بأنه كمن أوقف من حلم جميل وخجل من نفسه خجلاً عظيماً وسخر منه الناس.

[نهاية الحكاية الأولى]

ولهذا أقول: إن من يحلم بالمستقبل سوف يجد نفسه ملقى على الأرض وقد ابيض وجهه ورأسه وثيابه مثل والد سومثرمان.

فعندما يقع الحادث يمكنك أن تعمل على ضوئه. وأنت لا تستطيع أن ترسم ص-ورة إلا إذا كانت لديك لوحة للرسم.

وعندما اقترب موعد الوضع ولدت زوجة البرهمى ولدا يحمل أمارات الطالع السعيد.

^{٦٣} بهجة القمر أو "عون القمر".

وفى اليوم العاشر، وبعد أن قام البرهمى بطقوس التسمية تركت زوجته الأصبى فى رعاية والده وانطلقت إلى نهر قريب لكى تتطهر وتغسل ثيابها. ولبت البرهمى يحرس الصبى فقد كان فقيراً، لا يستطيع أن يكترى خادماً، وبأثر هذا العمل بنفسه.

واتفق أن حدث هذا فى يوم تغير وجه القمر فأرسلت الملكة المعظمة جارية من قصر الملك لكى تستدعى مرتلاً للنصوص المقدسة. فأقبلت الجارية لاستدعاء البرهمى.

وعندما تلقى البرهمى هذه الدعوة، وجد فيها فرصة للتخلص من الفقر الذى قاسى منذ طوال حياته وقال لنفسه: إذا لم أذهب لفورى فإن شخصاً آخر سوف يحصل على القربان^{٦٤}. ولكن ليس هناك من يحرس الصبى. فماذا عساي أن أصنع؟

ورأى إزاء هذه الظروف أن يترك الصبى فى حراسة نمس كان قد عنى بتربيته منذ نعومة أظفاره وكأنه ابنه، واحتفظ به فى بيته فى حجرة النار المقدسة وكـ أن يطعمه به بعد الحنطة وما أشبه.

واستجاب البرهمى للدعوة ورجل إلى قصر الملك. وإذا بالنمس يشاهد حية مـ ن ذـوع الكوبرا تخرج من جحر فى الأرض وتقترب من الطفل. وما كاد يراها حتى التهببت عيناه حنقا وارتجفت شفاته ومخالبه واصطكت أسنانه وقفز فى الحال على الحية ومزقها إربا.

وعندما شاهد النمى البرهمى يعود جرى إليه فى فرح عظيم ليبريه مـ ا فعـ ل وكانـ ت الدماء تلتطخ فمه ومخالبه. ولما أبصر هذا البرهمى الطائش النمى وفمه ملطـ خ بالـ دم قـ ال لنفسه: ماذا حدث؟ هل التهم النمى الصبى؟ تبأ له! وانهاى على النمى بعد صاه حـ ي قتلـ ه. ودخل البرهمى البيت بعد أن قتل النمى فشاهد الطفل يرقد نائماً دون أن يمسه أذى ورأى حية الكوبرا ممزقة إربا بالقرب منه وعندئذ دق صدره بيديه وصاح:

أواه! الوليل لى! ما أشد حماقتى! أى عمل شرير قمت به!

وعادت زوجة البرهمى فوجدته يبكى وينوح ورأت النمى مقتولاً والحية ممزقة إربا إلى مائة قطعة فقالت له: ماذا فعلت أيها البرهمى؟ وكيف حدث هذا؟

فأخبرها بالقصة كاملة، فاغتمت الزوجة البصيرة غما عظيماً وقالت للبرهمى:

كل ما يراه المرء بنظرة متعجلة وما يفهمه بإدراك قاصر، وما يسمعه محرفاً، ومـ ا يبحث عنه دون أن يتحرى الدقة، يجب ألا يقدم على عمله وإلا أصابه ما أصاب الحلاق. فقال البرهمى: وكيف كان ذلك؟ فأجابت:

^{٦٤} وهو بصفة نوعية قربان شرادها (للموتى من الأسلاف) ويؤدى فى أيام تغير وجه القمر بمصاحبة ثلاث الفيدات.

الحكاية الثانية

* الحلاق الذى قتل النساك

يحكى أن ابن أحد التجار من قديم الزمان كان يعيش فى مدينة ما، وخسر ثروته وفقـد أهله وتخلّى عنه خلّانه بعد أن ساء حظه وطحنه الفقر. ورعته مربيته العجوز الدّى عـاش معها منذ طفولته وأقامت معه فى جانب بيت متهدم. وكانت هذه المربية العجوز من الجوارى. وذات مساء أخذ يفكر فيما آل إليه حاله وتتهدّ طويلا بحرارة وقال لنفسه: وا أسـفاه! مدّى أتخلص من هذا الفقر الذى أعانيه؟ وبينما هو يفكر استغرق فى النوم عند حلول اللـيل. ورأى فى أخريات السحر حلما... رأى ثلاثة من النساك يحضرون إليه ويوقظونه ويقولون له: غـدا أيها الصديق سوف نأتى لزيارتك فى هينتنا هذه. ولكننا فى الواقع لسنا إلا ثلاثة أكـوام من الكنوز اختزناها أجدادك، وعليك أن تقتلنا بهروااتك وعندئذ نتحول إلى دنائير. وعليك ألا تأخذك بنا شفقة أو رحمة وأنت تقوم بهذا العمل.

واستيقظ فى الصباح وهو لا يزال يفكر فى الحلم الذى رآه فى منامه وقـال للمربية: أمه، عليك أن تتأهبى طوال اليوم للقيام بشعيرة مقدسة. وعليك أن تطهرى البيت للقيام بهـ. ذه الشعيرة وذلك بتلطّيح بروت البقر وما إليه. وسوف نقدم اليوم إلى ثلاثة من البراهمة أفضل ما عندنا من طعام. أما أنا فسوف أنطلق لأحضر حلاقا.

وتم الأمر كما أراد وأقبل الحلاق ليشذب لحيته ويقص أظافره. وعندما انتهى من تهذيب لحيته كأحسن ما يكون جاء إليه الرجال الثلاثة الذين كان قد رآهم فى الحلم. وما كادت عيـنا ابن التاجر تقعان على هؤلاء النساك حتى عاملهم بما أمر به. وإذا بهم يتحولون إلى ثلاثة أكوام من الدنائير الذهبية فأخذ ابن التاجر هذا المقدار الهائل من المال ونفح الحلاق بثلاثمائة دينار جعلاً له لكى يصون سره. ولكن الحلاق عندما رأى صنيع ابن التاجر قفل راجعا إلى داره ووصل به تفكيره إلى نتيجة متعجلة، وقال لنفسه: وأنا أيضا سوف أقتل ثلاثة من النساك بهرواة وأحولهم إلى ثلاثة أكوام من الذهب النضار.

وما أن وصل فى تفكيره إلى هذا الحد حتى أخذ هرواة ووقف يترقب، ولم يمض طويل وقت حتى أقبل ثلاثة من النساك يتسولون. ففاجأهم الحلاق وظل يضربهم بهرواته حتى قتلهم. وغنى عن القول إنه لم يحصل على أى كنز، وإنما أقبل شرطة الملك وقبضوا عليه وسـاقوه أمامهم وقتلوه على السفود.

[نهاية الحكاية ٢]

ولهذا أقول: كل ما يراه المرء بنظرة متعجلة وما يفهمه بإدراك قاصر، وما يسمعه محرفاً، وما يبحث عنه دون أن يتحرى الدقة، يجب ألا يقدم على عمله.
وهنا ينتهى السفر الخامس المسمى العمل الطائش.

نهاية الأسفار الخمسة

البنجاتنترا وكليلة ودمنة

دراسة مقارنة

لا تزال الحكاية الشعبية من أهم المواد الفولكلورية، لأنها الامتداد الطبيعي والمباشر لبدايات الفكر الإنساني، عندما كان يتوسل بالتشخيص والتمثيل. وظلت الحكاية الشعبية تسير هذا التطور على مدى التاريخ الإنساني، ونهضت بوظائف متعددة. وحكاية الحيوان من أهم الأشكال الأدبية، الشعبية والرسمية على السواء، ففيها الجذور العريقة التي تعود إلى مرحلة ما قبل الفلسفة، وفيها الرمز عندما يعز التصريح، في ظروف خاصة. ولقد عرف الأدب العربي حلقات من حكايات الحيوان، ظلت من روائع الإبداع الأدبي في جميع العصور، وهي حلقات كليلة ودمنة المنسوبة لابن المقفع. ولا يستطيع من يترجم، وحتى يعرض البنجاتنترا إلا أن يذكر كليلة ودمنة، وأن يوازن بين المجموعتين والمشهور أن ابن المقفع نقل كتابه عن السنسكريتية عبر البهلوية.

ومهما يكن من أمر العلاقة، المباشرة أو غير المباشرة، بين المجموعتين، فإنهما كانتا الباعث على البحث في انتشار الحكايات الشعبية، وظهور نظريات مختلفة، تفسر مناهج الانتشار وبواعثه، من خلال التشابه والاختلاف بين العناصر المحورية للحكايات وانتهت هذه الجهود بنتيجتين كبيرتين: الأولى ظهور قواعد أساسية لتصنيف الحكايات الشعبية، والثانية الاعتماد على الدراسة المقارنة بين المواد والعناصر الشعبية. وليس من غرضنا في هذه الدراسة أن نعرض لنظرية تيودور بنفي العالم اللغوي الألماني المشهور (١٨٠٩ - ١٨٨١)، الذي تخصص في السنسكريتية، والذي ترجم البنجاتنترا، وانتهى من دراساته المقارنة إلى الأصل الهندي للحكايات الشعبية، ولا أن نعرض لرأى أنتى أرني (١٨٦٧ - ١٩٢٥) الذي اتفق فيه مع بنفي من حيث الأصل الهندي، وإن قال بوجود حكايات شعبية خاصة بشعوب أوروبا الغربية في الوقت نفسه، مع تعمقه في مناهج انتشار الحكايات الشعبية من الشرق إلى الغرب واتخاذها أشكالاً محلية، وحسبنا أن نسجل فقط أن هذا العالم الفنلندي هو الذي يرد إليه تطوير المنهج التاريخي الجغرافي في دراسة الحكايات الشعبية، ويعد أول من وضع أساساً لتصنيف هذا الشكل من الحكايات.

وأيسر من هذا كله، في نظرنا، أن نوازن بين هاتين المجموعتين، لا من حيث الأصل والفرع، أو العطاء والأخذ، ولكن من حيث الشكل والمضمون. ويفرض علينا هذا النظر أن نواجه، أولاً وقبل كل شيء، ما قيل عن السبب في تأليف المجموعة الأولى ونقل المجموعة الثانية... وتحكي مقدمة البنجاتنترا السبب المباشر في تأليف هذه الحكايات، وهو سبب يرتبط

بالحكايات نفسها ارتباطاً وثيقاً. وخلصته أن أحد الملوك رزق ثلاثة من الأبناء، مجهولون مبادئ علم السياسة، وكانوا في الوقت نفسه أغبياء يحتاجون إلى جهد خاص في التربية والتعليم. واستدعى الملك برهميا، عرف بالحكمة والعلم، إلى جانب القادة على التربية والتعليم. وما كان من هذا البرهمي إلا أن توسل بحكاية الحيوان لكي تقوم بهذه الوظيفة على أيسر وجه. وسنرى بعد أثر الغاية من التأليف والوسيلة التي استخدمت لتحقيق هذه الغاية في الشكل والمضمون والسياق والصياغة جميعاً.

أما كليلة ودمنة فقد ورد في مقدمته أن أحد الحكماء وضع هذا الكتاب لملك طاغية، بعد أن عرف الملك للحكيم قدره، وأمره بأن يؤلف له كتاباً بليغاً مذكوراً، يحفظ في خزائن الحكمة مع كتب الآباء والأجداد، ويكون ظاهره سياسة العامة وتأديبه^١، وباطنه أخلاق الملوك وسياساتها للرعية على طاعة الملك وخدمته وأن يكون "مشتعلاً على الجد والهزل واللهو والحكمة والفلسفة". وقد صدع الفيلسوف بالأمر وألف كتاب كليلة ودمنة، ثم "جعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطيور". والتوسل بالقصص في الاعتصام بالوسط الذهبي في السلوك تقليد أدبي عرفت به الطبقة الفارسية من كتاب "ألف ليلة وليلة"^٢. ولقد كان صنيع بدبا مع دبشليم قريباً من صنيع شهرزاد مع شهریار. وكانت غاية كل منهما التوسل بالقصص في منع الحاكم من تجاوز الاعتدال في سلوكه مع حاشيته ورعيته وأهل بيته.

وأهم ما يلفت النظر في الموازنة بين الكتابين من حيث الشكل أن كل حكاية في البنجاتنترا لها بداية ونهاية يستطيع القارئ أن يتبينها لأول وهلة بوضوح ويسر. أما في كليلة ودمنة فإن القارئ لا يستطيع أن يتبين البداية والنهاية لكل حكاية إلا بقدر من العناية يضاف إلى ذلك أن كل سفر من الأسفار يبدأ بمنظومة استهلال وفي ذلك إحساس بالقيمة الأدبية للكتاب، إلى جانب الوظيفة التربوية.

وعلى الرغم من أن المجموعتين تنزعان إلى الإطناب في السرد والوصف وضرب الأمثال، إلا أن البنجاتنترا يتوسل بالتكرار تأكيداً لوظيفته التربوية، ومؤلفه يعي أنه إنما يخاطب أحداثاً، لما ترشد عقولهم، وأن هؤلاء الأحداث كانوا دون المستوى في التصور والإدراك. وليس من شك في أن التكرار كان يستهدف التذكير، إلى جانب المنهج القصصي نفسه في التجسيم والتشخيص. ويبدو التكرار في إبراز محور الحكاية أو الغرض الذي نعمل على الوفاء به. ولما كانت أمثال هذه الحكايات تعد في المقام الأول من موارد الأمثال فإن التكرار يركز المضمون التصويري للمثل.

^١ دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة العربية - مادة "ألف ليلة وليلة" - أويستروب.

ويختلف الجو الدينى الذى ظهر فيه كل من الكتابين، فإن البنچانتترا قد تكاملت حلقاته حتى استقر على صورته النهائية فى جو، تغلب عليه عقيدة تقوم على تعدد الآلهة، وهذا ينعكس بالضرورة على الحكايات، التى تتضمنها الأسفار الخمسة. مثال ذلك ما ورد فى حكاية طائر البحر والبحر. فعندما اجتاحت البحر بيض الطائر نادى جمعا من الطير وأبلغها بالكارثة التى حلت به بسبب فقد صغاره فقالت إحدى الطيور:

"لا طاقة لنا بقتال البحر المحيط. والرأى عندى أن خير ما نفعله هو أن نشكوه كلنا إلى الجاروسا وبهذا نثيره ضده. ولا شك أنه سوف يفرج كربنا". وما أن استقر رأى الطيور على هذا حتى انطلقت لترى الجاروسا ولكن الرب نارينه (فشنو) كان قد استدعاه للاشتراك فى معركة نشبت بين الآلهة والشياطين.

أما كتاب كليلة ودمنة فقد ظهر فى جو إسلامى يؤمن بالتوحيد وينكر الشرك، فتدريج من ذكر أى خبر ينم عن تعدد الآلهة ولذلك نراه فى هذه الحكاية بالذات يكتفى بـ"أن يـذكر العنقاء بدلا من "الجاروسا" وأن يشير إلى القوة الموجهة للبحر المحيط بعبارة وكيل البدري. وقد جاء فى هذه الحكاية من حكايات كليلة ودمنة عندما شكى طائر البحر مما صنعه به وكيل البحر: "فقال له جماعة الطير: إن العنقاء هى سيدتنا وملكتنا فاذهب بنا إليها حتى نصيح بها، فتظهر لنا، فنشكو إليها ما نالك من وكيل البحر، ونسألها أن تنتقم لنا فيه بقوة ملكها. ثم إنهم ذهبن إليها مع الطيطوى، فاستغثنها، وصحن بها فتراعت لهن فأخبرنها بقصتهن وسـألنها أن تسير معهن إلى محاربة وكيل البحر فأجابتهن إلى ذلك..."

وغاية الغايات فى الكتابين - كما أسلفنا - هى تربية الحاكم كيف يسوس نفسه ويسوس رعيته. ولقد عرف الهنود بالحكمة والاعتصام بالطاقة الروحية ولكن ملوكهم فطروا إلى أن أمر الرعية لا يستقيم فى جميع الأحوال، إذا كانت الوسيلة من طبيعة الغاية، ولذلك دخل فى اعتبارهم العمل بوسائل فيها شئ من الحيلة والمخادعة. وهذا النهج فى فن تدبير الملك موجود فى البنچانتترا وجوده فى كليلة ودمنة ولكن الأخير ينفرد بتصوير مبالغ فيه لما ينبغى من الامتنال والخشوع للملك، ونحن نجد الإلحاح على تصوير ذلك فى المقدمة التى أريد بها أن تعظم من شأن الكتاب وكاتبه والجهد الذى بذله فى سبيل تأليفه. وبعد أن فرغ بيدى الفيلسوف الهندى من تأليف كتابه توجه إلى الملك دبشليم "فلبس الثياب التى كان يلبسها إذا دخل على الملوك وهى المسوح السود، وحمل الكتاب تلميذه. فلما دخل على الملك وذهب الخلق بأجمعهم، وقام الملك شاكرًا فلما قرب من الملك كفر له وسجد، ولم يرفع رأسه!" وكما اختلفت الأجواء الدينية التى تكاملت فيها المجموعتان، فكذلك اختلفت الأجواء السياسية، ويبدو من الموازنة بينهما أن حرية التعبير فى وصف الملوك كانت فى البنچانتترا ظاهرة بيد

أنها كانت مقيدة في كليلة ودمنة فقد ورد في سفر الأسد والثور من البنجاتنترا: "من الصعب أن تظفر بالخطوة لدى الملوك فهم كالجبال صعبة المرتقى، قساة القلوب غلاظ الأكباد دائمـا بفطرتهم ويحيط بهم رجال أراذل، وهم يتسقطون الزلات، ومن شيمتهم الغـدر، لأن الملـوك مترفون مثل الثعابين ومسربلون بعدة الحرب ومتوحشون ويعملون بطريقة ملتوية، ولهـم مناخير ويمكن اكتساب قلوبهم بالكلمة الطيبة..."

وورد في باب الأسد والثور من كتاب كليلة ودمنة تصوير فيه تخرج ظاهر يدل على عدم القدرة على النقل الأمين للصورة السابقة وهو يروى... "وإنما شبه العلماء بالسلطان بالجبل الصعب المرتقى الذي فيه الثمار الطيبة والجواهر النفيسة والأدوية النافعة. وهـو مع ذلك معدن السباع والنمور والذئاب وكل ضار مخوف، فالارتقاء إليه شديد والمقام فيه أشد..." وربما كان هذا الجو السياسى الذى يشيع الحرج فى التصوير فارسيا غلب على الذـسخة البهلوية التى اعتمد عليها ابن المقفع ونقل عنها مباشرة.

ولقد اقترن هذا التصوير الجريء للملك وما يدل عليه من حرية التعبير بالمبدء الذى أسلفت الإشارة إليه فى فن تدبير الملك وهو أن الغاية تبرر الوسيلة. وما نظن أن هذا أدل من الشواهد الآتية التى وردت فى نهاية السفر الأول من البنجاتنترا:

"إنك تعرف أن الملوك ليسوا فى حاجة إلى الاستمسك بالفضائل كما هـو شأنع بـين الدهماء... إن المملكة لا يمكن أن تحكم بمعايير الناس العاديين. لأن ما يعد فى الناس رذائل (بصفة عامة) يمكن أن يعد فى الملك من الفضائل وقد قيل أيضا: إن سلوك الملوك مثل سلوك البغى لا يثبت على حال، فالملك صادق وكاذب، فظ ورقيق فى الحديث، متـوحش وحنون فى الوقت نفسه، شحيح وكريم مبذر فى الإنفاق، وإن كان يحصل على مبالغ كبيرة من مصادر متعددة".

ومن اليسير أن يتحول هذا الجو من الحرية فى التعبير والتصوير إلى ما يشبه الإبادة فى حكايات البنجاتنترا، فنجد فيها مشاهد تخرج عن إطار الأخلاق المرعية، وتقترب هـذه المشاهد مما يشيع فى بعض الحواضر، نتيجة لظروف اجتماعية، مثلما شاع فى أدب المجون فى بعض العصور. ومن الأمثلة على هذه الظاهرة أكثر من حكاية فى البنجاتنترا مثل حكاية "النساخ الديوث والقوادة" وحكاية "النجار القواد". ومع خروج أمثال هذه الحكايات عن الأخلاق المرعية فإنها تلج على أعمال الحيلة والمخادعة للتخلص من المأزق وتبرئة الذات من مواقف مزرية يظهر فيها الخاطى متلبسا بخطيئته، وفى هذا بعض الشبه بحكايات ألف ليلة وليلة ونوادر شعبية مرددة فى بعض الحواضر.

ومهما جهد الناقل في أن يكون أميناً في النقل، فإنه لا يستطيع أن يردد اسم حيوان لا وجود له في بيئته، ولا يمكن أن يتصوره خيال من يقرأ له، ولذلك برزت ظاهرة الاختلاف في تصور بعض الكائنات من عالم الحيوان بين مجموعتي البنچانتترا وكليدة ودمنة، ففي الأولى وردت حكاية البرهمي والنمس في حين وردت في الثانية حكاية الناسك وابن عرس، ويبدو أن النمس لم يكن معروفاً في بيئة ابن المقفع فاستبدل به ابن عرس، وكذلك وردت في البنچانتترا حكاية القرد والتمساح، ووردت في كليدة ودمنة حكاية القرد والغـ. ولم أى الـسلحفاة الذكر، وأغلب الظن أن التمساح لم يكن له صورة واضحة في عالم ابن المقفع. ولقد ذكرنا أن المهم، سواء أكان التحول قد تم في النسخة الفارسية أو في النسخة العربية، أن يحتفظ الحيوان بنفس السمات والصفات التي تتلاءم وسياق العلاقات والأحداث. وسبق أن أشرنا إلى بـروز هذه الظاهرة في تتبع حكايات الحيوان عبر الزمان وعبر المكان، وأثبتنا ما كان لها من أثر في مناهج الدارسين ونظرياتهم، وحسبنا أن نسجل أن طاقة الخيال، في أغلب الظن، هي التي تحكم في استبدال حيوان بغيره، مع الاحتفاظ بالسمات والصفات.

وإذا اشتركت أحاد من جنس واحد في عالم الحيوان فإن فلسفة الحكاية يجب رعهـا بالأسماء التي تطلق على كل واحدة منها، وهذا الاسم عبارة عن الصفة التي تغلب على الكائن في سياق العلاقات والأحداث، من ذلك أن البنچانتترا تطلق على السمكات الثلاثة التي واجهت موقفاً عصيباً أسماء "بصيرة وبديهة وتوكل" تبعاً لتصرف كل منهاـا بـإزاء ذلك الموقفـفـ. وحافظت مجموعة كليدة ودمنة على هذه الخصيصة في تلك الحكاية فأطلقت على الـسمكات الثلاث الصفات التي غلبت على كل واحدة منها فهي على سبيل التفاضل: كيسة وأكيس منهاـا وعاجزة. والواقع أن البنچانتترا تكاد تلتزم منهج التخصيص في حيوانها، فهي تميز بينهـا بالأسماء التي تشخصها، بل وتخصصها بين غيرها من بنات جنسها، ويدل هذا المنهج على أن إيراد حكاية الحيوان قصد منه أن يكون مرتبطاً غاية الارتباط بالإنسان... ليس المقصود اقتطاع حدث أو موقف من عالم الحيوان، يتسم بالواقعية، ولكن المقصود هو تمثيل العلاقة والموقف لتكون درساً نافعا في فنون التربية والسياسة. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تستقصى في هذه الدراسة ويكفي أن نشير إلى إطلاق اسم "معتز" على الأسد في حكاية الأسد والأرنب، واسم "الزاحفة البطينة" على القملة في حكاية "القملة والبرغوث"، واسم "الـصدفية" على السلحفاة في حكاية "الأوز والسلحفاة"، وأسماء "خفيف الجناح" على الغراب و"المطوقة" على "الحمامة" و"الذهبي" على "الفأر"... إلخ. وإذا كنا نلاحظ اختلاف الصفات التي تدل عليها هذه الأسماء فليس مرد ذلك إلى السبب المعروف عند الجماعات البدائية من إطلاق أسماء تدل على صفات محببة أو مكروهة، تبعاً للاعتقاد في تأثير هذه الصفة على القراء والأرواح وما

إليها، ولكن فن التسمية في الحكاية الشعبية الهندية إنما يقصد إلى إبراز سمة مميزة أو صفة خاصة، يحتاج إليها الخيال حيناً، والسياق أحياناً.

ومن وجوه الخلاف في فن التسمية أيضاً بين المجموعتين مـا يواجهه هــ الذى يقـوم بالموازنة في أول لحظة يبدأ فيها تتبع وجوه التشابه والاختلاف، فإن النسخة العربية أطلقت اسمى كليله ودمنة على ابنى آوى وهما الاسمان اللذان اشتهرت بهما هذه النسخة في العالم كله وعلى مدى التاريخ بعد ظهورها، في حين ورد الاسمان في البنجاتنترا على هذا النحو:

كرطاكه ودمنكه ومعنى الأول "ذو العواء المخيف" والثانى "المنتصر"، وبذلك لم تخرج المجموعة الهندية عن منهجها في فن التسمية. ومن الملاحظ أن الاسـمين فى المجموعة العربية فيهما تحريف للأصل السنسكريتى، وإن لم يقصد الناقل إلى المعنى. كما أن البنجاتنترا أطلقت على الثورين فى السفر الأول اسمى فندكا وسمجيفكا ومعناها بشىء مـن التـصرف "المبتهج" و"الطروب". أما فى كليله ودمنة فقد ورد اسماهما شترية وبندبة...

أما الكائنات الخارقة أو غير المنظورة فقد اختلف فيها منهج المجموعتين أيضاً، ولعل مرد هذا الاختلاف يعود إلى علاقة هذه الكائنات بالعقيدة، كما تعود إلى طاقة التخيـل أو استدعاء الصورة أو دلالة الكائن الخارق على قوة تمثل الخير أو الشر، ومن هذا القبيل مـا أوردته البنجاتنترا فى حكاية البرهمى واللص والغول، فقد صدـورت الغـول كاندـا شـريرا مفترسا، واستبدلت به مجموعة كليله ودمنة شيطانا له نفس الصفات التى لا تخرجه عـن المحور الرئيسى للحكاية.

ولا يسع الباحث وهو يقوم بالموازنة إلا أن يسجل للمجموعة الهندية أسلوبها الشعري، الذى لم تلتزمه فى مقدمات حكاياتها فقط، وإنما التزمته فى السرد النثرى أيضاً، وعلى الرغم من أن الترجمة تعجز عن نقل جميع الخصائص والمقومات التى تتسم بها الشعرية، إلا أنهـا تعكس هذه السمة فى أسلوب السرد والتصوير والتمثيل. ومع اعترافنا بقدرة ابن المقفع على التعبير الفنى فإننا نلاحظ افتقار النسخة العربية إلى الكثير من تلك الشعرية. ومع ذلك فـإن المجموعتين تسلكان فى باب الأدب، لا بمعناه القديم، ولكن بمعناه الحديث الذى يرى أن الأدب فن الكلمة أو فن القول. ولا يرجع ذلك إلى الحكايات باعتبارها شكلاً أدبياً، ولا إلى تـصوير كائنات من عالم الحيوان تصويراً يثير الخيال، ولكن إلى الأسلوب الذى صدـغت به تلك الحكايات فى السرد والانتقال... فى الوصف والتصوير... فى التشخيص والتمثيل. والـراجح أن الأسلوب كان مقصوداً لغاية جمالية، إلى جانب الغايات التعليمية، ولكن هذا الأسلوب أقوى فى المجموعة الهندية وأدخل فى الشعرية منه فى المجموعة العربية. ولقد دلت الموازنة التى قام بها الدارسون منذ القرن الماضى أن هناك فارقاً بين المـجموعتين مـن حيث عـرض

الحكايات، ففي البنجاتنتر حكايات لم ترد في كليلة ودمنة. ولقد سبق أن أشد-رنا إلى-ى تلك الحكايات التي لم تلتزم الاحتشام في الواقع والعلاقات، ونحن نضيف إليها - على سبيل المثال - حكايات الناسك والمحتال... والرجل العجوز والزوجة الشابة واللص... والحلاق الذى قتل النساك... إلخ. وفي كليلة ودمنة إضافات كثيرة لم ترد في المجموعة الهندية، منها: ١- مقدمة الكتاب المنسوبة لعلى بن الشاه الفارسى وعرض الكتاب ترجمة عبد الله بن المقفع وحكاية الفحص عن أمر دمنة، ولهذه الحكاية دلالة خاصة لأنها تسير الفلسفة الأخلاقية التي ترفض انتصار الشر، مهما كانت الغاية البعيدة أو القريبة من وراء ذلك. ومن تلك الإضافات حكايات الناسك والضيف... والبطء ومالك الحزين... الحمامة والثعلب ومالك الحد-زين... برزويه- المتطبيب.

ولقد سبق أن سجل الدارسون فى بحوثهم هذه الموازنة المستقصية لحكايات المجموعتين وأوردوا آراء بعض العلماء قبلهم، وهى الآراء التى وازدت أيدى-ضا بين حكايات ه-اتين المجموعتين وبين الحكايات التى وردت فى "المهابهاراتا" و"قشوسانا"^١، كما أنهم استخلصوا من المصنفات العربية روايات لها أهميتها فى الكشف عن معرفة بعض البيذات العلمية المتأخرة فى العالم الإسلامى بكتاب البنجاتنتر فقد نقل الدكتور عبد اللطيف حمزة عن البيرونى (المتوفى عام ١٠٤٨) قوله: "... وللهند فنون من العلم أخرى كثيرة، وكتب لا تكاد تحصى، ولكنى لم أحط بها علما، وبودى أن كنت أتمكن من ترجمة "بنج تنتر" وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة، فإنه تردد بين الفارسية والهندية، ثم العربية والفارسية على ألسنة قوم لا يؤمن بتغييرهم إياه، كعبد الله بن المقفع فى زيادته باب بروزيه فيه، قاصدا-دا- شكك ضعيفى العقائد فى الدين، وكسرهم للدعوة وإلى مذهب المانية. وإذا كان متهما فيما زاد، لم يخل مثله فيما نقل"^٢.

وفى رواية البيرونى هذه ما يضيف باعثا جديدا على وجوه الخلاف بين المجموعتين، وهذا الباعث هو شخصية عبد الله بن المقفع الذى ارتبط اسمه بمجموعة كليلة ودمنة، والذي ترجمها عن البهلوية، وهو فارسى الأصل، ظهر فى عصر انتقال، اشتجر فيه الصراع بين أصول وثقافات. ولشخصية الناقل تأثيرها بلا شك فى اختيار ما ينقله بصفة عامة، وفى انتخاب عناصر منه بصفة خاصة، وفى تفصيل الموجز، وإيجاز المفصل، وفى الصدور عن مكانة هذه الشخصية وطبقته وثقافتها، ونوازع سلوكها. وربما أظهرت الدراسات ما أضداه

^١ د. عبد اللطيف حمزة: ابن المقفع، القاهرة عام ١٩٣٧، ص ١٩٦ - ١٩٧.

^٢ المصدر السابق، البيرونى: "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مردولة"، طبعة ليدن سنة ١٨٨٧، ص ٧٦.

ابن المقفع على مختاراته ونقوله من تنقيح وتغيير... من إضافة وحذف... هـ- ذا إذا صدحت نسبة الترجمة العربية المتداولة إلى هذا الكاتب الإسلامي.

وتأثير شخصية المترجم يتجاوز وضع اسم مكان مقابل اسم مك-ان آخ-ر، ويتج-اوز استبدال حيوان بغيره، ويتجاوز إيراد التفاصيل في سياق بعض الحكايات، إلى-ى الاخ-تلاف الجوهرى فى العناصر الثقافية والحضارية التى تحكمها بيئة جغرافية-ة، ومرحلة تاريخية-ة، وعلاقات اجتماعية، لابد أن يضاف إليها جميعا شخصية الناقل، وما تنسم به من خ-صوصية فى التفكير والتعبير ونوازع السلوك جميعا، مع الاعتراف بوج-ود حلقة فارسية وس-طى استحدثت هى أيضا الكثير من وجوه التغيير والخلاف.

وهذه الموازنة العجلى بين هذين الأثرين الأدبيين اللذين اشتهرا فى العالم وأث-را فى-ى آداب الشعوب، لا يمكن أن يتحقق فيها التفصيل المنشود. ولقد أريد بها أن تكون تعريفا لا-د-د منه، بعد الفراغ من نقل البنچاتننرا إلى العربية. وليذكر الدارسون والقراء أن تصنيف حكايات الحيوان قد حفز إليه هذا الكتاب وأعان عليه الكتاب العربى "كليلة ودمنة"، وأن هذا الت-صنيف يستوعب ويتابع الحكايات التى تسجل من أفواه الأحاد العاديين، أيا كان الشعب الذى ينتم-ون إليه، وأيا كانت اللغة التى ينطقون بها، ولم يبق إلا أن نضيف إلى جهود الجامعين والمصنفين وثائق مستخلصة من الحكايات الشعبية العربية الحية.